









@ketab_n

19.9.2013







عَلِي بَدْر

أَسَاتِذَةُ الوَهْم



أَسَاتِذَةُ الوَهْم

أساتذة الوهم / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، 2011



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سيسي® عمّان 95297109 7 00962
لوحة الغلاف : **سلمان المالك / قطر**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **دمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-614-419-018-0

هل أبحرنا بما فيه الكفاية

في موج سيئ المذاق

هل هذينا بما فيه الكفاية

من الفجر البديع وحتى المساء الحزين

Guillaume Apollinaire

البداية
شباب يحلمون بالشعر ولا شيء آخر

مشهد من بغداد في العام ١٩٨٧

كنا ثلاثة : «منير ، عيسى وأنا» ، نقف قبالة مقهى صغير ، في زقاق قاتم ومعتم ، يتفرع من شارع أبي نواس ، كانت أرضية المقهى قذرة ، منفّرة ، كأنها أرض خمارة ، وضياء المصباح الليموني يرتسم على وجوهنا ناعماً ورقيقاً .

عيسى بدا حزيناً ذلك اليوم بوجهه المتعب المهزوم . ومع انهمار قطرات المطر الغزيرة ، انتابه شعور بالتردد . تمتم بكلمات غير مفهومة ، وهو يسحب نفساً من سيجارته . بعد لحظات رمى عقب السيجارة في الماء المتجمع عند رصيف الشارع .

كان منير يضع كتاباً سميكاً لكاتب انجليزي ذائع بين الشباب تحت إبطه ، مسح أنفه المحمر من البرد ثم خبّأ يده في جيبه : «نعم لقد مطرت كثيراً هذا اليوم» قال بصوت خفيض كأنه صوت منجم . فرفع عيسى رأسه لينظر نحو الغيوم التي تنثّ رذاذاً متلاحقاً ومسح الماء عن وجهه .

قلت لهما : ظننت في البداية أن من الأفضل ألا نقوم بهذه النزهة ؛ لأنّ الجوّ رطب وسيء ، ولكن ما إن قرأ عيسى

قصيدته حتى تغيرت .

فرح عيسى للأمر وقال «هذا المقهى مزدحم بسبب المطر فلنذهب إلى مكان آخر» ، فاقترح منير أن نذهب إلى المقهى البرازيلية في شارع الرشيد .

*

كانت شمس الشتاء مختبئة وراء كسف من السحاب ، لا تسدل إلا غلالة باهتة من ضوء ضئيل شاحب على شوارع تحف بها بنايات ذات واجهات حجرية ، ونوافذ كبيرة ، وشرفات بللتها الأمطار ، والآن تصفر في جوانبها الرياح . ومع أننا كنا مبلّلين تماماً تحت السماء الرمادية ، إلا أن ذلك لم يشغلنا عن متابعة حديثنا أو التجول في شوارع بغداد . كنا نسير بهدوء تحت الغيوم التي نثت نهراً من الماء غسلت به الأشجار ، ومظلات المحلات الملونة ، والمصطبات الخشبية المتناثرة في حدائق شارع أبي نواس ، بينما كان نهر دجلة في متناول نظراتنا قد انتفخ حتى فاضت المياه على جنباته .

*

دخلنا زقاقاً صغيراً قادنا من شارع أبي نواس المطل على نهر دجلة إلى شارع السعدون المزدحم بالسيارات المغسولة . توقفنا قليلاً عند مكتبة صغيرة تبيع بعض الكتب الأجنبية قرب سينما سميراميس . ثم انطلقنا في الشارع بهدوء حيث كنا نتوقف عندما تعبر سيارة وهي تحرك ماسحاتها على زجاجاتها الأمامية يميناً وشمالاً .

كان هنالك حشد من الجنود والموظفين يسرعون نحو الباص المتوقف في ساحة النصر . أما نحن فقد قطعنا الطريق وتجاوزنا صفاً من الأشجار محاذية لمصرف الرافدين ، ولشركة برنستون للإطارات الأميركية ، في أعلاها صورة إطار كبيرة تحف به الحروف الإنكليزية المرسومة بالأسود والأحمر .

عبرنا معاً شارع السعدون متجاهليْن السيارات التي تمرق بسرعة . أخرج عيسى لفافة ورق من جيبه ، في حين كان يقبض بيده الأخرى كتابه . أما أنا فقد انشغلت بإشعال سيجارة أخرجتها من جيب قميصي ، وأخذت أقفز فوق بركة ماء صغيرة هي بقايا ماء مطر متجمع في الشارع الإسفلتي . عندما وصلنا الرصيف رافقت خطواتنا المتسارعة ضحكة سكير يجلس على دكة في الساحة .

كانوا ثلاثة سكيرين أو أربعة ، يجلسون على دكة كونكريتية ، وكانت قنينة العرق تنتقل من يد إلى أخرى ، يتنفسون برتابة ، وعيونهم تومض بثمل ناعس في هذا الجو الكئيب ، والممطر . أحدهم ينظر إلى مؤخرة امرأة تعبر الشارع ، وخصل شعرها السوداء مبللة .

من ألبوم صور العام ١٩٨٧

عيسى يمسك أوراقاً ويقرأ قصيدة . منير وأنا نجلس إلى يمينه وشماله بيد كل واحد منا سيجارة ونصغي له بصورة تامة . كان ذلك في دكّانٍ للشاي يديره عامل آشوري اسمه عوديشو ، يقع

هذا المقهى ، في حي الصليب في البتاوين ، الشارع الذي يقود إلى تمثال السعدون (الوزير المنتحر في العام ١٩٢٩) . تظهر في الصورة مجموعة من الجنود جالسين على الكنبات بأيديهم استكانات الشاي ، وعلى الحائط صورة فتاة تمسك مظلّة سوداء ، وتقف تحت إفريز دكّان .

الصورة الأخرى عيسى ومنير وأنا ، ثلاثة شبّان يافعين في العام ١٩٨٧ ، في إجازة من الحرب ، نقف أمام مكتبة مكنزي في شارع الرشيد . الكتب الأجنبية وصور كتّابها من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين معلّقة بشريط أحمر في الفاترينة . وفي الخلفية تجلس صاحبة المكتبة مع ابنتها . وهنالك رجل لا تظهر منه إلا يده تسحب كتاباً سميكاً قرب السلم .

الصورة الثالثة : نجلس في المقهى البرازيلية في شارع الرشيد مبتسمين . ننظر من خلف الواجهة الزجاجية إلى السابلة على الرصيف ، نشرب القهوة ونتكلم عن أشياء لا يعرفها سوى بروفسورات الوهم من جيل الشعراء الشباب الذين شهدوا الحرب ، وهو جيلنا .

الجزء الأول:

حينما يظهر الجنود الشعراء

في رسالة غير متوقعة

آهِ كم جديّة ملامح الموتى العزيزين .
فالرؤيةُ الحقيقية هي التي تبهجُ الرّوح .

Georg Trakl

I
رسالة غير متوقعة

كانت رسالة ليلى السماك- الرسالة التي ذكرتني بتلك الأعوام المنسية من حياتي- غير متوقعة أبداً.

لقد تسلمتها باضطراب وتوتّر كبيرين في ظهيرة يوم تشرينيٍّ مشمسٍ من العام ٢٠٠٣، وأنا في مقهى على البحرِ في بيروت، بينما كانت هذه الرسالة مرسلة لي أصلاً على عنوان أهلي في بغداد، فعمدت والدتي لإرسالها خلفي على عنوان ناشري في بيروت، ولأنّي كنت أغير إقامتي تلك الأعوام كل شهر أو شهرين تقريباً فقد فاتتني الرسالة على الأقل عاماً كاملاً.

*

كانت الرسالة مرسلةً من روسيا، وقد لحظت ذلك من الطابع الملصق على المظروف قبل أن أقرأ العنوان، وهو رسم تخطيطي باللون الأزرق الفاتح للشاعر الروسي المعروف مايكوفسكي.

قرأتُ الرسالة بسرعة. كانت مكتوبة بلغة بسيطة، وبطريقة منظمة؛ ذلك أنها مقسمة على شكل فقرات، قالت

ليلى في ثاني فقرة منها إنها التحقت هذا العام ببرنامج الدكتوراه في جامعة بطرسبورغ، وستكون أطروحتها عن شعراء روس ماتوا مجهولين في السجون أو في معسكرات الاعتقال تحت الحكم الستاليني (قلت في نفسي هل اختيار طابع هذه الرسالة، صورة تخطيطية للشاعر مايكوفسكي، أمر مقصود منها).

ثم تحدثت عن الشطر الخاص بحياتها الشخصية بعد سفرها من العراق، وإن كان بشكل حميمي، إلا أنه بشكل مقتضب جداً، أي عن ظروف سفرها إلى روسيا، ومصير والدها المتروك منذ سنين في بغداد، وافتراقها عن والدتها الروسية التي رحلت إلى مدينة أخرى. كانت تقدم لي معلومات خبرية دون تفصيل أو إيضاحات. أما في الفقرة الرئيسية من الرسالة فقد أسهبت ليلى في الحديث عن أطروحتها التي تكتبها، وفضلاً عن الشعراء الروس الذين قتلوا أو ماتوا في معسكرات الاعتقال تحت الحكم الستاليني، هنالك الشعراء الذين عاشوا فترة الحرب العالمية الثانية-أو الذين قتلوا خلالها-أو استمروا في العيش تحت عقابيل سنوات ما بعد الحرب، وهي أحداث قاسية استمرت حتى وفاة ستالين، وقد أسمتهم بالشعراء الذين عاشوا فظائع الحرب وخسائر التاريخ.

وقالت في رسالتها إنها تريد أن تصنع نوعاً من المقارنة، أو على الأقل نوعاً من المقاربة تجمع شعراء عراقيين عاشوا أعوام الثمانينات في العراق، أي أعوام الحرب العراقية الإيرانية التي

استمرت ثمانية أعوام ، والشعراء الذين ماتوا أو قتلوا في ظل حكم صدام حسين ولم ينشروا شيئاً من شعرهم ، مع هؤلاء الشعراء الروس المجهولين الذين عاشوا في حقبة مشابهة ، ذلك أنها ترى تشابهاً كبيراً في المرحلتين .

قلت في نفسي وأنا أقرأ الرسالة : ربما! ولكن أين ستجد وجه التشابه ، كيف تحدده أقصد ، كيف تقدّمه؟ هذا هو السؤال .

ثم كتبت في نهاية الرسالة ، أي في ذيلها ، ملاحظة صغيرة ، (وهذا هو أهم ما في الرسالة بطبيعة الأمر) ، قالت إنها تريد مني مساعدتها في ذلك ، وقد اختصرت طلبها مني بكتابة- فيما إذا كان لديّ الوقت الكافي-بعض التفاصيل والمعلومات عن تلك المرحلة المهمّة من حياتي ، وقد حدّدت بالأخصّ الكتابة عن حياة عيسى الذي أعدم في العام ١٩٨٧ (كانت تعرفه جيداً) ، وحياتي أيضاً ، ثم طلبت مني ، وهذا هو الغريب في الأمر ، أن أكتب لها بشيء من التفصيل ، أو على الأقل أن أقدّم لها تفاصيل ومعلومات عن حياة شقيقها منير ، والذي قتل في آخر شهر من الحرب العراقية الإيرانية ، أي في آب من العام ١٩٨٨ ، وقد علّلت ذلك بسبب معقول ، هي أنها تعرف أشياء شخصية كثيرة عنه (وهو أ مر طبيعي لشقيقين عاشا في منزل واحد في بغداد) ولكنها لا تعرف الكثير عن حياته كشاعر ، عن كتابته ، عن هواجسه ، عن أفكاره ، عن شعره بالأحرى ، وعن جميع الأشياء الأخرى التي من الممكن

أن أكـون قـد وقـفت عليـهـا بحكـم صـداقـتنا ، واهتـمـامـاتنا المشتركة .

*

في الواقع هذا هو كل مـا ورد في الرسـالة غـيـر المتوقـعـة والمختصرة جداً من ليلى السماك ، شقيقة منير ، أكثر أصدقائي حميمية في الثمانينات ، ومع أن الرسالة جاءت بعد حوالي عشرة أعوام من آخر لقاء لي معها في بغداد ، إلا أنها لم تكن مفاجأة حقيقية لي ، ولكنني أعترف أنها لم تكن متوقعة أيضاً من حيث ما ورد فيها من معلومات . فقد التقيت ليلى آخر مرة في العـام ١٩٩٣ في ضـحى يوم ربيـعي في الكرادة ، وكـانت برفقة والدتها الروسية تتجولان في سوق الخضار في ارخيته ، وعلى صـوت البـاعـة وروائح الفـواكـه وجـدت نفـسي فـجـأة أمـامـهـمـا ، وكـانتـا أمـام بقّـال يبيع أنواعاً مـتعـددة من الفواكـه والخضار ، فسلّمت عليهما ، فهجمتا عليّ كلاهما وعانقتاني بحرارة ، ومع أن ليلى لم تتغير كثيراً ، إلا أن والدتها فاجأتني بشيخوختها المبكرة ، فقد ابيض شعرها تماماً ، وضعف بصرها ، فارتدت نظارة طبية سميكة . لقد فاجأني منظرها ؛ إذ أصبحت امرأة ذابلة مع أنها كانت جميلة جمالاً لا يضاهى فيما مضى .

أخبرتاني ذلك الوقت أنهم (العائلة كلها) يعدّون أنفسهم للسفر إلى موسكو ، والاستقرار هناك نهائياً ، وطلبت منّي ليلى أن أكتب لها عنواني البريدي لتكتب لي فيما إذا احتاجت منّي شيئاً ، أو على الأقل أن لا يضيع عليها أثري .

ومع أني كنت أنتظر رسالة منها ، لا أدري كيف ، فمن حين إلى حين كنت أتذكّر أني أعطيتها عنواني ، ولكن نسيت من مدّة أمرهما لانشغالي بالحرب على العراق بعد العام ٢٠٠٣ ، إلا أن رؤيتي لهذه الرسالة وفي هذا اليوم بالذات أزالت الغبار عن ذكريات قديمة جداً ، ذكريات كنت احتفظت بها بحب في مكان ما من قلبي ، ذلك أن هذه العائلة كما لو كانت عائلتي ، أنا وعيسى على الأخص ، فلم يكن شقيقها منير صديقنا في الجيش فقط ، إنما قضينا عيسى وأنا في منزلهم المقابل للريسز القديم في المنصور أجمل الأمسيات .

*

ولا بأس أن أذكر بعض المعلومات السريعة عن هذه العائلة :

كان والدها مجدي السماك مهندساً في شركة نفط الشمال ، ذهب للدراسة في جامعة موسكو في الستينيات ، وتزوج من امرأة روسية اسمها أولغا ، كانت تعمل أمينة مكتبة في الحي الذي قطنه في موسكو ، وقد أنجبت له ليلى ، التي بعثت لي بهذه الرسالة ، ومنير ، صديقنا في الجيش الذي كان مولعاً بالشعر مثلنا ، وقد استشهد في الأيام الأولى من آخر شهر من الحرب العراقية الإيرانية ، أي في شهر آب من العام ١٩٨٨ .

هنالك في ذلك المنزل الجميل الذي صمّمه له معماري عراقي ، درس العمارة في موسكو أيضاً ، وكان مثله متزوجاً من

روسية ، اسمه نجيب علي نجيب - صمّمه على طراز مختلط بين نمط العمارة الروسية الذي يعتمد على الأفاريز والزوايا وبين النمط العراقي في العمارة الذي يعتمد على الشرفات والإطلالات الخارجية- ، في هذا المنزل الفخم كنا نقضي جلّ أيّام إجازتنا من الجيش ، نشرب الفودكا التي كان والده يحب أن يضعها في رفوف متوازية قبالة مكتبة كبيرة تحتوي على مجلّدات الأدب الروسي والعربي ، الكلاسيكي والحديث ، وهنالك الغرامفون الأسود الذي تنبعث منه أجمل الموسيقى الكلاسيكية وأعذبها ، وفي الزاوية الأخرى كان هنالك بيانو جميل تعزف عليه والدته ، وكان منير يخبرنا في لحظات سكره أن هذا البيانو قد ورثته والدته أولغا من حفيدة تشايكوفسكي ، حيث تقرب والدته من زوج هذه المرأة ، ومع أن هذه القصة هي كذبة ظاهرة وواضحة إلا أننا كنا نستقبلها عيسى وأنا بود وبفرح غامرين ، ولا سيما عيسى الذي يقول :

إن لم نكن عرفنا تشايكوفسكي أو التقينا به ، فعلى الأقل كنا نجلس في منزل له صلة ما ، صلة غامضة بهذا الملهم الموسيقي العظيم .

*

كان منير ، أمه وأبوه وشقيقته وعمته يعيشون في المنزل المؤلف من طابقين . قبل هذا الوقت كما قال لنا كانوا يسكنون داراً طابوقية صغيرة في كمب راغبة خاتون ، شيّدها جده في العام ١٩٥١ ، بينما منزلهم الجديد شيّده والده في العام

١٩٧٠ ، وكُتب فوق الباب المطل على الشارع «منزل المهندس مجدي السماك» كما درجت الموضة في تلك الأيام .

حين جاءت أمه من روسيا جلبت معها عدّتها إلى بغداد : بيانو ، ومجموعة كبيرة من الكتب الروسية القديمة والحديثة ، وأدوات مطبخ ، وبعض الأشجار المزروعة في الحديقة ، وأشياء كثيرة يمكن أن يلحظها الزائر في المنزل : أبجورات روسية ، فوتيات جلدية مميزة ، أجهزة كهربائية ، فضلاً عن الصور الكثيرة المعلقة على جدران الصالة ، لا الصور عن الطبيعة الروسية فقط ، ولكن هنالك صور عديدة مع صديقات لها أجنبيات في بغداد .

ومن الضروري أن نقول إن الزيجات الأجنبية في الستينيات والسبعينيات ولا سيما من الروسيات والسلافيات بشكل عام ، هي الأخرى على الموضة ، فقد كان الزواج من أميركيات وبريطانيات نادراً ولا يمر دون تساؤلات ، بسبب الماضي الاستعماري وبسبب الإعلام الرسمي القومي المعادي لهذه الثقافات ، والذي يقترب من العنصرية بعض الأحيان . ولكن الزواج من روسيات وسلافيات وعموم أعراق أوربا الشرقية ، كان شائعاً ، ولا سيما بين الطلاب العراقيين الذين يذهبون للدراسة في هذه الدول ، التي كان يطلق عليها ذلك الوقت «الدول الاشتراكية» ، وكان عدد الموفدين كثيراً ، بسبب رخص الحياة ومجانية الدراسة فيها ، وكذلك بسبب الحب العقائدي للكثير من الشيوعيين إلى الأنظمة التي تحكم هناك ،

وجل هؤلاء يشكلون طليعة الشباب ذلك الوقت ، وأكثرهم من عائلات الطبقة الوسطى .

*

في هذا المنزل الذي يلمّ العائلة ، كنا نحصل على الكثير من الاستقلالية ، والكثير من الحرية بالنسبة لعيسى وبالنسبة لي أيضاً . نصعد وننزل الدرج ، نقرأ الجريدة في الحديقة ، ونشرب الشاي في الصالة ، ونصعد على السطح ، نتجول في المنزل ونحن نضرب شريط البيانو كلّما نمرّ منه فيتصاعد الصوت مدوياً في المنزل .

كانت صورة البيانو في المنزل ذات صفة استعراضية أكثر مما هي فنية ، ذلك أننا لم نر أحداً يعزف عليه ، إلا بعض المرات التي يطلب منير فيها من والدته أن تعزف قطعة صغيرة حينما يريد أن يتباهى أمام أصدقائه ، فيذهب مثل الطفل ليتوسل بها لتعزف لنا ، فتأتي وهي ترتدي صدرية المطبخ ، لتعزف قطعة لا تتجاوز الثلاث دقائق ، وهي في الغالب من كسارة البندق ، أو مقطع صغير من العصفور الناري ، ثم تنهض لتشدّ الشال على رأسها ، وتقول لنا إنها قد تحوّلت بسبب الحياة وبسبب الطقس إلى عراقية ، أي قطعت أي علاقة لها بالفن .

أما الزوج الذي كان يحضر في السبعينيات مع زوجته حفلات البيانو المقامة في بغداد ، لباتريس أوهانسيان ، أو أغنس بشير ، فقد انقطع هو الآخر عن القراءة أو الفن أو السينما ، ولم يعد له سوى قراءة الصحف المحلية والمجلات

والتفرج من النافذة على المارة ، وربما أخذت المكتبة والبيانو شيئاً فشيئاً تثيران فيه الحزن والضيق .

أما في واجهة الصالة ، فبالإضافة إلى البيانو هنالك الخزانة المليئة بالخزفيات الروسية ، والملاعق والسكاكين الفضية ، والسكريات ، وعلب التبغ ، والكؤوس الكريستالية ، ومرشات ماء الزهر ، ودمى صغيرة تمثل الأزياء الروسية .

*

بعد قراءة هذه الرسالة أخذت أعيد تذكّر تلك الأيام بقوّة ، أتذكّر والد منير وهو يجلس على الدوام على مقعد خيزران ، تحت الأوراق الصفراء في الحديقة ، يتأمّل الأشجار ، وصفوف الآس المقصوص ، يداه تستندان إلى مسند الكرسي ، وزوجته الروسية تقف إلى جانبه بتنورتها الكتان الخفيف تضع على رأسها شالاً ملوناً وتلفه على طريقة نساء تولستوي الروسيات .

وحين رأيتها هذه المرة لم يكن بإمكاني أن أصدّق أن الزمن استطاع أن يحدث مثل هذا الخراب ليس في العراق وحسب ، إنما في هذه العائلة التي فقدت ابنها في الحرب أيضاً .

II

أصدقاء الحظ النكد

تعرفت إلى منير في الجيش ، وفي الأشهر الأولى من خدمتي في الحرب ، كان ذلك في العام ١٩٨٦ على ما أعتقد . كنت يومها وصلت حديثاً إلى البصرة للاشتراك أول مرة في حياتي في معركة ، وكانت شرق مدينة البصرة ، حيث سقطت مدينة الفاو بيد القوات الإيرانية!

يا للحظ النكد! علي أن أبدأ مشواري العسكري بأخطر معركة . هكذا قال شاب جالس إلى جانبي .

– سيجارة . . تدخن . . . قدم لي سيجارة . . . تناولتها وأخرجت القداحة من جيبي وأشعلت له .

– هل رأيتك في مكان ما . . . أنت من بغداد . .؟ قال .

– نعم . .

هل تتردد على مكتبة القنصلية البريطانية . .؟

– نعم بالتأكيد . . فرحت جداً بذلك .

*

لم نكن نعرف أي شيء عن المعركة ، ولكننا عرفنا من سائق ناقلة عسكرية أن مدينة الفاو وشبه جزيرة الفاو التي

تشكل رأس المثلث فيها رأس البيشة ملتقى شط العرب وخور عبد الله في الخليج العربي ، قد سقطت بيد القوات الإيرانية ليلة أمس . كل شيء يدل على أن المعركة طاحنة . أرتال الجيش القادمة كتعزيزات من أماكن أخرى تتقدم ، وأرتال أخرى ولا سيما المحطمة من المعركة تنسحب . ففي مسافة كيلو متر واحد هنالك عشرات الدبابات ، وناقلات الأشخاص المدرعة ، والمدفعية بأنواعها ، وعجلات القدمات الإدارية ، والإسعافات قد تداخلت فيما بينها ، وتكاد سرعة التقدم تقاس بعدة أمتار في الساعة ، فكانت الأمطار غزيرة والأرض موحلة تماماً .

قبل ذلك كان علينا أن نتسلم كتب نقلنا ونذهب إلى الجبهة ، حيث كانت هنالك ناقلات عسكرية في انتظارنا . فانضممنا -هذا الشاب وأنا- إلى طابور من الجنود المصطفين أمام مبنى العمليات العسكرية . في معسكر الشعيبة في البصرة .

انتظرنا قرب عمود حجري متصدع . ثمة شظايا زجاج داكنة اللون متناثرة على الأرض ؛ ربما هي من مخلفات غرفة زجاجية كانت فيما مضى تطل على حديقة المبنى ، لم يبق منها بعد القصف غير أعمدة هيكلها الحديدية الصدئة ، وبقايا قطع زجاجية مهشمة مازالت تتشبث بتلك الأعمدة .

كنا نعرف أننا هنا من أجل تعويض الوحدات المبادة في هجوم الأمس ، وكل جندي فينا يعرف بأن الهجوم الذي حدث ليلة أمس قد أوقع قتلى كثيرين ، وأن عليه أن يعوض جندياً قتيلاً .

- هنالك قتلى كثيرون ، همس لي هذا الشاب .

التفت لي آخر وقال :

- علينا أن نعوض الوحدات المهيكلة ، أي التي تباد في الحرب ويعاد تشكيلها ، كي نعاود الهجوم مرة أخرى .

أما تحول هذا المبنى إلى مكان للتسويق فلم نكن نعرف به إلا ذلك اليوم .

*

انتظرنا أكثر من ساعتين تقريباً في هذا المكان ، وقد حصل جميع الجنود الواقفين في الطابور معنا ، على كتب نقلهم ، إلا نحن ، كنا أكثر من عشرين جندياً ، بينهم منير وأنا . ثم جاء شخص برتبة عريف أخذنا معاً داخل المبنى .

كان مبنى العمليات المتداعي يستخدم فيما مضى كدائرة لتصديق الأختام العسكرية ، وفيه قاعة للتوجيه السياسي تنفذ فيها أساليب الدعاية ، وكانت بدائية في واقع الأمر ، لكن الجنود يحتفظون بمشاعر الخوف والهيبة من ذلك المبنى الحزبي ، وقد تراكمت الكتابات والأصباغ فوق نوافذه . كتابات واضحة وأخرى شبه ممحوّة ، بسبب تداخل حروفها ولطخات أصباغها الرديئة . ومع أن مؤسسات عديدة قد تعاقبت على استخدامه ولأغراض شتى ، كمركز لتوزيع المؤن ، وكمديرية للمشاة ولكن عمله السياسي أضفى عليه هيبة خاصة .

أما الحجرة المهشمة فقد كانت لجلوس بعض جنود الاستخبارات وقد أضحت حطاماً ، أما باقي البناية وقد كانت نظيفة تقريباً فقد هجرت منذ زمن طويل أي بعد الهجوم

الإيراني مباشرة ، حيث وصلت طلائع قواته إلى الشارع الرئيس الذي يربط بغداد بمدن الجنوب .

*

أدخلنا النائب عريف على ضابط برتبة نقيب ، كان يتصل بالتلفون ، ويتحدث بصوت عال مع رتبة أعلى منه ، ومن الواضح أنه يتصل بشأننا :

- نعم سيدي . . . الجنود اللي ذكرتهم بكتاب مديرية الميرة عندي . . . نعم سيدي راح نرسلهم الآن . . . صار سيدي . . .

لم نكن نعرف أي شيء عن الأمر . . . بقينا واقفين أمامه لمدة ربع ساعة تقريباً ، وقد اتصل بعد ذلك تلفونياً بالوحدة طالباً منهم إرسال سيارة ، ثم أمرنا أن ننتظر أمام باب المبنى .

خرجنا منير وأنا وأصبحنا نتحدث عن سبب عدم إرسالنا مع الجنود الباقين مباشرة لتعويض القطعات المهيكلة .

بعد ذلك فوجئنا بسيارة زيل قادمة توقفت أمام المبنى ، ونادانا السائق :

- هل أنتم الذاهبون إلى مقر الفيلق .

- لا نعرف . . . قلنا له ، ولكنهم طلبوا منا أن نقف هنا .

خرج العريف من المبنى برفقة النقيب . فأدينا التحية ووقفنا بالاستعداد ، فناولنا كتب نقلنا وقال لنا ستذهبون الآن إلى مقر الفيلق السابع . حينها عرفنا أن مقر الفيلق قد سقط هو الآخر في يد القوات الإيرانية .

*

بعد نهاية المعركة أصبحنا منير وأنا أصدقاء ، كنا نتحدث كثيراً فيما بيننا ، وعن أشياء متعددة ولا سيما الأدب . ولأننا التحقنا معاً فقد أصبح موعد إجازتنا واحداً ، وأتذكر أننا التقينا في اليوم الأول من الإجازة في المركز الثقافي البريطاني ، لكن الحديث الذي دار بيننا ذلك اليوم كان عن الأدب الروسي :

- كل الروس بالنسبة لنا شيوعيون ، أما الأدب الروسي فهو بمجمله بالنسبة لنا محض أدب اشتراكي؟

- كلام هواة . . . رد منير . . . ربما بعض نماذج الأدب الروسي هي التي أعطت مثل تلك الانطباعات .

إنها مكتبة القنصلية البريطانية التي تقع في الوزيرية ، واحدة من أرقى أحياء بغداد ، وتقع المكتبة في شارع مشجر واسع وجميل ، عبارة عن منزل كبير فيه غرف واسعة تصبح مدفئة حين يحل الشتاء ، وفي الصيف مبردة لذلك نلجأ إليها .

على جدران تلك الغرف تنتظم صفوف الكتب الإنكليزية المرتبة حسب الحروف الأبجدية ، وحسب الجنس الأدبي ، وهنالك ورقة صغيرة مكتوبة بحبر «الباليكان» الملكي الأزرق ، وبحروف متناهية الصغر والدقة . حيث يحفر قلم الحبر أخاديد في ألياف الورقة ذات اللونين البني والبرتقالي .

*

التقينا مرتين أو ثلاثاً في المركز الثقافي البريطاني ، المرة الأخيرة كانت بالصدفة ، فتوقفنا وشربنا الشاي في الحديقة ، وعند افتراقنا دعاني لزيارته في منزله ، أعطاني العنوان وذهب

مباشرة مع صديق له في سيارته .

في اليوم التالي زرته في منزله ، حين دخلت كانت خزانة الكتب أول ما لفت نظري .

وهي عبارة عن خزانة كبيرة متعددة الدرفات ، مصنوعة من خشب الساج الفاخر ، وتمتد رفوفها التي تحمل الكتب من الأسفل إلى الأعلى ، وتشغل مساحة واسعة ؛ إذ كانت على طول جدار الصالة . وتقع في الواجهة أي مواجهة الداخل للمنزل ، وهي أول ما يراه .

III
جنود، ساعات، وجماعات أدبية

كنت قد تعرّفت على عيسى قبل أن أتعرف على منير، ولكنهما هما من عرّفاني فيما بعد على مجموعتين من الشعراء الجنود، نشطتا بشكلٍ سرّي تلك الأيّام. تطلق الأولى على نفسها مجموعة الساعة الخامسة، تتكون من خمسة شعراء - تعرّفتُ بشكل شخصي على ثلاثة منهم على الأقلّ- وتتحلّق هذه المجموعة على طبيب شاعر، وهو جندي أيضاً من وحدات الميدان الطبّي، اسمه الدكتور إبراهيم، ويطلق عليه منير «الدكتور فاوستوس»، ويعتقد أصدقاؤه بأنه أعظم شاعر حيّ في الكون كلّه، ويعتقدون أنه شخصية خارقة واستثنائية أيضاً، أما ديوانه (أناشيد) فلم يكتب في الشعر العربي على مثاله أبداً، هذا ما كان يقوله الجميع عنه، أقصد جميع أصدقائه.

ومن عرّفني على الدكتور إبراهيم هو منير؛ إذ كان ذلك الوقت عضواً أساسيّاً في المجموعة، كما يبدو، وقد تعرّف إليه عندما خدم قبل عام في كتيبة قريبة من وحدة الميدان الطبّي التي كان يخدم فيها الدكتور إبراهيم.

أما المجموعة الأخرى فهي جماعة أدبية تطلق على نفسها جماعة بهيّة ، وقد عرفني إليها عيسى ، وكان قد التحق بها بعد أن فر من الجيش ، وهي أغرب جماعة أدبية سوريالية كما بدت لي :

كانت جماعة بهيّة فريقاً أدبياً على غرار التجمعات السياسية ، وهي فريق سرّي ، إنتاجه علني ولكن تجمّعه واجتماعاته سريّة ، وفي ظاهره وباطنه غير سياسي ، أي بمعنى آخر لا يحمل أي محتوى إيديولوجي . وكان هذا الفريق مثل فرق الموسيقى والغناء عمله جماعي بالكامل ، كتابة القصائد تتمّ بشكل جماعي ، وكتابة الرواية تتمّ بشكل جماعي ، وتمارس الفرقة عمليات السطو والنشل والسرقة لتمويل أعمالها . أطلقت الفرقة على نفسها اسم بهيّة ، وكانت توقّع قصائدها ورواياتها باسم بهيّة .

وبهيّة هو اسم عاهرة في الميدان كبيرة السنّ جداً ، ولكن في زمانها كانت أجمل عاهرة في بغداد ، ويقال إنها عاشرت أكثر السياسيين العراقيين ألمعيةً وشهرةً في الخمسينيات والستينيات ، ولكنها انتهت إلى بائعة سجائر بالمفرق ، تجلس على بسطة أمام بيوت الدعارة في الميدان .

انتهت المجموعة إلى مقاومة الحرب ، على أن الحرب تعادي الفنّ ، وانتهت بالاحتفاء بالجنود الفارين أو الهاربين من الحرب ، والهامشيين والمرضى والضعفاء وكليلي البصر ومعوّقي الحرب والمقعدين ومن أطلقوا عليهم هم بـ«بروليتاريا الصحة» ،

وبالعاهرات لأنهنّ «بروليتاريا الأخلاق» ، والوقوف بوجه القوّة الغاشمة وتعرية السلطة . وقد كتبوا قصيدتين ، ورواية شعريّة عن فرار من الحرب ، غير أنّهم ألقي القبض عليهم جميعاً ، وحكم عليهم بالإعدام .

تعرّفي إلى جماعة بهية

في الحيدرخانة كان اجتماعهم ، وفي شارع لا يعدّ ساكنوه من بين أفضل الناس سمعةً . يقع في طرف المحلة ، لا شيء بعده سوى السوق الفوضوي يوم الجمعة ، والمقبرة شبه المهجورة ، وبرج البارود القديم منذ أيام الدولة العثمانية وقد تحول إلى خان رخيص للجنود المارين ، وللنزلاء العابرين . التقيت هناك بعيسى واثنين معه من الجنود الفرارية أو الهاربين من الحرب ، كنا نتناقش بصوت منخفض على صوت أهل المحلة وعمالها بصديرياتهم الوسخة ، وأصواتهم العالية ، ووجوههم المكفهّرة ، بينما عربات السحب التي تبيع كل شيء تثير غباراً خانقاً في الشارع .

هنالك تقف النسوة الذابلات وبناتهنّ عند عتبات الأبنية ، وأطفالهنّ يلعبون عراةً تحت أشجار هزيلة ، حيث صبغ التراب وجوههم ورؤوسهم الشيطانية الصغيرة . أما المكان الذي اجتمعنا فيه فهو فندق فقير يديره عامل مصري ، جدرانه بلون أخضر قذر ، وفيه فسحة لعمال مصريين ومحليين من مختلف أرجاء البلاد يقضون فيه يوماً أو يومين ، وهنالك الأرضية المغطاة

بكاربت خشن لم يستبدل منذ الشتاء .

أما المجموعة كلّها فتتكون من عشرة أشخاص -من دون عيسى- ولكني لم أتعرّف- وجهاً إلى وجه- إلا على القليل منهم ، أربعة أو خمسة ربما ، ومن غير الأساسيين ، أي من غير الذين لعبوا دوراً بارزاً في المجموعة ، ولكن هناك الكثير ممن ادعى أنه منهم ، ولم يكن منهم ، ذلك أن عدد المجموعة وأسماءهم غير مؤكدة حتى الآن ، ولا أحد يعرف الحقيقة مطلقاً ، طالما قد تم إعدامهم جميعاً .

أما عيسى فأظن أنه كان أرهفهم موهبةً وأغزرهم إنتاجاً ، ولكن آخر ما كان يحلم به عيسى هو أن يتهم اتهاماً سياسياً . الغريب في الأمر أن حكم الإعدام قد صدر ضدّهم وتمّ إعدامهم بتهمة الهروب من الجيش أثناء الحرب ، إلاّ عيسى ، الذي تمّكن من الهرب قبل القبض عليه ، وبقي ثلاثة أشهر طليقاً ، وأخذ يتخفى بصور وطرق مختلفة ، ولكنه سلّم نفسه فيما بعد ، أثناء العفو العام عن الفرارية أو الهاربين من الجيش ، والذي صدر في ديسمبر من العام ١٩٨٧ ، إلا أنّه اتهم بتأسيس تجمّع سياسي محظور ، وحكم عليه بالإعدام ، وتمّ إعدامه بعد أسبوع واحد فقط من تاريخ القبض عليه .

*

الحديث عن الجماعتين مهم جداً ، فإن عرّفني عيسى إلى جماعة بهيّة -ولم أكنْ منهم- فأنا الذي عرفته إلى جماعة شعراء الساعة الخامسة ، ولم أكن منهم ، ولكن منير هو الذي

عرّفني إليهم أقصد جماعة الساعة الخامسة ، وقد تجمّعوا وقتها حول شخصية الشاعر الدكتور إبراهيم ، (غير أن عيسى كان قد قرأ ديوان الدكتور إبراهيم دون أن يتمكن من التعرف عليه قبل أن أقدمه أنا له) .

والجماعتان قد انتهتا نهاية مأساوية ، وربّما أنا الوحيد الذي نجوت من الموت في العام ١٩٨٧ ، العام الذي قتل فيه جميع أصدقائي الشعراء .

IV
فاوست أو الدكتور إبراهيم

بعد تعرّفي إلى منير بفترة قصيرة ، كتب لي رسالة تتحدّث عن شخصية غريبة الأطوار وشاعر خارق اسمه الدكتور إبراهيم ، وتحدّث لي فيها عن ديوانه (أناشيد) الذي يعدّه ديواناً فذّاً ، واقترح فيها عليَّ أن يقدّمني له كي أتعرّف إليه ، وأتعرّف على أفكاره ، وعلى شعره ، وكانت كالآتي :

«قبل عام كنت تعرّفت على ديوان (أناشيد) ، وهو كتاب شعري صغير كتبه شاعر غريب الأطوار اسمه الدكتور إبراهيم ، وهو جندي طبيب في وحدة الميدان الطبّي في الفرقة الثالثة للفيلق الثاني ، أي في الفيلق الذي أنت فيه الآن ، ومنذ ذلك اليوم أخذت أطلق عليه الدكتور (فاوست) . ذلك أني من اللحظة الأولى التي شرعت فيها بقراءة هذا الكتاب شعرت بأن شيئاً ما في حياتي قد تغيّر ، لا أقول إن حياتي قد تغيّرت تماماً ، ولكن الكثير من قناعاتي قد تغيّرت بطبيعة الأمر ، والكثير من رؤيتي للعالم والكون والحياة قد تغيّرت تغيّراً جذريّاً بعد قراءة هذا الكتاب ، وعلى مدى المرّات التي قرأتهُ بها .

أعرف الآن أكثر من أي وقت مضى ، أنه أمر غريب أن

تتأثّر حياتك بكتاب ، ولكن هذا الكتاب أثّر في حياتي تأثيراً بالغاً ، وربما أكثر من كل الكتب التي قرأتها في حياتي ، ولست وحدي من يذكر هذا الأمر ، ويعترف بتأثير هذا الكتاب الصغير عليه ، إنما أغلب الذين قرءوه من أصدقائي والذين كانوا من الجنود في الجبهة أيضاً .

أشعر أحياناً بأنني إلى اليوم واقع تحت تأثير سحره ، على الرغم من مرور عام على قراءته ، ولا أقصد الديوان وحده من حيث هو : بكلماته ودلالاته وصوره ، إنما بسلسلة الأفكار التي كانت وراءه ، وبشخصية الدكتور إبراهيم أيضاً وبحياته ، الشاعر الذي كتبه ، والذي لا ينفصل انفصالاً كبيراً عن ديوانه ، لا بغرابته وجنونه فقط ، إنما بروحه الشيطانية ووحيه وقوة تأثيره أيضاً ، أما الديوان ، فقد كان ، دون شك ، الواسطة التي أدخلتني إلى هذا العالم الساحر والمراوغ والمغامر .

ثم انتهت الرسالة بالجملة التالية :

«منذ العام الماضي ، الزمن الذي قرأت فيه هذا الديوان ، وحتى الآن ، وأنا أعيش حياة ثانية ، لا علاقة لها بحياتي الأولى ، لقد حرّرني هذا الديوان من مفاهيم طبيعية مثل الموت والحياة والنوم والطعام والأشياء الأخرى» .

*

بعد قراءتي لهذه الرسالة المتحمّسة ، طويتها بيدي ، ركنت سلاحي على جدار الموضع وأخرجت سيجارة من جيب بنطلوني العسكري ، أشعلتها وركنت ظهري إلى الوراء

وأخذتني برهة تأمل طويلة ، ما عسى هذا الديوان أن يكون ليفعل هذا الفعل بمنير؟

ومن جهتي ما كان لي بعد أن قرأت رسالته أن أستسلم إلى أي نوع من أنواع الطمأنينة الباردة ، وفي ذلك الوقت بالذات كان الهدوء جحيماً بالنسبة إلى نفسي المتوثبة ، ما إن أقرأ شيئاً حتى أشعر أن نفسي تأبى أن تنحصر في دائرة وجودها الضيقة ، ربما بسبب الحرب ، وشعوري بقصر حياتي ، جعلت روحي تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة المعتدلة . كنت أشعر بروحي تشتعل بنار عسيرة الإطفاء ، وتتحرق عطشاً ولواحاً إلى المعارف ، كنت أشعر ذلك الوقت بروحي لا تتعب من شيء إلا من الراحة» ، لذلك كنت أعيش تحت نزوع مستمر نحو آفاق جديدة وأفكار جديدة- أبحث عنها- بل كنت أطاردها مثل شبح .

فمن غير المعقول أن أقرأ كل هذه الأشياء عن كتاب ولا أكترث به ، ولا سيما أنه أثر على منير ، ومنير بالذات ، لماذا؟

لم يكن منير عند تعرفي إليه شخصية سهلة أبداً ، كان شخصاً ذا وجه رؤيوي ، أشبه بمنجم حقيقي ، عيناه حادتا الذكاء ، وله نظرة قوية كأنها ازدراء متعال ، كان شخصاً يخيل إليك أنه فوق الكل ، وله طبيعة استقلالية عجيبة ، فلديه شعور أنه لم يعد بحاجة إلى أن يتلقّى عن الآخرين درساً أو تجربة ؛ لأنه يتوهم في نفسه أنه قد عانى كل التجارب ، وأنه عاش في عالم الما-وراء ، وتعمق في فكرة الموت ، حتى لم يعد

يدهشه أي شيء .

وأثناء تعرفي إليه ، كان ، أو هكذا تظاهر ، بأنه يعرف اللغة الروسية ويترجم منها ، صحيح اكتشفت ولو بعد مقتله أن معرفته بالروسية كانت شحيحة جداً ، وأن الشعر الذي كان يترجمه لنا في واقع الأمر كان يؤلفه ارتجالاً ، ولكن هذه موهبة مضافة أيضاً ؛ لأن الجميع ذلك الوقت تأثر بأشعاره على أنها قصائد مترجمة ، مع أنها قصائده .

كان شعراً عظيماً بحق ، قد اخترعه في تسلياته المتعدّدة معنا ، عيسى وأنا . انتشر هذا الشعر بين الجماعتين الآنفتي الذكر انتشاراً واسعاً ، وتأثر به الجميع على أنه من أبرز ما كتب في الشعر الروسي في الثلاثينيات والأربعينيات ، ولم أكتشف إلا بعد مقتله أنه لم يكن يقرأ بالروسية أبداً ، واكتشفت أيضاً أن هذه القصائد كانت تؤلف منه تأليفاً في تلك اللحظة بالذات ، وأنه ربما كان يعتمد اعتماداً كلياً على أن يترك روحه حرّة في تأليف الشعر الذي ظهر شعراً وحشياً ، رؤيوياً ، غير مشذّب ، ولا مصطنع بالمرّة .

*

عندها كان من حقي أن أشعر بهذا الاضطراب والتلكؤ عندما عرفت أنه قد تأثر في حياته بكتاب كان قلب روحه رأساً على عقب .

وكنت أتساءل ذلك الوقت كيف يمكن لكتاب أن يقلب حياته ، لا أخفي أني شعرت بالحسد ، فقد كنت أبحث عن

كتاب ليقلب لي حياتي ، لأعرف على الأقل بأني لا أملك الحقيقة المطلقة وحدي ، ولكن هنالك من يملكها ويمكنه أن يقلب حياة الآخرين ويغيرها . وكنت أشعر لو أني قرأت كتاباً وتأثرت به ، فإن هذا الكتاب سيجعلني جذراً حيّاً حقيقياً ، أو يجعلني ذا روح قوية ، أو يمدني بذاك الطابع الوحشي والمتمرد الذي يحمله الكتاب العظام عادة .

وكان سؤالي على الدوام هل كان إيمان منير بالقوى الغيبية والميتافيزيقية وتحصنه بعدم الاكتراث من الموت ، جاء من تأثير هذا الديوان ، ومن تأثير هذا الشاعر الذي يطلقون عليه فاوستوس ، الدكتور الذي باع روحه للشيطان .

V

التحرق لمعرفة شخصية خارقة

لقد اجتاحتني رغبة شديدة لقراءة هذا الديوان الفذّ ، والتعرف إلى هذه الشخصية الخارقة ، غير أن المفارقة أن هذا لم يتم مباشرة . إنما حدث بعد أشهر من رسالة منير هذه ، وعلى الرغم من تواصلنا الدائم ، وإلحاحي المستمر لأن يجلب لي هذا الديوان الذي كان يملك نسخةً مستنسخةً منه ، إلا أن هذا لم يحدث مطلقاً ، حتى أخذت في البداية أشكّ بصدق وجود هذا الديوان ، وبحقيقة وجود هذا الشاعر!

غير أن عيسى هو الذي أكّد لي وجود هذا الديوان ولم يؤكد لي حقيقة وجود هذا الشاعر .

حين سألت عيسى عن هذا الأمر ، أكد لي أنه قرأ هذا الديوان ، إلا أنه لم يتعرف إلى الدكتور إبراهيم شخصياً . (أنا الذي عرفته فيما بعد) ، فتساءلت وقتها ، لم لا يكون منير هو كاتب هذا الديوان الذي ينسبه لشخص آخر في سبيل إثارة الضجة ، لا غير ، لكن هذا الافتراض الذي سيطر علي مدّة من الزمن قد انتهى بحدث صغير .

كان فصيلنا الذي التحقت به ، قد أبيد تماماً في المعركة ،

ومع أننا لم نلتحق بالمعركة إلا على أواخرها ، إلا أنني أصبحت مع عيسى في موضع واحد تقريباً . فسألته :

هل التقيت الدكتور إبراهيم الذي كتب ديوان أناشيد .

لا . . ولكن قرأت الديوان عن طريق صديق جلبه لي مستنسخاً .

وقال لي عنه إنه رجل ذو تبحر واسع ، لم يكن طبيباً وحسب ، إنما اختار أيضا دراسة التنجيم كعلم للمداواة ، وقد شاع الإيمان بالتاريخ وعوالم الماوراء والصوفية والسحر أيام الحرب ، ليس بين العامة فقط ، إنما حتى بين المثقفين .

ثم سألته إن كان تعرف إليه شخصياً قال لي كلا ، ولكن كان له صديق شاعر أيضاً اسمه «أردال حسن الصواف» قد عرفه شخصياً ، التقى به أكثر من مرة ، وكان هو الذي جلب له الديوان ليقرأه .

وقد تعرفت أنا شخصياً بعد فترة قصيرة إلى أردال حسن الصواف ، وهو جندي مهندس ، له ثقافة موسوعية ، ولم يكن عيسى في واقع الأمر من عرفني إليه ، إنما تعرفت إليه عن طريق «حكمت الحاج» وهو شاعر ذو شخصية مثيرة ، التقيت به في الشارع بمحض مصادفة كلية .

وكان أردال قد تعرف على هذه المجموعة الصغيرة من الجنود والمغمورة أيضاً ، ووصفها لي وصفاً عاماً ، قال إنهم مجموعة أدبية تعتقد أنها من برج الحرب ، موضوعتها الأساسية هي الموت ، أو أنها ستتفادى الموت عن طريق الكتابة عن الموت .

وهذا الأمر ينطبق على منير بطبيعة الأمر فهو يتحدث عن نفسه وعن مجموعته بهذه الطريقة ، أي أنه يكتب عن الموت ليتفادى الموت ، أي تصبح الكتابة نوعاً من التعزيم ، نوعاً من الرقيا والسحر ، وكان لقائي بأردال حاسماً فيما يخص حقيقة وجود هذه الجماعة ؛ إذ تحدث لي ذلك اليوم عن لقائه بشاعرين ، هما أشهر شاعرين في الثمانينات : زاهر الجيزاني الذي كتب قصيدة اسمها شاحنة البطيخ «قصيدة اشتهرت بيننا ذلك الوقت» ، وخزعل الماجدي الذي كتب الشعر بلغة قريبة من لغة كتب السحر ، أما عن لقائه بالدكتور إبراهيم وجماعته فقد كان شيئاً رائعاً نسبة له ، مع أن ما يكتبونه نسبة له حزين وثقيل ، ولكنه أثنى عليهم كجماعة أدبية ، قال إنهم يحبون العزلة ويحبون كل ما هو سري وتأملي ، وإنهم ولدوا هكذا أشبه بالعجائز ، لا يضحكون أبداً ، هم عميقون ولكنهم موتى ، أو أشبه بالموتى ، ويتعاطون دراسات صعبة وتجريدية ، ويهتمون بالأبراج وكتب السحر ، والمخطوطات القديمة . .أيضاً .

أما عيسى الذي قرأ ديوان أناشيد ، لم يؤكد لي عبقرية هذا الديوان أو أهميته إنما دفعني دفعاً إلى نقاش من نوع آخر ؛ إذ كان ضد تشاؤم المجموعة وقال إن فكرة السحر والميتافيزيقيا تؤدي بالنهاية إلى نوع من القنوط الكلي . ثم أرشدني إلى شخص آخر جندي أيضاً ، وهو من أصدقاء منير والدكتور إبراهيم الحميمين ، اسمه سعيد ، لا أتذكر اسم والده ، ولكني أعرف أنه درس الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد ، وكان

جندياً في اللواء السابع للمغاوير ، وفي الفترة التي ذهبت للبحث عنه ، كانت كتيبتهم قد تجحفلت بالقرب من كتيبتنا قبيل الهجوم الإيراني على مدينة العمارة الذي كنا ننتظره في الشتاء ، إلا أن هذا الهجوم لم يحدث إلا بعد شهر واحد من زيارتي له ، وحين سألت عنه قالوا لي إنه في المعسكر الخلفي ، مع القوّات المحمولة جواً ، وهي قوّة ضاربة تتدخل عندما تشتدّ المعارك لتحسم المواقف الصعبة .

*

حين وصلت إلى سعيد وجدت جندياً نحيفاً جداً ، بل أكاد أقول إن نحافته مرضية ، فوجهه أسمر وذابل ، ولا تتناسب هيئته مع الصفات العسكرية التي يحملها (قوات ضاربة ، قوات محمولة جواً) ، غير أنه صدمني بشدة ، فقد كان متكبّراً ومتغطّرساً بصورة ظاهرة ، نظر إلي باحتقار شديد وعاملني بصورة سيئة . وحين سألته عن الديوان لم يعرني أيّ اهتمام ، وقال إنّ لديه نسخة منه ، مؤكداً عبقريته ، ولكنّه لن يعيرني إيّاه إلا بعد أن يأخذ إذناً من الدكتور إبراهيم نفسه .

الدكتور إبراهيم . . . هل تعرفه شخصيّاً . .؟

طبعاً . . . صديقي . . . قالها بكبرياء شديد .

هل يمكنني التعرّف إليه . . . ؟

سأسأله . . .

غير أن هذا التعارف لم يحدث ؛ لأن سعيد قتل بعد شهر في المعركة التي كنا ننتظرها .

VI
ديوان خارق وشاعر غريب الأطوار

لم أحصل على الديوان إلا بعد أشهر من التحرّق على معرفة سرّه ، وسرّ هذا الشاعر غريب الأطوار أيضاً .

حدث ذلك في مساء يوم من أيام شتاء العام ١٩٨٧ على ما أتذكر ، ولكني لا أذكر أي يوم بالضبط ، أما المكان ، فأتذكره جيداً ، كان محطّة قطار الشمال في مدينة البصرة ، عند عودتي من الجبهة مباشرة ، حيث التقيت في المحطة الواقعة في مدينة المعقل غرب مدينة البصرة منير .

ومع أنه وعدني بأنه سيجلب معه هذا الديوان أكثر من مرة ، غير أنه لم يفعل ، وكل مرة كان يختلق عذراً ما ، وربّما كانت أعذاره صحيحة ، غير أنني لكثرتها بتّ غير مصدق ، ولكنها جعلتني أتحرّق تحرّقاً شديداً لقراءته ، وقد صادفته ذلك اليوم مصادفة في المحطة ، فبعد أن كنا في كتيبة واحدة ، تفرّقنا في الهجوم الأخير ، وأصبحت إجازاتنا متفاوتة ، وقد وعدني أنه سيسعى أن تكون إجازاتنا في وقت واحد .

*

حين رآني صرخ علي صرخته المجنونة التي اشتهر بها . أما

أنا فقد كنت واقفاً عند مقصف المحطة من جهة الباب الخارجي ، وهو يطلّ على رصيف السكة الحديدية ، يبيع هذا المقصف كلّ شيء تقريباً ، كلّ ما يحتاجه المسافر ، الشاي والساندويشات ، والحقائب ، ومعاجين الأسنان ، وأدوات الحلاقة ، والأحذية ، والكتب (أكثرها روايات أوربية مترجمة عن دار المأمون وهي دار حكومية متخصصة بترجمة الآداب الأجنبية إلى اللغة العربية) ، والصحف والمجلات . .وأشياء أخرى كثيرة ، فوقفت هناك ، ووضعت جراب أمتعتي على الأرض ، وأخذت أرشف استكان الشاي الذي أخذ يتصاعد البخار منه على برد ذلك المساء الشتائي في المحطة ، ووقفت إزائي طالبة جامعية كانت زميلة لنا في الكلية ، انتقلت إلى جامعة البصرة ، وقد رأيتها بمحض مصادفة هناك . ما إن رأتني حتى وضعت حقيبتها على الأرض ووقفت إزائي تشرب الشاي ، بينما علقت على ساعدها مظلّة مطرية .

*

كان القطار متوقفاً ، صوت محركاته تهدر ، والبخار الأبيض يخرج من بين عجلاته ، وهنالك سيل لا ينقطع من الجنود يجوبون محطة القطار .

وقف منير إزائي بينما كانت البنت إلى جانبي تقريباً ، كان عائداً من الهجوم مؤخراً ، وجهه أسود فوقه طبقة من الدخان الذي يتعلق بحواجبه ورموشه ، أنا أيضا شعرت بالدخان والبارود في عيني ، وتحت الجفنين ، يجرحهما كلّما

أغمضت . كان منير ببذلته العسكرية الواسعة ، وبيريته على رأسه ، يتنفّس بصوت مسموع ، دون أن ينطق بكلمة أخرج مخطوطة مكتوبة بخطّ اليد ، وناولني إياها ، فأخذتها بيدي وأنا أرشف الشاي ، وسرعان ما اكتسح الطالبة الجامعية بصوته العالي الأجشّ ، وطريقة كلامه المتكلّفة ، حيث يتكلّم بالفصحى ويشدد على مخارج الأصوات ، وقد درج المثقفون في العراق على استخدام هذه الطريقة مع متحدثيهم .

*

كان الكتاب صغيراً نسبياً ، لا تتجاوز صفحاته المئة ، مكتوباً بخطّ اليد ، ومجلّداً بجلاد يدوي ومكعّباً بحاشية بنية ، وقد كتب اسم الشاعر ، في الأعلى : الدكتور إبراهيم ، كتب بخطّ اليد ، وبقلم حبري أسود عريض ، ولكن بشكل جميل جداً ومعتنى به ، وقد وضع بين قوسين كلمة (فاوست) ، الكلمة الغريبة التي أثارتني فجأة ، ثم عنوان الديوان : (أناشيد) كتبت بخطٍّ صغير ، أصغر من الاسم ، وبأسلوب مختلف عنه ، وفي الأسفل أؤرخ الديوان بالعام (١٩٨٣) ، وقد كتب التاريخ بخطٍّ صغير جداً ، أصغر مما كتب به العنوان ، وهذا تقريباً كل ما موجود على الكتاب من الخارج .

أما في الداخل فقد كان كلّ نشيد يحمل رقماً لاتينياً ، وكل صفحة كانت تحمل نشيداً مختلفاً حتى وصلت إلى الرقم مئة ، وبذلك ينتهي الديوان ، بلا فهرست ولا أي تعريف بالشاعر .

*

بعد نصف ساعة من وقوفنا أخذت السماء تمطر ، ففاحت من الأرض رائحة رطوبة منعشة ، استنشقنا طراوتها من بين غشاوة المطر والضباب . كان القطار متوقفاً في المحطة ، أضواء مصابيحه تضيء الفسحة القريبة من الرصيف ، وهذا الديوان في يدي .

بعد ذلك دوى صوت القاطرة ، وأخذ ناظر المحطة يقرع بيده الجرس ، فحملنا أغراضنا هرعنا - منير ، والفتاة ، وأنا - بسرعة إلى القطار ، بينما كانت المحطة ذلك اليوم مزدحمة ، جنود وضباط يحملون أمتعتهم ويتوجهون إلى الفارغونات العسكرية ، موظفات وموظفون حكوميون ببذلاتهم وأناقتهم المميزة ، طلاب جامعيون من جامعة البصرة عائدون إلى منازلهم في بغداد لقضاء عطلة الأسبوع ، عمال من كل جنسية : هنود ، مصريون ، سريلانكيون ، وعاملات من الفلبين يعملن ، ذلك الوقت ، بين ملاهي بغداد وملاهي البصرة .

أخذنا أماكننا في مقدمة القاطرة ، جلست في مكاني عند النافذة ، وضعت أغراضي على الشبكة العلوية من الكابينة ، وجلست على المقعد الجلدي المريح وأمسكت الديوان بيدي ، بينما جلس منير والفتاة مقابلتي ، وأخذا يتحدثان الليل كله ، أما أنا فقد فتحت المصباح الصغير أعلى رأسي وانغمرت في صفحات الكتاب . .

أخذت أقرأ المخطوطة وأنا جالس على مقعدي الجلدي في الكابينة المزدحمة بالرجال والنساء ، وبالجنود الذاهبين إلى العاصمة ، حيث يتجدد المسافرون عند كل محطة من المحطات

التي يتوقف بها ، وهي أكثر من عشر محطّات على الطريق من الجنوب إلى الشمال .

أتذكر أني قرأت هذا الديوان تلك الليلة أكثر من مرّة ، أعدت كلّ سطر فيه عشرات المرات ، مستمتعاً ومستغرقاً في عوالمه وصوره ولغته ، ولكن ما لا أتذكره هو كيف نمت تلك الليلة؟

منذ زمن بعيد نسبياً وأنا أتساءل ما الذي حدث لي ذلك اليوم؟

شعرت فجأة أني نمت ، استغرقت في نومة عميقة ، قصيرة ، لكنها عميقة جداً ، ما أتذكره أيضاً أني لم أرفع رأسي عن صفحات المخطوطة مطلقاً ، وبقيت هكذا حتى الفجر ، فقد لاحت أول تباشير الضياء-هذا آخر ما أتذكره- فأسندت رأسي إلى زجاجة النافذة وبعدها تلاشى كل شيء أمام ناظري ، حين أفقت كانت الشمس قد لاحت ، وقد ظهر العالم واضحاً تحت شعاعها ، الأشياء متجسمة بصورة شديدة ، تحت شمس بغداد الشتائية ذات اللون الواضح والمميز ، بينما كنت محموماً قليلاً ، قطرات عرق بارد على طول عمودي الفقري ، وعلى صدغي وجبيني ، وكانت المخطوطة قد سقطت من يدي إلى الأرض ، وشعرت بأني ما زلت تحت تأثيرها ، وتأثير حلم غريب ومخيف جداً أفزعني .

*

في الواقع كانت اجتاحتني ذلك اليوم رؤيا غامضة على الأرجح ، أو شعرت بشيء أسطوري مفاجئ جذبني بشدة ، أعادني إلى مكان ما في البعيد الغائم ، إلى ظلام عاصف ، أزقة مغطّاة بورق الشجر ، إلى حديقة غامضة ، إلى رؤية منزل صغير سياجه مهدوم ، شوارع مهجورة ومكفهرة خلف أسوارها الصدئة ، أبنية فوق بواباتها أقواس حجرية ، تظهر خلفها من خلل دوامة الريح أفنية واسعة ، ذات عنابر صغيرة ، وأبراج حمام قديمة ، مشيدة من الحجر ، ومناضد مغروزة في الأرض تحت أشجار معمرّة . وهي المشاعر ذاتها التي شعرتها فيما بعد عند زيارتي لمنزل الدكتور إبراهيم .

VII
التعرّف إلى الدكتور إبراهيم

منير هو الذي اصطحبني بعد أيّام إلى منزل الدكتور إبراهيم .

كان منزله في الوزيرية ، خلف أكاديمية الفنون الجميلة ، على مقربة من حوار ، غاليري الفن الشهير ، والذي أصبح فيما بعد (في التسعينيات) مقهى ومكاناً لتجمع المثقفين والفنانين .

حين وصلنا المنزل شعرت برعب ما ، الشعور ذاته الذي شعرت به عندما قرأت كتابه . كان المنزل قديماً يحيط به الغموض والإبهام ، هنالك حديقة كبيرة وحشية النباتات تنتهي بأشجار ضخمة تبعث رعباً مبهماً في النفس ، وما إن دخلنا فاجأنا هرّ أسود ، كبير جداً ، يجري بين الأعشاب ، ثم تجاوزنا البلاطات ، وعند الباب الداخلي كان هنالك كلب متوحّش حين رآنا هجم علينا ، فقفز الدكتور إبراهيم الحاجز وأخذ الكلب واختفى به .

دقائق ثم عاد من الحديقة الصغيرة الجانبية ، والتي يحدّها حاجز حديدي طويل يقوم بين المنزل والشارع ، ويخترقها ممشى قصير يفضي إلى بوابة عالية من حديد .

*

كـان البـيت يتـألف من دورين ، كـثـيـر الغـرف ، ضـخم النوافـذ ، وملون الزجـاج . وجـمـيع هذه الأشـيـاء جـعلتني لا أطمئن إليه أبداً .

ثم قال لنا الدكتور إبراهيـم إن في المنزل مخلوقات شريرة أو أن المنزل كان مسكوناً ، وأنه يكتب قصائده من وحي الأشباح والحيوانات والمخلوقات الخيالية التي يعج بها هذا المكان . وما إن جلسنا حتى شعرت بشيء غريب أثار في الضيق ، ذلك أن النوافذ الضخمة ذات الزجاج الملوّن ، أثارت في نفسي القلق لضخامتها ، وكانت الأضواء الحزينة التي تنفذ منها أشعرتني بشيء أشبه بالموت المتأصل في هذا المنزل .

*

كانت الدقائق التي تمر علينا ثقيلة جداً ، لا أعرف ماذا أقول ، جلست هكذا متسمرا دون كلام تقريباً .

ثم انبرى الدكتور إبراهيم ليتحدث عن نفسه .

التفت لي وهو يعدل نظاراته على عينيه ، وقال لي علي أن لا أخاف . ثم شرح لي أن هذا المنزل الذي نحن الآن فيه مسكون بروح شقيقه الذي توفي في سن السابعة من عمره ، أي قبل ولادة الدكتور إبراهيم بعامين ، وكان اسمه أيضاً إبراهيم .

سكتنا قليلا ونحن نشرب ماء باردا قبل أن يذهب إلى المطبخ ويجلب لنا استكانات الشاي .

ثم شرح لنا كيف توفي شقيقه ، قال ببرود شديد إن والده قتله بالخطأ .

بالخطأ . . سألته .

قال نعم .

ثم شرح لنا الأمر أن والده من فرط حبه له أخذه يوماً إلى اللعب في فضاء فسيح فأركبه على دراجة ، كان الطفل جميلاً ، معقوص الشعر ، ضئيلاً وأسمر ، بينما كان يساعده على ركوب دراجته ذات العجلات الثلاث ، دفعه بقوة فسقط من جسر بلا قضبان ، لقد طرحه من ارتفاع عدة أمتار ليسقط على الصخور أسفل الجسر ومات .

فهزت الصدمة أعماق المنزل ، كان نُضْج الطفل المبكر ، شغفه ، وحساسيته ، ورقته بالنسبة للوالدين إشراقات عبقرية هائلة ، مما جعل اختفاءه صدمة مفجعة لم تكونا ليتخطياها مطلقاً . وعند ولادته أصرّ الوالدان أن يحمل المولود الجديد اسم أخيه المتوفى ، فسكن الموت كل خلية فيه .

بعدها وهو يتخطى في المنزل ، حيث كانت لوحة وحشية الألوان على الجدار ، قال الدكتور إبراهيم موجها الحديث لي ، إنه يعيش الشخصيتين معاً حتى الآن .

ثم شرح الأمر بأن والديه هما اللذان أشعراه بذعرهما منه وحبهما له في وقت واحد .

فسألته كيف؟

قال إنه شعر بذعر والديه منه لأنه صورة الميت في صورة الحي ، وشعر بحب والديه لأخيه المتوفى وهي تتصل بحياته الحاضرة ، ومثلما قدما له حياة الميت عند تقديمهما له ملابسه

وألعابه وحجرته ، فقد زرعا جسد المتوفى في جسده أيضاً ، وبقيت ذاكرتهما تنوسان بين الاثنين بصورة طرية ، ومع أنها استدعاءات لا أكثر ، ولكنها مؤثرة ، وشديدة العمق ، ومن الصعب محوها . ذلك أن الدكتور إبراهيم قد عايشته روح هذا الميت في عمق وجوده الخاص مثل جرح ، وهي التي فجرت كل قصائده .

بعدها حدثنا قصة غريبة ، قال إن شقيقه إبراهيم كان مدفوناً في مقبرة في الأعظمية ، وفي صباه كان يمرّ كل يوم من هذه المقبرة إلى المدرسة ، أي أنه كل صباح يقرأ اسمه منقوشاً على شاهدة قبر من القبور ، فهكذا كان هو ميتاً في الحقيقة ، وكل ما يصدر من شعره هو من وحي موته ، لا من وحي حياته .

*

نهض الدكتور إبراهيم ونهضنا معه .

كان يتحرك بصورة سريعة ، ذهب أول الأمر إلى كومدينو موجود في الزاوية البعيدة من الصالة ، فتح الجر بسرعة ثم أغلقه ، فتح الجر الثاني وأخرج علبة سجائره ، ثم أخذ يبحث عن القداحة ، قلت له هاك هذه شخاطة عندي إلا أنه لم يلتفت لي ، هز رأسه بأنه لا يرغب بإشعال سيجارته من الشخاطة لأن فألها سيء عليه ، ثم أخذ يكف كمي قميصه ويسير نحو البالكونة ، فعثر على قداحة موضوعة على طاولة صغيرة ، أشعل سيجارته ، نفث الدخان في الهواء وطلب منا

أن نتبعه إلى حجرته .

سرنا في الصالة حتى نهاياتها- كانت هنالك حجرة أخرى في الواجهة ، رأينا أمه تجلس على كرسي يقابل الشباك ، ثم دلفنا قليلاً وصعدنا السلم ، وفي نهاية السلم هنالك بابان ، دفعنا الباب الأول ودخلنا .

شعرت بأن شبح الأخ الراحل هناك يرحب بي .

كان يقف مثل شيطان على الحائط ، وجهه ينم عن عبقرية مطلقة ، وعيناه مشتعلتان ذكاء بدرجة لا تصدق ، لم أستغرب أنه كان مخيفاً ومكروهاً بسخاء ، ذلك أنه لم يكن من هذا العالم الذي نعيش فيه ، كان ميتاً لكنه كان يحيا أيضا ويتحرك من خلال خطى شقيقه الحي .

لا أعرف لماذا كانت الحجرة مفزعة إلى هذه الدرجة ، كانت مخيفة بحق ، لقد أرجفتني أكثر من الحلم الذي رأيته وأنا أقرأ قصائده ، هل بسبب هذا الميت الذي تنتصب صورته على الحائط ، أم بسبب هذا الحي الذي يتحرك أمامنا ، وفي كل خطوة من خطواته كانت هنالك رائحة الموت؟

*

كانت للدكتور إبراهيم حجرة شبح في الواقع ، سرير قديم نظيف بشكل لا يصدق ، وخزانة كتب خشبية كبيرة أشبه بتابوت ، وخزانة ملابس سوداء ، وزهور سود حدادية ، وفي الوسط قفص في داخله خفافيش سجينة ، حين دخلنا فزعت ، وطارت بأجسادها العارية ورؤوسها السود ، قال أحب هذه

الحيوانات لأنها سرية أولاً وهي شيطانية ثانياً أي أنها تشبه الشيطان، وبعد ذلك لأنها مفزعة.

فتذكرت قصيدته التي يقول فيها:

«أجوس مداخل المدن الحرام فأجن ويجن خفاشي معي».

وهي قصيدة إيروتيكية لكنها مع خفاش، فالتوتر والتصعيد الجنسيان يأتيان من خفاش، حيث يصوره مثل ثدي صغير يرتعد حين يمسكه وهو غارق في يده.

*

بقينا في حجرته حتى المساء، ثم عدت وحيداً إلى منزلي.

في الطريق شعرت بذعر آخر، الظلام، الصمت، حركة الأشجار، الوجوه التي تبرز تحت المصابيح الشاحبة فجأة، هذه الصورة العادية فيما مضى أخذت تفزعني الليلة، كنت أريد الوصول إلى المنزل بأسرع ما يمكن، ذلك أني شعرت بأنه قد أثر علي بصورة حاسمة، وهذا في الواقع ما كان يريده ربما، فقد كانت إشاراته المتعددة للموت تربك معدتي خوفاً، الشقيق الميت، الوجوه المفزوعة من انتهاكات الأحياء لحجرة الميت، صور التدنيس المتعددة، الفساد المبكر لطفل له ردة فعل عميقة ضد قوى الحياة التي تتنافس مع قوى الموت.

*

في الطريق كنت منشغلاً جداً بصور الموت المتعددة التي قدمها لنا الدكتور إبراهيم وهو جالس ببرود على مقعده أمامنا،

كنت منشغلاً باستعادة المتع الحسية التي يستحضرها من مشاهد موت متعددة مرت به في حياته ، ذلك أنه كان يرى الموت أكثر كمالاً من الحياة . وقال إنه اختار دراسة الطب ليكون قريباً إلى درجة شديدة من الموت ، صحيح أن ما كان يفعله هو مقاومة الموت كطبيب وإعادة الحياة إلى الناس ، ولكن هذه المهنة نسبة له هي مجاورة الموت وصداقة الميت .

هذا الموت وصورة هذا الميت هما اللذان صنعا منه شاعراً متمرداً . فالشعر نسبة له هو الذي دفعه إلى السمو والتعالي ، ذلك أنه أشبه بالموت لأنه انتصار على الحياة . وهو الذي جعل الشاعر بمرتبة الشيطان ، الشيطان في الحنين إلى اللانهائي واللامحدود . . .

قال إنه يود أن يكون فاوستَ آخر يسعى إلى اكتناه أسرار الوجود والقبض على مفاتيح الحياة وحلّ لغز الكون .

الشيء الغريب فيه أنه كان يمجد الحرب ، قال إن الحرب عظيمة لأنها تحرر الموت من النظرة السرية له ، فمشاهد العنف المتحرر هي عصيان عارم ضد الحياة ، وهي تعبير عن التمرد على التجديف والالتحاق بالخالق ، فالموت ليس سيئاً ، هو خلاص لمن لا يريد في الكون أي شرٍّ أو فساد ، الله بريء منها ، إنها الإنسان المسكين وهو يرتد إلى طبيعته البدئية ، إنه ينزع نزوعاً طبيعياً نحو الموت ، الموت شيء غريزي مثل الجنس والطعام والشراب ؛ لذا فالحرب ضرورية . . . إنها الميزان الذي تكلم عنه الله في القرآن ، فلا يمكن للبشرية أن تتضخم هكذا . . . عليها

أن توازن نفسها من خلال الحروب والأوبئة والفيضانات . . .

*

لا أعرف مع من كنت أتحدث ، قلت في نفسي .

إنه إبليس ربما . . .

خيل إلي أنه إبليس آخر ، يود أن ينتقم الإنسان البائس من باريه الذي يعذبه ويرهقه دون ما ذنب أتاه . لقد وجدت فيه تلك الشخصية التي لا تمثل الجانب الحسي الشهواني في الحياة فقط ؛ إنما تلك الشخصية الإرشادية الدينية ، التي تمثل التهكم القاتل والسخرية الهدامة التي تهزأ بكلٍّ ما في الوجود ، بعد أن يئست من الظفر بشيء فيه .

*

لقد شعرت بالجزع ، بالخوف ، بالموت ، وحين هرولت إلى منزلي ، كنت أهرول كما لو أريد نجدة من هذه الأفكار التي هجمت علي وأخذت تطاردني ، وحين وصلت المنزل كنت مرهقاً ، رميت نفسي على السرير ونمت دون أن أخلع حذائي . . . بعد لحظات شعرت كما لو كنت شقيقه الميت ، الشقيق الذي سقط على السن الصخري ومات . . . نهضت من موتي وجلست في إرجوحة الحديقة لأتأرجح طوال الوقت ، للخلف وللأمام بينما كنت أتلمظ بثمرة فاكهة ، وأشاهد هياج الأبوين المحموم بالبكاء علي ، وأنا مستمتع بالظلام الآمن في ركن الحديقة ، دونما أن تكون هناك أدنى ذرة من ندم ، كما لو أن هذا الموت المصطنع هو أكبر من أي شيء ساد حياتي .

VIII
أشعار وعالم ميتافيزيقي غير محدد أبداً

في يوم ذهبنا منير وأنا إلى الميدان الطبي ، حيث كان يعمل الدكتور إبراهيم ، وكنت وقتها مصاباً بيدي . لم تكن الإصابة شديدة ، ولكني بالغت في ذلك ، وضعت شاشاً طويلاً على عنقي ، ورفعت يدي هكذا كما لو كانت إصابتي بالغة ، لأستدر عطف أهلي ولكي أرعب صديقتي . وكان علي ذلك الوقت أن أذهب للطبيب بين آن وآخر من أجل المداواة .

فذهبنا منير وأنا معاً ، وحين وصلنا تهنا في إحدى البنايات ، بعد ذلك سألنا عريفاً من الطبابة فقادنا إلى حجرته ، وقد بدت لي كأنها زنزانة ونحن ندخل فيها ، كانت صغيرة جداً ، وقد جلس بملابسه العسكرية التي ارتداها تحت الصدرية البيضاء . وتدلت من رقبته السماعة . وأمامه ديسك عريض عليه مقياس الضغط وجهاز قراءة الأشعة ، إلى يمينه سدية بيضاء وفوقها كتاب يقرأ به ، وهو تنبؤات نوستراداموس ، وقد ترجمت إلى العربية في بغداد ذلك الوقت .

كان له مظهر رسمي لا يشبه اليوم الذي التقيت به في منزله ، فقد قدمت له الأشعة الخاصة بيدي ، والغريب أن يده

اليسرى ملفوفة بالجص بسبب كسر في الإبهام . على العموم وضع الأشعة خلف المصباح فظهرت يدي على اللوحة المضاءة ، أشار لي بمؤشر إلى عظمين وقال لي :

- ألمك هنا .

لم يكن الأمر ، في نظري محيراً أو خطيراً ولكنني كنت أتصنع الجدية . ثم سحبت كتاب التنبؤات وأخذت أقلبه .

قال كان هذا الكتاب هو الأكثر مبيعاً في باريس أيام الحرب .

كان منير يشعر بألم في الرأس ، فجلس دون كلام ، بل أخذ يطبق بإبهاميه على صدغيه ، حيث نفرت الشرايين الزرقاء ، البنفسجية ، وبدت واضحة ، كان يريد أن يوقف بالضغط المستمر ألم الرأس ، فنهض من مكانه وفتح دولاباً وقدم له حبتي دواء ، وصاح على جندي ليجلب لمنير كأس ماء .

في الواقع أثار اهتمامي طبع هذا الكتاب ذلك الوقت . وقد أخبرني أكثر من شخص عنه ، والتقيت كثيرين كانوا يعتقدون أن هنالك إشارات لا تقبل اللبس عن الحرب العراقية الإيرانية ، والبعض يبالغ بالحديث عن التفاصيل المكتوبة في تنبؤاته عنها . وهذا ما حدث مع شعوب أخرى ، فالفرنسيون والألمان والعديد من الشعوب ، في سنوات حروبها ، وجدت في هذا الكتاب بعض تواريخها ، والسبب هو غموض النص الأصلي الذي يقدم لمن يريد ضالته بها ، وإذا ما كان المرء

غامضاً أو مرناً بما يكفي بشأن التواريخ ، فإن الطريقة الأكثر اطمئناناً ليصير نبياً كبيراً هي التنبؤ بالحرب ، كما فعلت أصوات الأسلاف في «قبلاي خان» .

ما يهم الدكتور إبراهيم هو كتابة الشعر ، قال إن هذه التنبؤات شاعرية إلى درجة كبيرة ، وأراني بعض الفقرات منها وهي في الواقع خليط فاسد من الكلام المزدوج ، حيث تُسلّم كل رباعية نفسها إلى عشرات التفسيرات المضادة .

*

في تلك الفترة كنت أقضي إجازتي مع منير وعيسى ، كنا نعيش أجمل اللحظات أمام خزانة الكتب ، حيث كانت واجهتها الزجاجية لا تعكس أضواء النهار أو أضواء مصابيح الإنارة فقط إنما تعكس أضواء حياتنا أيضاً . أما فضاء المنزل فكان مفعماً برائحة دخان التبغ النفاذة الممزوجة برائحة الأم ، المرأة الروسية التي ترعانا كأبناء لها .

وقد جرت العادة أن يغادر والد منير قبل الظهيرة بوقت قليل ، وعندها ندخل أنا وعيسى إلى الصالة ، يرمي منير نفسه على الكرسي الهزاز ثم يشعل سيجارة . عندما يلامس الدخان جفنيه يقطب ما بين حاجبيه . ثم يطلق الدخان في الهواء .

يتحول المنزل بعد الظهيرة إلى رقعة واسعة من روائح متعددة ، ولا سيما رائحة التبغ الأميركي والفودكا الروسية ، ورائحة الكتب التي يحمل منير واحداً ويترجم لنا قطعة إلى العربية ونحن نكتب عيسى وأنا .

الكتب والأثاث والماء والهواء والصمت . . كل شئ في هذا المكان يعبق بالرائحة الروسية ، لم نكن نتضايق ، حتى في الصيف كنا نشعر بتيارات الهواء الباردة ، التي تهب علينا من الكتب الروسية ، ومن والدته التي ترتدي ملابس خفيفة تظهر يديها وساقيها أثناء قيامها بترتيب المنزل .

*

يمسك منير كتاباً ، يرينا صورة مايكوفسكي ، الشاعر الروسي الذي انتحر في العام ١٩٢٠ . يقرأ لنا مباشرة بالعربية ، يتوقف قليلاً ليكمل معنى الجملة في ذهنه ثم ينطقها بالعربية فنكتب ، عيسى وأنا ، وحين تكتمل القصيدة يرمي الكتاب ويأخذ غيره .

الكتاب الثاني هو كتاب صغير مغطى بقماش أزرق ومنقوش بالذهبي ، وفي الداخل صورة لأنا إخماتوف ، ثم يبدأ بقراءة القصيدة بينه وبين نفسه ، يقلب حتى يعثر على شيء جيد ثم يبدأ بترجمته ، ونحن نكتب ، يركض عيسى إلى الصحيفة الروسية الملقاة على الأرض ، كانت جلبتها أم منير قبل يومين من السفارة ، يحملها ويضعها على الطاولة . يسحب منير حبل ستارة النافذة ، المصنوعة من صفائح المعدن ، فترتفع إلى أعلى .

ما الذي يحدث لنا؟ نحن نحلق ، نحلق من بغداد المعدمة ، من هذا الزمن الذي لا يعجبنا إلى روسيا ، إلى الزمن الجميل ، علينا أن ننسى كل مأساة في الماضي ، «ما الذي

يحدث لنا؟ لا أحد يعرف ، غير أن عيسى يقول إن جو الغرفة المعتم أكثر توافقا مع القصيدة ، ثم ينهض أمام خزانة الكتب ليمسح ببصره تلك العناوين الأنيقة المنقوشة على الأغلفة ، كان منظر الطباعة الأنيقة وشقوق أنسجة الأغلفة الجلدية للكتب ، والحروف والأرقام البارزة التي تشير إلى تسلسل أجزائها يثيرنا .

*

يقولون إن الكلمات هي التي تصنع رعشات الأجساد .

نعم كانت أجسادنا ذلك الوقت مُتَسَمِّرَة في هذه الحجرة ، ولا نقبل أي تغيير في إيقاع حياتنا . كنا نبحث عن الشعر العظيم الذي يؤدي بنا إلى الإرتعاش ووجدناه هنا . لا شيء . . . أبداً يقول عيسى ، كل ما هنالك وجدنا خطوط الحبر الدقيقة هذه والتي أخذ يقرأها منير ، ويعيدها علينا بلغة أخرى ، بلغة نفهمها ، بلغتنا بالأحرى فعرفنا معنى حياتنا .

يضع منير الكتاب على الطاولة ، كما لو كان المعلم الكهل يضع قبعته على المحمل الخشبي . يمسح على شعره ، كما لو كان لينين هو الذي يمسح شعره الرمادي الخفيف ثم يخرج من مكتبه مجموعة أوراق يقول إنها قصائد ترجمها ليلة أمس ، فننشغل إما بالكتابة أو بالإصغاء . . وتدريجياً تتسرب لنا مشاعر حادة ، قوية ، مشاعر كنت أراقبها بجدية ، كنا أشبه بالصبيان الذين يدخلون السرداب فيجدون الحياة التي تعجبهم ، ولا يريدون مغادرة هذا المكان حتى الموت ، يقول

عيسى أن أصحاب الكهف في الواقع لم يريدوا مغادرة الكهف هذا كل ما في الأمر ، قصة نومهم قصة مختلقة ، ذلك أن شخصاً ما كان يترجم لهم أشعاراً باللغة الروسية فنسوا الزمن تماماً .

إن الجمال ينسي الزمن حقا ، إنها قصة الرجل الذي اتبع عصفوراً جميلاً ، وحين عاد وجد الحياة قد تغيرت ، منذ ذلك أنه ، عشرين عاماً ، يتبع هذا العصفور دون أن يعلم بذلك .

*

كان منير يتظاهر بأنه يفهم كل شيء . وكانت أمه في الصالة تنظر إلينا ونحن نملأ أفواهنا بالكلمات الفخمة ، كنا ننتفخ ، ونحن نقرأ شعراً . فقال لها والد منير :

لماذا لا يتعلم هؤلاء الأولاد حرفة ما؟

كنا كما لو نلتصق بالستائر حينما يدخل أحد الصالة ، مرة دخل والده الذي انهمرت عليه روائح الربيع الجميلة ، فقال لنا لماذا لا تخرجون إلى الشارع .

ماذا نصنع في شوارع بغداد ونحن هنا في روسيا .؟ قال عيسى . ابتسم الأب ابتسامة خفيفة ، ثم التفت مخاطبا زوجته الروسية بشكل يائس : من أية مهنة سوف يحصل ، هؤلاء الشباب بعد العسكرية ، على رغيف العيش؟

لا نريد العيش من مهنة نريد العيش من الشعر . . . قال عيسى .

*

ثمة نغم حزين يصاحب صوت منير الناعم وهو يقرأ الشعر ، وكأنه أمضى ثلاثين عاماً في قراءته ، لا بد أن والده كان ينظر إلينا ويقول هؤلاء الكهول الذين يتحدثون بحب عن أشياء غامضة ، إنهم الجيل ، جيل الجنود الشعراء الذين اغتربوا عن هذا العالم ، واحد يقرأ شعراً فيشعر فجأة بأنه يحلق إلى الأعلى مع ضوء السماء اللازوردي ، بينما ينحني الآخرون على كتبهم المفضلة .

ارتقى الأب السلم حاملاً قطعة كبيرة من الخبز . وقف وسط السلم وألقى نظرة سريعة لامبالية علينا من خلال فتحة النافذة . إنه أبعد ما يكون عن أن يفهم العصر الذي كنا نعيشه . .

سأترجم لكم مايكوفسكي قال منير .

كان يوماً جميلاً . الأب واقف ينتظر في الممر المظلم للبيت المشيد على الطراز الروسي والبغدادي معاً ، كان لديه علم مسبق بأن الأولاد يتحدثون عن الشعر ، عن ديوان الشعر الذي يريدون كتابته . ابنه الشاعر يجلس الآن مع أصدقائه الشعراء ، حيث يحلو لمنير أن يقدمنا لأي زائر من أقربائه بإضافة كلمة شاعر مع الاسم ، ربما كنا نستنتج عن العالم استنتاجات غريبة ، بينما تتسرب من خلال الشقوق الصغيرة في الباب الأمامية خطوط رفيعة من أشعة الشمس ، ومن الأرضية المبلطة رائحة الصيف . أما في الخارج فقد كانت أغصان شجرة الورد المتسلق تضرب على درفة النافذة الخشبية .

IX
هروب الشعراء إلى المجهول

حين علمنا أن عيسى يخطط للهرب إلى أوربا جمد الدم في عروقنا . صوت صفير الرياح عبر شقوق الباب في الحديقة المتوحشة هو الصوت الوحيد الذي كان يبلغ سمعنا في ذلك اليوم الغريب ، ذلك اليوم الشيطاني ، وقد أعد في ذهنه مرافعة جيدة في حالة عدم موافقتنا .

تمنيت تلك اللحظة أن أغوص في أعماق الكون حتى أبلغ أكثر المكانات ظلمة وعتمة . . ربما حين يكف البصر عن الرؤية سأتمكن من تميز أشكال تلك الأرواح ، أو الأشباح ، التي تهيم في رؤوسنا ، حتى في الظلمة المطبقة يبزغ ثمة ضوء مزعج . .

سوف أريكما شيئاً . قال عيسى . .

ما هو .

رسالة من أحد المهربين إلى شمال العراق ، ومن هنالك إلى تركيا حيث يكون من السهل عليه الوصول إلى روسيا .

روسيا . . . ماذا تقول لهم . .

سأقول لهم بأني شاعر متأثر بالشعر الروسي العظيم وأطلب حق اللجوء السياسي .

لكن روسيا قتلت شعراءها لأنهم لم يكونوا من إيديولوجيتها هل أنت مجنون . . .

الباب الخشبية ذات الأكرة الذهبية تفضي إلى غرفة الجلوس . من إحدى الزهريات تتدلى باقة ورد جافة ، وعلى المائدة كان ثمة ملف هو قصائد مترجمة عن الروسية .

*

بعد لحظات ودعنا منير وانصرفنا أنا وعيسى إلى الشارع ، سيلحق بنا منير بعدها ونذهب ربما إلى السينما ، أو إلى المقهى ، الحالات الأخرى كنا نتعامل معها باحتقار ونعاقب من يتعامل بها ، أي حديث خارج الأدب لا أهمية له .

قصيدة جديدة؟ يسألني عيسى . إنها البداية أو الخاتمة التي ننتهي عندها في الحديث عن الشعر ، أو البداية التي نتحدث فيها عن الشعر ، إنك تسأل عن حالة شاذة أقول له ، يقول منير إن كتابة الشعر عندنا مثل حالة التبول اللاإرادي في الفراش ، شيء لا بد أن نصنعه ، لا يمكن لنا أن نقاومه .

كان ذلك اليوم هو ظهيرة يوم جمعة ، نحن في إجازة وقد حدثت مناوشات على الجبهة ، إذا دخل الهجوم حالته القصوى ، وعلينا أن نلتحق بجبهة الحرب . هذا العالم المختلف كلياً عن عالمنا الشعري الذي ندخل فيه طائعين . الخدمة الإلزامية من المفترض أن تكون خدمة الشعر لا خدمة الجيش ، يعلق عيسى . .

إنه الصباح وشمس بغداد مشرقة ، تنعكس أشعتها على

الباب الخشبية المؤدية إلى حديقة منزل منير . ومن الشارع الرئيسي للكرادة تأتي مع الرياح أصوات جلبة وضوضاء السوق .

*

غالباً ما يجدوننا منهمكين بالكتابة ، ننقح القصيدة التي يترجمها لنا منير .

أول ما ندخل المنزل نسأله :

هل ترجمت شيئاً جديداً؟

هل يخفي ذلك عنا؟ ربما يترجم أشياء لنفسه ليتأثر بها وحده ، ليتعلم منها أشياء كثيرة ، لا بد أن أشياء كثيرة ستفوتنا . يقول عيسى وهو يضرب الطاولة شاعراً بالعجز أمام المكتبة الكبيرة :

آه لو أعرف الروسية!

فجأة تدخل آغنس والدة منير قادمة من المطبخ حاملة ثلاثة صحون من البورسلين . بينما نجلس صامتين منهمكين بالمطالعة . تضعها أمامنا وتقول بلهجتها العراقية الملكنة :

كاستر اكلوا كاستر زين للشعر . . . تقول ساخرة .

تعلن بقدومها انتهاء حالة قراءة الشعر والبدء بالحديث عن الشعر مع الأكل .

حينما يسافر والده ووالدته في عطلة الصيف ، نقيم نحن في منزل منير . وقتها أخذ عيسى يتعلم فعلاً قراءة الروسية وبكتاب شائع اسمه «كيف تتعلم الروسية بخمسة أيام من دون

معلم» ، وحينما يسأل عيسى أي سؤال حول اللغة كان منير يتهرب منه ، يسخر ، ويقلب الموضوع برمته إلى نكتة .

بابا أنت مجنون تريد تتعلم الروسية؟

كان عيسى مصراً على تعلم مبادئ اللغة الروسية ، كي يتمكن من دراسة شعر مايكوفسكي وباسترناك واخماتوف ويسينين ، في البدء كان يشعر وكأنه يفهم ، نوعاً ما ، بعض تلك الكلمات . يمكننا أن ندرك بسهولة أن ذلك بسبب تقديسه للشعر . كان يريد أن يجرب تعبيراً جديداً ، صوتاً جديداً ، وهو يقيس في أعماق كل واحد منا عمق الجرح النازف ، كان يلفظ باحتراس وينظر إلى نفسه في المرآة الموضوعة في الصالة ، هو يرفع حزمة رفيعة من التبغ المعطر .

«ليس المهم أن أفهم اللغة ولكن يمكنني أن أحفظ القصائد فقط بسبب الموسيقى التي بها»

كان عيسى يتوقف أحياناً وسط الصالة ، حيث الهواء المشبع بروائح الجص والعرق والتبغ والطلاء وغازات احتراق زيت التدفئة . .

إلهي ، ها أنا أبحث عنك ، في ظلال فـــــردوسك العظيم . . . .

هكذا يصدح بصوته ، فنضحك معاً بصخب ، ونحن نستمع له ، وهو يلفظ الروسية بلكنة عراقية جنوبية . .

*

ما رأيك في كتابة رواية شعرية؟ قال لي .

عن شعراء جنود . . . عنا . . . سألني . .؟ فكر في هذا الأمر .

لمناسبة الاحتفال بكتابة قصيدة كان منير يدعونا لشرب كأس من الفودكا في منزله ، كنا نقرأ القصيدة كلمةً كلمةً ، وحرفاً حرفاً . . أنجزت كتابة ذلك العمل على ورق ملون ، وبعد بضعة أيام قمت بطباعته بالآلة الكاتبة . . وصدح صوته في الصالة . .

هذه قصيدة عظيمة . قال عيسى تلك العبارة . فأخذتني الدهشة . .

على أية حال ، ليس بوسعي أن أنشرها . . . .

كان منير يحرك غليون والده أثناء حديثه . لم أنطق بكلمة ، ولكنني شعرت بأقدام ترتقي السلم الذي يؤدي إلى المنزل المشبع بروائح غازات احتراق زيت التدفئة . انزلقت الورقة من يدي وسقطت على الأرض ، كان عيسى يضع معطفه المطري على ذراعه ، وأنا أسند حقيبتي على الطاولة ثم عيسى يتنحنح وكأنه يريد أن يقول شيئاً . .

هل هي لغرض إرسالها لصحيفة أو مجلة؟ سألني .

أبدا . . قلت له . كأن النشر نسبة لي هو نوع من التعري . . . أنا أخفي نفسي به لا أريد أن يعرف عني أحد أي شيء . . .

قال لي إن وقته لا يتسع الآن للحديث ؛ لديه أشياء لينجزها .

*

كان منير واثقاً من دوره الشعري إزائنا ، وحينما أقدم له أي ورقة يضع خطوطاً ، بالحبر الأحمر تحت بعض الكلمات .

كان هو أول من نشر قصيدة . كان مبتهجاً ، نحن أيضاً كنا مبتهجين .

كان قد نشرها في مجلة شهيرة تعنى بأدب الشباب هي الطليعة الأدبية ، وهكذا احتفلنا برحلة حروف الشعر على الورقة الصفراء ، كنا نعتقد أنها الرحلة السريعة إلى الفضاء ، سهرنا الليل كله ، موسيقى وشعر ، وتدخين وشرب فودكا ، وكانت والدته كل ساعة أو ساعتين تدخل علينا بطبق كي نأكل . بقينا هكذا حتى هبط الصباح .

هبط الصباح .

ردد منير هذه العبارة مرات عدة . بينما كان ينظر إلى قصيدته في المجلة ، التفت لي وقال :

لماذا وضعوا اسمي على القصيدة؟ أيكون لاسمي أهمية ما؟ ابتسم ابتسامة خفيفة وقال حين رأى القصيدة أول الأمر اشتبه عليه الاسم ، من يكون صاحبه ، أنا أم والدي ، أيكون والدي هو المقصود؟

النشر أمر مقلق حقاً . ما كتبته سيقرأه أناس مجهولون . ألا يفترض أن يعطي الكاتب قصته أو قصيدته لقارئ يعرفه ويثق به؟

*

كان منير قد أصبح أعلى منا ، كاد الغرور أن يهددنا . بينما الغيرة اشتعلت عند عيسى ، فأخذني جانباً وقال لي إنه يشك

بأنه من كتب هذه القصيدة ، والأرجح أنه ترجمها من أحد الشعراء الروس المهمين ، وظل يعدد لي أسباب ذلك ، يبدو أنه أجهد نفسه في مطابقة القصيدة مع القصائد المترجمة ، وقرأ كثيراً عن الشعر الروسي لكي يلتقط هذه المطابقات . لا أعرف ماذا سيقول لو قد اكتشف مثلي أن منير لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الروسية . وأنه لا يترجم منها ، وأن ما تأثرنا به من شعر روسي مفترض هو في الحقيقة شعر مرتجل منه . ماذا كان سيقول ، هل سيقفز ويصرخ بأعلى صوته :

يا للاستعارات المبتكرة ، ما أعظمك أيها الشعر ، وما أعظمك أيتها اللغة الروسية؟

الشعراء لا يبتهجون كثيراً ، قال عيسى .

الشعراء . . . من هم . . . يقصد نحن؟

الشعر؟

يا للكلمة العظيمة ، إنها حدث تاريخي . لا بل أقول هو أكبر حدث تاريخي في حياتي ، ما هي ولادتي بالقياس له! قال منير . .

بعد بضعة أسابيع ؛ اشترى منير مجموعة نسخ من المجلة . بعدها ذهب منير واستلم مكافأة عن القصيدة ، لقد أخذ مالاً ، وإن كان قليلاً ولكننا قررنا أن نصرفه حتى آخر فلس :

كتب مترجمة من دار المأمون ، ومجموعة من قناني البيرة المثلجة . .

*

دب الخلاف فجأة، عيسى صار يتهكم، بينما أخذ منير يكتب كثيراً. الكلمات والحروف المكتوبة بالحبر تتخذ أشكالا متعددة، بعد ذلك أخذت الصياغة الأدبية تضمحل، قال لنا إن الشعر أصبح نسبة له عمل لا إرادي، عمل يشابه التنفس أو نبض القلب أو إفرازات البنكرياس.

ما الذي تكتبه هذه الأيام؟ سألته. لم أكتب أشياء مهمة. قال ذلك وهو يرقب الوقت الذي يزحف، والضوء الذي ينتقل من مكان إلى آخر. إنه يمزق الأوراق، يصحح، يكتب، أصبح راضياً عن نفسه، إنه شاعر رسمي. لقد نشر قصيدة. وكان كل يوم يروي لنا هذا الحدث بطريقة مختلفة، كانت كذبته مفضوحة. ولكنه لم يكن يبالي بذلك، كان مستمتعاً بالحديث عن قصيدته. لم يكن يريدنا أن نتحدث عن أي شاعر آخر سواه، ولا عن أي قصيدة سوى قصيدته، بينما كان هذا الأمر يضايق عيسى بشدة، كان يقدم نصائحه لنا، عليكم كتابة الصيغ بشكل عفوي، الكتابة آلية، إياكم من الاستخدامات اللغوية المتداولة فهي التي تضع العثرات أمام الشعر، عيسى يحتج من أنت مايكوفسكي يسينين لتقول لنا ذلك؟ يردّ وما الفرق كلانا نشر شعره، يقصد عيسى لم ينشر شعره.

. . . أنا جائع . . أنا عطشان . . أريد أن أنام الآن . . أود أن يكون لي طفل . .كل الأشياء تتمحور حوله، أليس هو الشاعر الذي نشر قصيدة؟ قال إنه تعرف إلى فتاة جميلة في الباص،

وحين ذكر اسمه لها عرفته . قالت له إنها قرأت قصيدته . قال لي فيما بعد إنه قال هذا الشيء أمام عيسى ليجعله يبول على نفسه . إلا أن عيسى سخر منه وقال له ليست هناك من فتيات جميلات في هذه البلاد يحببن الشعر ، الجميلات الأوربيات وحدهن اللواتي يهتممن بالشعر .

*

بعض الأحيان من أيام الإجازة نتجول في الشورجة ، وفي سوق حنون ، وفي سوق الكرادة ، لكي نشبع من اللغة وهي في أفواه الناس في طراوتها الحقيقية . ومن الناس كنا نتعلم اختلاف الصيغ ، ومن عملهم نتعلم المواقيت ، فلغة الناس العاديين ، وهي مقطوفة من أرض الواقع ، لها وظائف أخرى غير تلك التي نعرفها . مشمش ، عرموط ، سلة ، عشرة دنانير ، عمي هذا بيش . . . بالك بالك . . .

قلت لمنير مرة هذه العبارات ليست ألغازاً مستعصية وحسب ، إنما هي تقوم على تغيير الوقائع أيضاً ، كل شيء ينتهي إلى اللعب على الصيغ اللغوية .

قال لي لم أفهم ما تريد . . . قلت له حسن . . . لربما لم تكن وظيفة اللغة هي التواصل ، وربما لم يكن الشعر مجرد استعارات فقط .

*

وسط هذا الحشد من الناس كان عيسى يخترع لنفسه حياة أخرى ، حياة تتناسب مع موهبته ، كان يريد أن يصنع له حياة

جديدة بموازاة حياة الشعراء الذين قرأهم . .فهو يجلس في البار يشرب البيرة المثلجة ، ويدخن سجائر محلية ، ويرتدي ملابس من البالات ، لكي يشبه صور الشعراء الذين يقرأ سيرهم ، يرتدي على الدوام معطفا أسود ، وقبعة ، ولفاعاً رمادياً . . . يجلس بنظارته السميكة وهو يضع كتب دار المأمون أمامه ، وهي دار اختصت بترجمة الأدب العالمي في بغداد في الثمانينات ، مثل دواوين هنري ميشو وجاك بريفير وأنا أخماتوف وغيرهم . . وحين كان عيسى يقرأها فهو لا يقرأها فقط ، إنما يعيش كل لحظة فيها ، ولم تكن هذه اللحظات هي لحظات حياة شعراء وكتاب غربيين فقط ، إنما كانت لحظات مدن أيضاً ، مدن مثل لندن . . باريس . . بطربسبورغ . . مدريد . . روما . . وهكذا . .

بلغ الضجر عند عيسى حداً مفزعاً ، ولم نكن أفضل حالاً ، ولكن الخوف هو الذي يمنعنا من اتخاذ أي قرار ، إلا أن عيسى وشلته التي كنا يطلق عليهم جماعة بهية ، كانت أكثر جرأة وأكثر صلابة في اتخاذ قرار حاسم . وهو إعطاء ظهرهم للحرب ، والعودة متخفين في حياة سرية في المدن .

*

كانت عقوبة الفرار من الجبهة هي الإعدام ، لا محالة ، إنه الموت المؤكد ، وليس الموت هو بحد ذاته ما كان يخيفني أنا على سبيل المثال ، ولكنه القلق المدمر لفرار أو هارب يتخفى في المدينة من الملاحقات والقتل والتعذيب . فما إن تلقي السلطات القبض على أي فرار (هارب) فإن الأمر لا يحتاج مدة

طويلة للإعدام ، وأحياناً يتم الإعدام داخل المدينة ، أمام مرأى الناس ، وهو مشهد متكرر في هذه المدينة التي كانت تتغربن وتتحضر وتترقى من جهة ، ومن جهة أخرى تشبه أيام الإمبراطوريات القديمة في تقديم مشهد الموت علناً ، حيث يوضع الفرار من الحرب على خشبة أمام الناس ويطلق عليه الرصاص .

إذن لم يكن قرار الفرار من الحرب قراراً سهلاً ، ومع ذلك هرب عيسى ، وهرب كاظم سلمان علي ، وهرب سالم خيون ، وهرب إبراهيم محسن ، وهرب علي عباس ، وعادل جواد والآخرون من جماعة الكتاب والمسرحيين في الجبهة وأصبحوا يتخفون في المدينة ، في الصباح لا يخرجون إلا قليلاً ، وفي الليل يخرجون لقضاء الوقت في البارات والملاهي مع اللصوص والنشالين والفرارية الآخرين والعاهرات . عالم كامل في الليل يصنعه الفرارية المثقفون بموازاة عالم كامل في الصباح تصنعه السلطة .

ومن الغريب أن لقاء الشعراء الفرارية كان في شارع أبي نواس على الدوام ، أي في الخمارات التي لا تفتح أبوابها إلا ليلاً ، أكثر الفرارية يندسون بين أصدقائهم المجازين الذي يقضون إجازاتهم هناك ، وهكذا استطاع التخفي من السلطة ، ومن ملاحقات الانضباط العسكري في تلك الفترة .

الفصل الثاني

الجنود الموتى

وشعراء التاريخ الأدبي

«ولد في . . .

توفي في . .

ليس هناك من أحداث

ليس هناك من تواريخ

لاشيء»

Pierre Reverdy

I

عودة إلى رسالة ليلى السماك

لقد كانت قراءة هذه الرسالة وفي ذلك الوقت بالذات هي التي أتاحت لي تذكر هذا العالم المنسي من حياتي ؛ أو هذا الجزء المتفجر والأساسي من عالمي ، بل أقول جازماً أن هذه الفقرات المكتوبة بحذق ، أتاحت لي إعادة التفكير بذلك العالم الذي كاد أن يمَّحي في حرب أخرى ، ويذوب في حرب تلته .

نعم ، لقد كنت في غمار حرب أخرى ، ربما لا تقل شراسة أو وحشية عن سابقتها ، ولكن الحرب الأولى ما زالت مرسومة مثل جرح على راحة اليد ، أستعيدها في صورة عيسى وهو يصرخ بوجهي في ساعات غضبه أو حتى سعادته :

– نعم ولكنك تتكلم عن الحرب بطريقة رمزية . . .

– الحرب تجعلني أهرب بعض الأحيان وليس في جميعها . . أقول له مستسلماً . . .

– لا ربما هي شعرية الحياة قد أثرت فيك . . . يقول ذلك وهو يعب كأس بيرة فريدة بارد ، مرة واحدة في جوفه ليطفئ حرارة صيف بغداد . . .

- شعرية الحياة .. شعرية الحياة ... أردد وراءه متهكماً ..

*

نعم أنا لم أنس الحرب الأولى ولم أتجاوزها أبداً ، ولكن أن تعيش الحرب في حياتك مرتين يعني أنك نجوت مرة على الأقل في حياتك . يعني أنك جربت معنى آخر للحياة وأنت تنتظر موتك .

يا لدهشتي وأنا أقرأ السطر الأول من رسالة ليلى :

أتمنى أن تصلك رسالتي وأنت حي ترزق!

أعيد قراءته مرتين ، أخرج سيجارة من جيبي وأشعلها ، وأطلق الدخان في الهواء ... ثم أقول في نفسي : لو لم أعش حرباً أخرى لصدمني هذا السطر ووضعته خارج السياق الطبيعي لاستلام هذه الرسالة .

ولكن هذه هي الحقيقة التي علي أن أتوقعها مع أي شخص من بلدي ، الموت هو الحالة الطبيعية التي تجعلني مستسلماً تماماً ولا تتيه الكلمات في ذهني بعيداً عنها أبداً ، ولكن أن أكون الناجي الوحيد بين أصدقائي ؛ إذ جميعهم قتلوا ، جعلني ذلك اليوم أتأمل حقيقة مثل شائع بين أصدقائي :

لا شيء يحدث في هذا العالم بالصدفة .

وهذا هو الذي جعلني أتأمل هذه الرسالة من جوانب عديدة ، وليس من جانب واحد .

*

اتخذت كرسياً عند النافذة ، وضعت قدمي على طاولة قريبة وأنا أنظر ورق الأشجار الأصفر والنحاسي وهو يسقط في المماشي ، بينما رحل تفكيري بعيداً في تأمل رموز هذه المرحلة الغامضة والمغيبة من تاريخنا ، وهذه الأسرار التي تنطوي عليها حياة أولئك الموتى المنسيين وتاريخهم الغامض والملغي من حياتنا ، وتأمل مغزى هذا الجيل الذي أصابته لعنة أشبه ما تكون بالبرص في القرون الوسطى ، وعذاباته الخفيّة وشفراته المذهلة .

لقد شعرت لحظتها أن هنالك نوعاً من الأقدار التي تدفعني لفعل شيء ما ، للتخطيط لعمل مقدر علي الشروع به ، إنه مصير مقرّر ، ولا يمكن أن تكون هذه الرسالة محض صدفة أبداً .

ذلك أن سؤالي على الدوام هو من أنا؟

وقد رددت هذا السؤال على نفسي مراراً ، وكنت سألته مرة في المقهى ، وقد رد الدكتور إبراهيم مباشرة ، وهو يضع نظارته الطبية على عينيه كما لو كان يكشف على مريض :

هل لزاماً عليك أن تجد نفسك في جيل؟

قلت له : نعم . .

اليوم أفكر بهذا الأمر على نحو مختلف ، ولكني أجد الشيء ذاته على الدوام ، أجد الاحتقار المستمر لكل شيء ، ذلك أن هذا الجيل الذي عاش مبتوراً بالنصف (قتل نصفه الآخر في الحرب) عانى أسوأ ما يمكن أن يكون في الحياة : الحرب والاستبداد .

فلا غرابة أن يكون بعيداً قليلاً عن الإيمان ، ذلك أن الأجيال السابقة كان لها إيمانها الخاص ، أما جيلنا فقد عانى من هذا الإيمان ، قال لي الدكتور إبراهيم مرة ونحن نسير في ظلال دكاكين الصاغة في شارع النهر :

الإيمان هو بذرة الحروب والثورات!

أتذكر قوله في هذا الوقت وأنا أستعيد موته ، أستعيد لحظة إعدامه وهو الطبيب ، وأقول على الرغم من أنه أنكر فكرة الجيل ، ولكنه قد مثّل الجيل كله أيضاً . الجيل الذي عاش في زمن الحرب غريباً تماماً ، عاش كما لو كان روحاً شاردة أُلقِيَ بها من عالم آخر ؛ وهذا هو سبب خياله المظلم ، الخيال الذي دفعه نحو أخطار متعددة ، وعبثاً حاول أن ينقذ نفسه بالشعر .

*

لست مبالغاً حين أتكلم عن هذا الجيل الذي سحق سحقاً في الحرب . حين أتذكر الذين قتلوا منهم ، أتذكر قدرتهم على الحب التي لم تتيسر لكائن آخر من الناس ؛ لأن حياتهم كانت مضغوطة إلى درجة فظيعة ، كانت قصيرة جداً فجربوا الحب بقوة ، وجربوا الكراهية أيضاً إلى حد المقت والاحتقار ، ألم يكن من حقهم أن يفعلوا ذلك طالما كانت أحلامهم في الفضيلة تتجاوز منذ البدء نطاق الحقيقة والواقع ؛ وشبابهم الذي خاب عصفت به الحرب حتى الموت ، فلم يبق لديه إلا الأسف على كل تلك الأعوام التي بدَّدوها في مطاردة شبح وخيال .

هل كان استخدام عيسى الذي أعدم ، أو منير الذي قتل ،

للطاقة التي وهبت لروح كل واحد منهما في الشعر سيئاً؟

لقد كان عيسى فريسة لعاطفة عنيفة أدت به إلى نوع من التدمير الذاتي ، أدت به إلى الخراب والشقاء ، ولم تترك لعواطفه العنيفة غير اضطراب باطن ، وأفكار قاسية تستثيرها حياة عاصفة مضطربة .

أتذكره وأنا أضحك وعيناي مغرورقتان بالدموع ، أتذكره يأتينا وهو بملابسه العسكرية سكران ، كان يمثل دور الشرير ، لكنه دور الشرير المرح ، نصف شارلي شابلن ونصف فيليب جيرار . . .

أما منير فقد كان من الكبرياء والبطء في الإدانة بحيث ألقى نصف مسئولية ما كان يعيشه على عالم الما وراء ، على الحياة الخفية السرية الأخرى ، أو إلى الأصل المفترض للحياة الدنيا ، وعزا كل أخطاء هذا العالم إلى تداخل خطأ في مجموعة نبتون وأورانوس!

يا للتحليل المرعب قلت له مرة .

ولكن هكذا هو الأمر . . . هل تنكر القدر؟ قال ، وهو يشرب كأس الشاي في المقهى .

قلت له ساخراً :

نعم إنه القدر الذي جعل نوسترادموس يكتب تنبؤاته!

*

شعرت بأن الحرب قضت على كل شيء عاشه هؤلاء الشباب ، فتحولت الحياة إلى سجن ، تحولت إلى عذاب ، ومع

أن عيسى كان يغامر ليجد لنفسه حياة أخرى عبر الهرب إلى بلاد أخرى ، اختار منير والدكتور إبراهيم الموت ، ذلك أن الموت نسبة لهم ليس نهاية للحياة إنما هو تحرير لها ، مثلما تحرر الشمس الماء من سجن الإناء الموضوع فيه فيتحول إلى بخار يتلاشى في الطبيعة ، فليس الموت في الحرب هو سقوط أهوج لجسد مدمى في موضع طيني كما كان يظن عيسى ، أو أن يصبح الجسد الرقيق قوتاً لدود القبر ؛ إنما هو صعود ، تلاشي ، تحرير ، غياب ، سعادة ، لا فناء ، هو اتحاد مع رب عظيم تنتشر روحه في كل مكان في هذا الكون . . .

*

هذا هو جيلي الذي انتهى به الأمر إلى الخلط بين الخير والشر ، فقال عن أفعال إرادته إنها أوامر القدر .

II

معنى الحياة معنى الشعر

أقول هذا وأنا أقرأ رسالة ليلى لأصل إلى معنى الحياة في زمن الحرب، ما هي الحياة إن لم تكن الخروج مرة أخرى إلى الشارع. أليس كذلك؟ ما معناها إن لم نجدها في طلاقة الهواء لا في الرائحة العفنة للمكاتب، إن لم تكن هي الظل والضوء معاً، هي الجيفة وجمال الأزهار في وقت واحد.

كانت صورة الدكتور إبراهيم تلك اللحظة ترتسم أمامي وهو يضع سيجارته في فمه، ويكف كم قميصه إلى الأعلى كأنه حجام، وبصوته الخشن يقول:

- ليس هنالك من مطلق للجمال إلا في الموت.

- إذن ما معنى الحقيقة إذا كان الموت أمراً مطلقاً؟.. سألته.

الآن، وبعد موتهم جميعاً، أدرك أكثر من أي وقت مضى أن حياتهم الناقصة غير المكتملة، هي الحقيقة الوحيدة على الأرض.

- لتكن هي التاريخ إذن!

لتكن هي التاريخ، طالما ذاكرة كل واحد منا تحتفظ بأشياء

متعددة ومن أصناف مختلفة ، تخزن أشياء متناقضة ، وتعود إلى نفسها بكم من الأشياء المتداخلة كما لو كانت موضوعة في لوحة هيستيرية .

*

حين أتذكر تلك الأيام ، أتذكر كيف كنا نعود من الجبهة راكضين إلى المقهى ، لا لشيء إلا لنتحدث عن الشعر . كنت أصل من الجبهة في الصباح الباكر ، سرعان ما أرتدي بنطلوني الجينز على عجل ، كنزة صوفية أرتديها على قميص خفيف ، ثم أحمل معي كتاباً لم أكمله بعد وأهرع إلى المقهى ، كان عيسى يصل المقهى قبلي لأنه يأتي بملابسه العسكرية ، أما منير فإنه يتأخر ، كان الأمر بالنسبة له يخضع لمراسيم ، ملابس جديدة ومكوية ، الذهاب إلى الحلاق ، عليه أن يكون على أحسن ما يرام .

هكذا يبدأ يومنا بالحديث عن الشعر .

لم يكن الشعر بالنسبة لنا هو محاولة للوصول إلى الكمال ، إنما كان بالنسبة لنا هو رغبة في تشويه حياتنا التي لم نكن نتقبلها كما هي ، أو هكذا كان عيسى يقول حينما يضع قبعة على رأسه لكي تمتد صورته إلى صورة شعراء غربيين :

إننا ننتشي بالشعر كما لو كنا ننتشي بالرغبة الجنسية .

نعم هذا صحيح ولكنها الرغبة التي تنتهي على الدوام بكابوس . . . كنت أقول له .

وهذا الأمر صحيح جداً ، لا لأن القصيدة بعد كتابتها

تتحول إلى خواء في الروح ، أو لأن الحرب تؤدي إلى الفناء ، أو الإيمان يؤدي إلى القتل ، إنما لأن كل شيء في حياتنا صار يحيل إلى الخوف والفزع وهو أقسى من الموت ذاته . نعم إنها الرغبة ولكنها من ذلك النوع الذي يؤدي إلى فزع كما لو كنت تمد يدك لتلمس شفتي صديقتك الرقيقتين فتلمس كومة من الدود والهوام .

كتبت لليلى جواباً على سؤال لها :

«كنا نعيش فزعاً حقيقياً ، كنا نحاول أن نقفز فوق اللغة ، لكننا فشلنا ، نعم كلنا فشلنا ، تعثرنا وسقطنا واستقر أنفنا تماماً فوق الجثة» .

عيسى بروفسور الوهم

عيسى الذي كان يطلق عليه منير بروفسور الوهم هو أصدق واحد فينا ، ذلك لأنه الوحيد الذي عاش كما رغب رغماً عن كل عوائق حياته . . . وهكذا أتذكره ملياً هذا اليوم ، أتذكر خطواته الهادئة وهو يخطو من المقهى البرازيلية في شارع الرشيد إلى سينما سميراميس في شارع السعدون . أفكر بتجواله الطويل والمرهق وهو شارد الذهن ، مبلل الشعر تحت نثيث المطر ماراً بالمطاعم ، والمقاهي الصغيرة وأكشاك الجرائد .

وبعد أن قطع كل هذه المسافة يتوقف أمام سينما سميراميس ، يتوقف طويلاً ليقرأ إعلانات الفيلم . هذا ما يفعله على الدوام ، ينظر إلى صور ممثلات شبه عاريات في صيف

مشمس على ساحل من سواحل أوربا . وبين وقت وآخر كان يرفع رأسه ليقرأ تايتل الفيلم العريض ، والذي يخط عادة باللون الأحمر ، ثم يهبط رأسه أسفل .

أحياناً كنت أجلس في مقهى قريب من السينما ، فأراه وهو يهم بالدخول ثم يتراجع قليلاً ، إنه المتردد أبداً ، القلق دوماً وفي كل ما يفعله ، لا يتخذ قراراته بسرعة أبداً ، من أجل أن يفعل أي شيء لا بد أن يروح ويجيء مرات ومرات . يتوقف ، يصفن ، يقرر ، يتراجع ، هكذا كان أمام كشك تذاكر السينما ، يتوقف برهة يخرج نقوده من جيبه ، يتقدم قليلاً ، ثم يتراجع ، يعيد نقوده إلى جيبه ، ويعبر نحو بار معتم في الزاوية .

بار معتم اعتاد عيسى أن يقضي وقته طوال العام الفائت على الحاجز الخشبي للبار أمام إيدا ، النادلة الفلبينية التي تعمل منذ خمسة أعوام في بارات بغداد .

توقف أمام البار ، أمام زجاجه المعتم . لم يدخل . كانت إيدا تراقبه من خلف البار ، كانت تراه ولا يراها . توقفت قليلاً وهي تحمل صينية عليها قنينتا بيرة ، وكلاصان فارغان ، وصحن مزة من الحمص . كانت تنتظر قدومه ، غير أنه غير رأيه ، تراجع خطوتين ، تأبط كتبه التي اشتراها من المكتبة العالمية وسار في الطريق .

*

أحياناً أرى وجهه حزينا جداً . ولكني أعرف أن هذا الحزن بالنسبة له حزن لذيذ أيضاً . أعرف أن هدوءاً وصفاءً كلياً في

عقله ، لأنه يدرك أنه لا يشبه أحداً في الشارع ، لا بسحنته ولا بملابسه السوداء .

*

هذا هو عيسى في العام ١٩٨٧ ، يقف وحيداً في الشارع ، ومن خلفه حزمة ضوء ملون تنطلق من دكاكين الموسيقى ، ونساء يرتدين البنطلونات يمرن من جانبه . رائحة دخان فحمي من مطعم كباب قريب منه . رائحة أحجار رطبة في شوارع بغداد في هذه الساعة من المساء . برد قليل . زكام في الأنف . وعيسى يحمل مجموعة من الكتب ، يسير في الشارع بمعطفه الثقيل الذي اشتراه من البالات . قفازات سود بيديه ، ولفاف رصاصي يلف به عنقه ، وفي قدميه حذاء أسود اشتراه من البسطة .

*

عدل عيسى معطفه الطويل المجعلك ، وقبعته العتيقة التي يخفي بها صلعته ، وعبر الشارع . مر أمام الصيدلية ، كانت مفتوحة يوم الجمعة . على الحائط ركنت عجلات مخلوعة من سيارة فيات . في الطريق بركة مياه ومزبلة ، في زاوية الشارع كراكيب وبرك طينية . وقف أمام النزل ، كان الباب مفتوحاً ، وحيدة هناك ، أم جوني تطبخ على بريمز مشتعل ، وكان صدرها يتهدل تحت قماشة دشداشتها السوداء ، وفي آخر الحوش كانت أمها قد وضعت صدرها في فم أخيها الرضيع ، ومسكت المكنسة وأخذت تكنسها بينما كانت حليمة جارتهم ترش الماء فيتصاعد الغبار إلى الأعلى .

III
شعراء التاريخ الأدبي

هكذا كانت رسالة ليلي تبعث ذاكرتي ، ولكنها في الوقت ذاته كانت تشعرني بأني عاجز تماماً عن الكتابة عن أمور عديدة . كنت أفكر بها ، وأستعيدها كذكريات ولكني غير قادر على كتابتها ، كنت أشعر كما لو أصبحت مشلولاً ، أو مخدراً بفعل الذاكرة ، وبأسباب أخرى لا أستطيع تحديدها ، ذلك أن الكتابة عن أصدقاء قتلوا جميعاً أمر ليس سهلاً بتاتاً .

لماذا؟ سألتني مرة .

أشعر بالعجز ، بالشلل التام ، أشعر بأزمة ضمير ، أن أخلق من موتهم قصة .

لكنك الناجي الوحيد وعليك أن تتكلم .

حسن يبدو الأمر كما لو كان مسابقة ، أن تروي أكثر قصة تراجيدية لتحصل على جائزة . هكذا كان الأمر ، فضلاً عن أن التاريخ الأدبي هنا لا يعبأ بأولئك الذين لم ينشروا أشياء كثيرة في حياتهم .

*

كنت أتوقف لحظات عديدة أمام هذه المشاعر ببساطة لأني لم أستطع تفاديها ، فمن جهة كانت الحرب مستمرة ، وهذا حال بلدي بشكلٍ أخصّ ، قلت لها بلادنا لا تشبه روسيا ولا ألمانيا (وأنا أستعيد صورة عيسى الذي كان يتشبه بالشعراء الروس والألمان معاً) ذلك أن حرباً أخرى قد اندلعت تواً وأنا منشغل بها الآن ، فكيف أزيح حرباً حالية من أجل حرب ماضية ، أو على الأقلّ وهو حال عام بالنسبة لنا ، أن الحرب لم تنته من حياتنا ولم تصبح ماضياً أبداً ، لم تكن حروباً ، لا أبداً ، إنما هي حرب مستمرة .

أحياناً أتوقف عند مقهى في طريقي ، أجلس وأشرب قهوة وأنا أتساءل ماذا أكتب لليلى عن شقيقها منير؟

هل أذكر لها حادثة ديوان الشعر الروسي مثلاً؟

أقول لها نحن الشعراء الذين تأثرنا بكتاب مترجم عن الروسية ترجمه منير الذي لم يكن يفقه حرفاً واحداً من هذه اللغة؟

فبعد وفاته ، كنت تحدثت مع والدته ووالده وكان صوتي مبحوحاً من البكاء ، تحدثت لهم عن ديوان الشعر الروسي الذي ترجمه ، فاستغربا ، لا بد أن خطأ حدث في معلوماتي ، فمنير لا يقرأ حرفاً من الروسية ، يعرف الكلام قليلاً ولكنه لم يتعلم القراءة بها أبداً ، لا يعرف قراءة كلمة واحدة ، ولا حرف . . .!

شيء مضحك ، والله ، شيء ساخر حقاً . . . لقد تأثرنا

بأساليب هذا الكتاب ، ببراعته ، بعذوبة صوره ، باستعاراته ، بأفكاره ، ثم انتبهنا أخيراً لنجد أن مترجمه لا يعرف شيئاً عن اللغة التي يترجم عنها .

ولكن لم لا . . . هل هنالك ما هو أفضل من ذلك ، ليكن! لقد ألفه ، في اللحظة التي كان عليه أن يترجم كان يستجمع فكره ليقول لنا صوراً لا يمكن أن تحدث لو فكر تفكيراً في صناعتها ، أليس مذهلاً هذا الأمر ، هل كنا مخدوعين ، أم أفدنا كثيراً من هذا الخطأ التاريخي؟!!

*

- ألو . . . سمعت صوت ليلى في التلفون . . . بعد سنوات طويلة . . .

- ألو . . . هل تسمعني . . . .؟ ومن دون أن أجيبها أو أسلم عليها ، أقول لها :

- إيه ليلى رسالتك في إيدي . .

كانت تتكلم ، تصمت ، تضحك . .تتساءل . . . ورسالتها في يدي ، أجيبها في التلفون وأنا شارد الذهن ، أحدثها وأنا أنظر الكلمات المرسومة على الورقة ، فأشم رائحة حبر الحروف على صفحة الرسالة المكتوبة بخط اليد ، فتذهب ذاكرتي إلى عالم غطاه الرماد ، إلى حياة شعراء شباب ، جنود بالأحرى أصبحوا الآن في عداد الموتى . لا أحد يعرف عنهم أي شيء ، إنهم موجودون وكلنا يعرف ذلك ، لكن أين هم ولم يذكرهم أي

تاريخ؟ هل وجودهم تحت التراب ، هناك في المقبرة يعني أنهم لم يكونوا يوماً؟

- إن الأمر هنا يتعلق بالتاريخ الأدبي . . . تقول ليلى . . .

- نعم بالإرهاب الأدبي . . أجيبها . .

- ماذا؟ هل تسخر مني . . .

لا . . . لا . . . ولكن أتساءل بعد مرور سنوات على مقتل هؤلاء الشعراء الشباب ، والذين لم يتمكنوا من نشر شعرهم . ما معنى هذا التاريخ؟

سألتُ ليلى بالتلفون وهي تحدثني عن شعراء روس قتلوا قبل خمسين عاماً تتم استعادتهم هذه الأيام .

- أوافقك ليلى ولكن أليس هذا هو التاريخ المكتوب؟

كنت أفكر بهذا العالم الآخر الذي ينمو فجأة ، العالم غير المعترف به والذي يبزغ فجأة ليهدم ، أو ليشكك بالتاريخ المكتوب . ما سر هذه القوة التي تتعلق بالمكتوب ، والتي تريد أن تمحو كل ما عداه؟

سكتت ليلى وهي تزيل حشرجة عن صوتها . ربما هي حشرجة البكاء ، قلت في نفسي ، وهي تتذكر مقتل شقيقها . . . ومقتل أصدقائه ، ذكرى أيام الجنود الذي قتلوا في الحروب أو السجون . . . هل كنت مخطئاً . . . ؟

سرعان ما أردت تجاوز هذا الحديث بالعبارة التالية :

أفهم ذلك ، أفهمه جيداً . . . طالما التاريخ المكتوب هو أداة السلطة ، السلطة حين تريد أن تزيح أجساد هؤلاء الشباب

الذين كانوا هناك ، الشعراء الجنود الذين كانوا يقفون في الفراغ من التاريخ الذي كنا ننظره ، ما هذه القوة التي تتعلق بالمنشور ، والتي تريد أن تتعالى على أجسادهم التي كانت موجودة ومحسوسة؟

- إن التاريخ يريد أن يلغيهم . . . قالت ليلى محتجة .

يلغيهم من أين . . . ؟ سألتها .

من يقنعني بأنهم لم يكونوا . . . بينما عرفتهم أنا لا في ميدان الحياة فقط ، إنما في مجال الكتابة أيضاً ، صحيح أنهم لم ينشروا شيئاً ، لم تظهر صورهم في الصحف كما كانوا يحلمون ، لم تلتمع أسماؤهم على كتبهم كما كانوا يرغبون ، ولكنهم وسموا بأجسادهم الفتية مرحلة كاملة ، بل أقول إلى هذه اللحظة وأنا أكتب على هذه الورقة البيضاء أشعر بهم ، أحسهم في كل كلمة أكتبها ، في كل جملة أسطرها ، في كل فكرة تعن إلى ذهني ، إلى الآن أتعرف عليهم في أفكار وكتابات كتاب آخرين ، أقول لنفسي إنهم في هذا التاريخ الذي مضى ، في الزمان الذي مر ، لقد كانوا موجودين في كل لحظة من لحظاته ، في كل دقيقة فيه ، في كل ثانية من زمنه .

إذن ما هذا التاريخ الذي يريد أن يلغيهم ، ويقول إنهم غير موجودين هكذا بكل بساطة؟ بينما كان لهم أعمق أثر في حياة لم تكن سهلة أبداً ، في ذلك الزمن المضطرب دشنوا تجربة راعشة وحاسمة ، وقد ماتوا في البحث الدائب ، الصافي البصيرة عن معنى الحياة . وكانوا يعرفون أنها تنسرب منهم كما

ينسرب الرمل بين الأصابع .

لقد ماتوا . . . نعم ، ماتوا ولم ينشروا شيئاً ولم يسمع عنهم أحد ، ولكنهم موجودون في الهناك ، في المدينة المحلومة ، في الشرف الرفيع للمجهولين ، إنه شرف ما بعده شرف طالما لم يعد لشرف أمتي بعد الحرب أي معنى في حياتي .

IV
شباب شعراء جنود في الثمانينات

من فترة ليست قصيرة استحوذت عليّ فكرة المقارنة بين صديقين ميتين : منير وعيسى . منير قتل ، استشهد في الحرب ، وعيسى قتل ، أعدم بسبب فراره من الحرب . الأول اعتبروه شهيداً وطنياً ، والآخر اعتبروه خائناً . منير كان يؤمن بالتجريد إلى أقصى ما يمكن ، وكان عيسى يؤمن بالمحسوس إلى أقصى ما يمكن . الأول يكتب شعراً رؤيوياً ، تجريدياً ، والآخر لم يغادر الأشياء والأحجار والثمار في شعره أبداً .

لم يكن منير هيناً ، لا أقول إنه عبقري ولكن له روعة خاصة ، كان يشيع في الجميع روحاً عنيفة وقوية . ربما كانت أوصافه البشرية عادية لا ترتفع إلى ما فوق مستوى متوسط ، ولكن له شخصيته التي لا تخلو من الطرافة مطلقاً .

أما عيسى فكان من نوع آخر ، كان مهووساً بالشعر ، مع أن صورته لا تخلو من الطرافة ؛ ولم نكن نجد جديداً أو عميقاً في الأشياء التي يكتبها ، وكان إحساسه بالطبيعة لا يبلغ من العمق مبلغ إحساس منير ، ولكنه يمتاز عنا جميعاً أنه يشيع في كل أوصافه وصوره وخواطره وإحساسه اضطراباً وعنفاً يهز النفس ويملأ القلب .

يوم عادي من أيام الإجازة في زمن الحرب

كنا الثلاثة معاً : منير ، عيسى ، وأنا . نسير من كمب راغبة خاتون حتى شارع الوزيرية . دخلنا المركز الثقافي البريطاني ضحى ثاني يوم من أسبوع الإجازة . كان ذلك في يوم مشمس من أيام الخريف على ما أتذكر ، حين أخذت الأشجار بفقدان لونها الأخضر ، ومع أن الأغصان ما زالت طرية بعد ، غير أن الأوراق قد اصفرت وأصبح لونها ذهبياً ، وصار بعضها الآخر ضارباً إلى الحمرة كالنحاس . كانت بعض الأمطار قد بدأت بالهطول ، واخضر الثيل على الرصيف .

جلسنا في الحديقة على مقاعد من البلاستك الملون أقدامنا على أوراق الشجر الجافة المبعثرة على الأرض . . أخذنا ندخن سجائر مارلبور وننظر الخارجين والداخلين إلى المكان . عيسى يحمل كتاباً بالإنكليزية عن شعراء الحرب العالمية الثانية في بريطانيا ، غلافه كاكي ، وصورة الشاعر أولفريد أوين الذي قتل في الحرب ببزته العسكرية مرفوع الرأس ، وخلفه معدات حربية محطمة . وفي يده الأخرى كيس يحوي شريطي موسيقى ، الأول لفرقة البيتلز البريطانية ، والشريط الآخر هو لفريق بنك فلويد ، بعنوان الجدار ، استعار هذين الشريطين من المكتبة .

كان منير يرتدي قميصاً أزرق داكناً تتخلله خطوط بيض ، وبنطلوناً من الجينز المحكوك ، له شارب خفيف ، أما شعره فقد كان كثيفاً ، لونه مائل إلى الشقرة ، فيه تجعيدات كثيرة ، له

عـينان سـعـيـدتان على الدوام مبـتـسـمـتـان ، وفـي بنصـر يده اليسرى خاتم فضي .

الشيء الوحيد الذي يشي بأنه جندي هو إرهاق بشرته . أما عيسى فكان على نحو آخر . كان في الثالثة والعشرين من العمر . مع أنه كان متعباً مرهقاً ذلك اليوم ، ولا يشعر بأي نوع من الزهو . ذلك أنه سيلتحق إلى الجبهة بعد أيام ، أي سيترك المدينة الجميلة ، يترك الكتابة والشعر ، ولا يرى أمامه إلا احتمال الموت ، مع ذلك كان متحمساً ، فلم ينقطع عن الكلام عن الشعر دقيقة واحدة .

*

أخذ عيسى يقلب الكتاب بيده ، قبل أن يخرج لنا قصيدة كان قد كتبها الليلة الفائتة ، ووضعها في الكتاب ، بدأنا بقراءتها بافتتان . كان اليوم الخريفي هادئاً . الفضاء في المركز الثقافي كان فضاءً أوربياً ، وهذا ما يجعل عيسى ومنير مبتهجين .

الحرب بعيدة الآن ، إنها هناك على الحدود ، ونحن في إجازة ، ليست طويلة ولكننا لا نريد أن نفكر بانتهائها ، علينا أن نفكر بهذه اللحظة بالذات ، بالفضاء المشمس في الحديقة ، بالحروف الملونة في كل مكان ، إنها إعلانات عن حفلات الفرق الأجنبية القادمة إلى بغداد ، وقد ألصقت بوستراتها في كل مكان من هذا البناء الذي يحمل يافطة انكليزية :

فرقة شكسبير تقدم هاملت على مسرح الرشيد ، فرقة

الجاز في فندق المنصور ميليا ، أسبوع الأفلام الروسي على قاعة المسرح الوطني . . .

وهكذا علينا أن نجلس في هذا المكان بانتظار شيء مجهول ، نجلس ، ندخن ، نتحدث عن الشعر وننظر أجمل الفتيات في بغداد يدخلن المكان . فهذا المكان الراقي لا علاقة له بأجواء العنف التي تزداد حدتها لا في كتائب الجيش وفيالقه فقط ، ولا في جبهات الحرب فقط ، ولا في أروقة السلطة وزواريبها فقط ، إنما أخذت تتسع شيئاً فشيئاً لتشمل الشارع والسوق والبار والمقهى .

*

- أحضري لنا قوري الشاي! هذا ما يقوله منير إلى والدته أول ما يدخل المنزل . إلا أنه لا يشير إلى شيء تافه أو صغير ، ولكنه يشير إلى أهمية الأحداث التي سوف نناقشها . فالشعر بالنسبة له لا يستقيم إلا وقوري الشاي قربنا ، نشرب اليوم كله وندخن .

ولكن ما هذا التعلق بالشعر؟

هل يختص الأمر بمدينة بغداد التي تحولت من مدينة آسيوية في بداية القرن الماضي إلى مدينة على الطراز الأوربي ، إلا أن كل شيء كان فيها بالتجاور لا هذا يلغي ذاك ، ولا ذاك يلغي هذا .

كان صعود صدام حسين هو تقهقر بغداد من الناحية

السياسية ، لقد وصلت بغداد ذلك الوقت أعلى نقطة لها في القمع السياسي ، وفي القهر ، وفي الاستبداد ، وفي نهاية الحياة السياسية بالكلية .

كانت نوعاً من نهاية الفضاء العام الذي ينتج السياسة والثقافة والحياة . ولكن المفارقة أيضا أنها بلغت أعلى نقطة لها في مدنيتها في الثمانينيات ، كان التناقض بين حكم استبدادي توتاليتاري فظ وبين تطور مدني وحضري هو الذي أوصلنا إلى نوع من التناقض الفصامي إن جاز التعبير ، وأدى إلى تهدم الحياة المدنية في التسعينيات ، ذلك أن القهر السياسي لن يسمح لتطور حياة مدنية بالمرة .

ولكن كيف كانت بغداد من الناحية المدنية؟

وصلت بغداد ذلك الوقت قمة حداثتها واقترابها من الغرب ، ولكن لم يكن هذا الأمر عبر تطور اجتماعي طبيعي ، إنما كان تحدياً سياسياً يسير باتجاه معاكس لاتجاه إيران الإسلامية ، ومن جهة أخرى كان تدعيماً لحركة اجتماعية معادية للحركات السياسية الدينية في الداخل ، واستجابة لمتطلبات العلاقة مع الغرب . فعلى الرغم من الحرب مع إيران التي استمرت ثمانية أعوام من العام ١٩٨٠ ، إلا أن هذه الحرب كانت قائمة على الحدود فقط . كانت على الحدود ولا تصل الداخل بالمرة .

أما كيف كانت مدينة بغداد في الداخل ، فهذا الأمر بحاجة حقيقية إلى وقفة .

كانت بغداد مدينة جميلة ، أنوار هائلة في الشوارع الواسعة والحديثة ، عمارات ، مغازات ، أسواق كبيرة ، فضاءات بصرية فيها الكثير من المنحوتات والتماثيل ، وفي المركز شيدت مجالات تجارية واسعة ، وأصبحت بغداد تضم أكبر الأسواق ، وفيها أفضل صالة السينما ، وأكبر المسارح ، وهنالك فنادق حديثة وكبيرة ، وفيها من البارات ما يزيد على أي مدينة أخرى في الشرق الأوسط ، كانت الشوارع صاخبة حتى الصباح ، والأجانب يتجولون في كل مكان تقريباً ، إنهم أوربيون يعملون في بغداد من كل الجنسيات ، وتراهم في الملاهي ، في المراقص ، في الشوارع ، في الفنادق . وهنالك ملمح آخر جديد ، هو مشهد النساء في الشارع ، عراقيات وأوربيات ، عربيات وآسيويات ، لقد احتلت المرأة جزءاً مهماً من المشهد العام من شوارع بغداد في الثمانينات .

لقد تطورت المدينة بشكل لافت ، وبصورة مغربنة «ويسترنايزد» : أحياء فارهة من جهة النهر ، عمارات كبيرة ، بارات ، ملاه ، مراقص ديسكو ، فنادق فخمة ، مطاعم حديثة ، وكانت هنالك أحدث صالات السينما ، وأكبر المسارح في الشرق الأوسط ، وقد كانت الشوارع العريضة المقطعة بالأشجار العملاقة هي سمة الأحياء الحديثة ، وهنالك أيضاً منتزهات وحدائق جميلة ، وجسور معلقة ، أما المحلات في المنصور والكرادة فتجلب آخر صرعات الملابس من أوربا ، وكان الشباب يلاحقون آخر أغاني الهيتس في أوربا وأميركا ،

وملابس النساء على آخر فاشن ، وكان الحجاب شيئاً نادراً تقريباً . أما قصص الحب مع الأجنبيات ، فقد كانت أمراً شائعاً .

V
بعد الهاتف

بعد الهاتف أرسلت لي ليلى مفصلا بعملها ، قالت إن فكرتها تقوم على أن الظروف السياسية والاجتماعية المتشابهة تخلق شخصيات متشابهة ، ولكنها ركزت على قضية واحدة هي عيسى .

عيسى أينك يا عيسى لتسمع هذا الكلام . . . .؟ قلت في نفسي .

لقد سررت جداً برسالتها ، فرحت لعيسى ، حتى وإن كان عيسى لا يسمع ولن يسمع هذا الكلام وهو في قبره ، ففكرة الظروف المتشابهة وخلقها لعوالم متشابهة هي ما صنعت عيسى على غرار الكتاب الروس!

هذه الفقرة من رسالة ليلى جعلتني أفكر في الموضوع طويلاً ، أي بمعنى آخر ، هكذا كنت أفكر في هذا الأمر : يمكنك أن تجد في بغداد شاعراً يشبه شاعراً في بطرسبورغ أو باريس أو بكين أو الهند أو أفريقيا إذا توفرت الظروف المتشابهة ، وهذا ما كان يريده عيسى بطبيعة الأمر ، ولكن كنت أفكر بطريقة

أخرى أيضاً : هل يمكن أن نعثر في بطرسبورغ أو باريس أو بكين أو الهند على شخص مثل عيسى؟

*

الآن أذكر ذلك لعيسى وللجيل كله أيضاً . .كانت قراءة سير حياة هؤلاء الشعراء الغربيين ، وبكل ما يتعلق بأحداث حياتهم ، هي المهيمن الأساس على عقل الكثيرين منهم ، في البداية يتم تتبع السيرة من خلال مبدأ أن معرفة حياتهم تهيئه لمعرفة إبداعهم ، ولكن السيرة الساحرة ، والأحداث المغامرة ، وحياة التجارب الكبيرة للمجتمعات الغربية ، وما توفره من فرص أن تكون الحياة استثنائية ، هي التي سحرت طائفة كبيرة من الشباب وجعلتهم يقاومون بقوة أغلال مجتمعاتهم :

الفرار من الحرب ، أو النضال السياسي ، أو حركات الاحتجاج السلمية ، أو الإدمان على المخدرات ، أو التشرد والعيش في الحدائق ، والنوم على الطرقات ، وإدمان الكحول وصداقة العاهرات ، كانت هنالك لذة كبيرة ، وكان هنالك عذاب في الوقت ذاته ، فمن جهة كانت الحياة في الكتب متيسرة ومعقولة ، وأمر تمثلها وفهمها والتطابق معها سهل جداً ، ولكن هناك قوة اجتماعية مختلفة تهدم هذا التطابق وتلغيه . ولأحلامهم الكبيرة في الكتب جعلتهم غرباء عن المجتمع الذين يعيشون فيه ومنفيين عنه أيضاً . . هؤلاء كانوا غرباء حقيقيين . . غرباء عن المجتمع الذي عاشوا فيه ، وولدوا وتربوا فيه ، جعلتهم الكتب والأحلام التي تتضمنها منفيين

بالكامل ، لقد كانوا منفيين بحق وحقيقة ، كانوا مقطوعي الجذور . .

*

أقول ذلك ، وأنا أتذكر جيداً ما كانه عيسى . .عيسى بالذات . .كان المنفي الحقيقي بين كل أصدقائي ، كان يشعر باغتراب كبير وتقزز من مجتمع لا يمكنه أن يقدم له تجارب شبيهة بما يقدمه مجتمع بعيد لشعراء أعجب بهم ، قرأهم وتمثل حياتهم ، قرأهم وعرف كل شيء عنهم ، كان يشعر بأنهم يعيشون معه ، يتنفسهم ويحلم بهم ، ويعرف عنهم أكثر مما يعرف أي واحد آخر عنهم .

كان يحفظ تفاصيل دقيقة تتعلق بملابسهم وأكلهم وشربهم وعلاقاتهم . . لا يعرفها إلا مؤرخو سيرهم . .كان يحفظها ويعتني بها اعتناء مبالغاً به . . كان يحدثني بتفاصيل دقيقة أشك أن أحداً يعرفها غيره ، تفاصيل تتعلق بأشياء حميمة بحياة الكتاب الغربيين حتى اختلط علي الأمر إن كانت هذه المعلومات قد أخذها من سيرهم حقيقة ، أم اخترعها هو . .

مرة في بغداد ، كنا جالسين في مقهى شعبي ، ولا أكثر من شعبيته ، في زاوية مظلمة وصغيرة في منطقة الحيدرخانة المزدحمة القريبة من الشورجة ، أكبر وأقدم سوق شعبي في بغداد ، وعلى صيحات باعة البسطيات وباعة الأباريق والعدد اليدوية ، وباغة العلب والطناجر ، وعلى صوت السابلة المختلطة

ببعضها ، كان عيسى يحدثني بصورة تفصيلية كيف التقى الكاتب الألماني إلياس كانيتي بالروائية البريطانية إيريس مردوخ أول مرة في لندن . في أية بقعة التقاها في محطة القطار ، وكم كانت الساعة ذلك الوقت ، وماذا كانا يلبسان ذلك اليوم ، وكم درجة حرارة لندن تلك الساعة ، وبعد ذلك كيف أخذته إلى شقتها ، أين جلسا ، ماذا قالا ، وكيف تضاجعا . . . حدثني وكأنه كان معهم في الحجرة . .

مرة كنا عائدين من الجبهة ، أيام كنا جنديين في جبهة الحرب مع إيران ، في ظهيرة يوم من أيام تموز الساخنة ، وكانت الحرارة تصل إلى الدرجة الأربعين ، أو أكثر ، والشمس الساطعة القادمة من زجاجة الباص تلفح وجهينا بحدة ، وهو يدخن سيجارة محلية رائحتها خانقة ، وينتل الرماد بإصبعه من النافذة المفتوحة ، وتيار الهواء العنيف يطيره أحياناً على وجهي ، وعلى أصوات الجنود العالية وهم يتحدثون عن الهجوم أو عن الإجازات ، وعلى صوت محرك السيارة الصاخب ، كان يحدثني بلهجته الأدائية عن حوارات دارت بين امرأة الشاعر توماس إليوت والفيلسوف برتراند رسل حتى يجعلني أفطس من الضحك . . فهو يعطي للمشهد طابعاً محلياً ، يقول لي مثلاً :

- دخل توماس الحجرة (يقصد اليوت) ، وكانت يده في جيبه تلعب بالخردة -النقود المعدنية- ، عادة عراقية شائعة ، أو شرقية ربما ، حيث يضع العراقيون أيديهم بجيوبهم ويخشخون

بالعملة الحديدية ، لقد كان عيسى يجعل للمشهد الأوربي على الدوام في كلامه وحديثه طابعاً محلياً ، يقول لي مثلاً :

قالت إلزابيث لتوماس (يقصد إليوت) : والمسيح هو برتاند (يقصد برتراند رسل) اللي تحرش بي . . وأنا صدقني . . والمسيح . . ما اعطيته وجه . .

طبعاً لو عدنا إلى سير حياة هؤلاء الكتاب نجد أن هذه اللقاءات قد حدثت فعلاً ، ولكنه يضيف إليها تفاصيل جديدة ، بعضها محلي ، وبعضها خيالي ، وتلميحات تضيف للمشهد نكهة جميلة ، وعذبة ، ومشوقة ، أكبر كتاب السير في العالم لا تخطر في بالهم . .

إنه يجعل للمشهد وقائعيات وتفصيلات دقيقة جداً ، يجعله حاضراً وكأنه حدث الآن ، لا قبل عشرات السنين . . حدث الآن وفي بغداد لا في مدن بعيدة عنك في لندن أو برلين أو بطرسبورغ . . أو غيرها . . فالجغرافيا تضيع . . الهويات تختلط مع بعضها . . أوربا البعيدة والطائرة بهويتها تتقهقر . . تُجرُّ جَرّاً إلى هذه المدينة الشرقية الفقيرة ، إلى بغداد التي تضع قدماً راجفة على الخط ، كلما أسمع عيسى يتحدث أشعر بأن أوربا الصامدة التي تنتصب على حدودها تسحب سحباً إلى شارع الرشيد أو إلى باص من باصات الميدان . . أوربا التي تحلم بذاتها بشكل يبعث على الدوار يمكن حضورها بصورة واقعية وبسيطة على جلسة في مقهى ، على صوت النارجيلة أو على صوت طق الدومينو على الطاولة . . أوربا تصبح أوربا أخرى . .

تتحول إلى أوربا بنكهة محلية بغدادية ، تتحول أوربا الآخر إلى أوربا الأنا ، أورباي كما كان عيسى يقول طبقاً إلى محاولات وتخطيطات محلية . .

وكان سؤالي على الدوام وبعد كل لقاء مع عيسى :

إن لم تكن أوربا توجد حيث يوجد الأوربيون فهل توجد حيث يوجد غير الأوربيين؟

هل هي سراب ، فخ ، خدعة أخرى من خدع جيرار ميركاتور في القرن السادس عشر ، حين وضع طريقة تقسيم الأرض حسب خطوط الطول والعرض ، ووضع أوربا في المقياس فوق خط العرض ٤٠ ، ولن تكون أوربا إذن سوى إسقاط خرائطي؟

ماذا يقول عيسى عن ذلك . . ماذا يصنع عيسى المسجون تحت خط العرض أربعين . .

قالت لي ليلى في إحدى رسائلها مرة :

ربما مشكلتنا نحن في بغداد هي التقليد الأعمى ، فتاريخنا الحديث هو تاريخ قراءة وإساءة قراءة أكثر مما هو تاريخ تجربة ، الإسلاميون قرءوا كتب التاريخ القديمة ، قرءوا الأحداث التاريخية وكأنها حدثت اليوم :

- إن الناس في بلادي تبكي على بعض الشخصيات التاريخية وقد قتلت منذ ألف وأربعمائة عام ، وكأنهم قتلوا منذ ساعة .

لا شيء يفصلنا عن التاريخ مطلقاً ، كلنا . فالمشايخ في

الجوامع قرءوا كتب التاريخ الضخمة وأرادوا تطبيقها كما هي ، والمثقفون المعاصرون قرءوا ثقافة أوربا ، وأرادوا تطبيقها كما هي ، إنهم يعيشونها وكأنها حاضرة في دمهم وروحهم ، وبدلاً من أن يفرز الواقع الأفكار ، أصبحت الأفكار هي التي تريد خلق الواقع . ولذلك فقدنا البوصلة . . وهكذا كان عيسى . .

أضحك أحياناً وأنا أتذكره . . أضحك بقوة . . وأنا أعيد تفاصيل رأسه الذي يشبه البطاطا ، وأنفه الكبير جداً والمحدب من الوسط ، ورأسه المدور . . وصوته المتحشرج الذي أراده أن يكون أشبه بصوت نبي . .

VI

حينما ينظر الجنود الشعراء قتلى آخرين عند سفح الجبل

تعرفت على عيسى في الجيش ، في الأيام الأولى لخدمتي في فوج المغاوير التاسع عشر ، إبان الحرب العراقية الإيرانية ، حيث نقلت من القطعات العسكرية في الجنوب إلى القطعات المرابطة عند الجبهة في الشمال ، بسبب توقع هجوم إيراني من جبل كردمند المواجه للسلسلة الجبلية الشرقية الإيرانية هذه المرة . وفي اليوم الذي وصلت فيه بدأ الهجوم الإيراني من جهة غير متوقعة . . .

- يا للحظ النكد . .

كان وصولي إلى سفح كردمند في ضحى يوم من أيام ربيع العام ١٩٨٧ ؛ إذ أقلتنا سيارة زيل عسكرية من معسكر داخل السليمانية وانطلقت بنا نحو الجبل ، كنا عشرة جنود مع السائق ونائب ضابط يجلس في المقدمة ، بينما جلسنا نحن في حوض السيارة الخلفي ، وكان عيسى الذي أصبح فيما بعد صديقي يجلس قبالتي ، ومن النظرة الأولى شعرت بأنه متميز جداً عن الآخرين :

ملابسه العسكرية واسعة عليه ، ونظارته الطبية سميكة نوعاً ما ، وفي يديه كتاب يقرأ به ولم ينظر إلى ما يحيط به مطلقاً ، أما أنا فقد كنت منسحراً بالخلوات على الطريق وأنا أراها وهي تمتص ضجيج وصخب الأرتال العسكرية المتقدمة ، فثمة حشود للجنود على طول الطريق تصطف عند الأعشاب الكثة ، وأثناء صعودنا الجبل انبسط أمامنا قوس أخضر يحاذي القمة ، خرجت منه أسراب من طيور السمان وهي تحط وترتفع متموجة فوق منحدر معشب ، شأنها شأن بخار خفيف ، يفسح المجال لسقوط أشعة كبيرة من الشمس ، ومن بين شبكات التمويه كنا نرى المدفعية حيث يتوهج معدنها الصلب تحت شعاع الشمس الذهبية الساقطة عليها .

*

كانت السيارة الزيل تتقدم ببطء شديد وهي تقلنا إلى أعلى ، ومن النافذة كنت أنظر أشجار الصنوبر الوارفة الخضرة تنبثق من بين الصخور الرمادية ، وهنالك الغيطان الواطئة تنبسط أمام شلالات مياه بيضاء ساقطة من بين الشعاب ، وكلما كانت سيارة الزيل تتقدم بي ، كنت أشعر بالطبيعة وهي تتخللني بشكل مدهش .

ربما شعور الموت هو الذي جعلني أشعر بأن هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها هذه الطبيعة الجميلة الخرساء ، فأخذت أذوب في هذه المشاهد مثل قطعة من السكر وأنا في مكاني ، ومن وقت إلى وقت كنت أستمع إلى صوت المدفعية وهي تهدر

من بعيد ، في البداية توقعت بأنها مدفعيتنا ، ولكن كلما كنت أقترب نحو القمة التي كنا نصعد نحوها بشارع معبد متلوّ ، كانت تتكشف لي الحقيقة ؛ إذ أخذت القمّة الأخرى وهي أعلى من تلك التي كنا نصعدها ، تنبسط سفوحها أمامنا ، وهي الأقرب إلى إيران ، وفي اللفة الأخيرة أصبحت سفوح المرتفع الثاني ساحة حرب مكشوفة كلها أمامنا .

*

كانت سيارتنا الزيل تتقدم على الطريق ، وأمامنا العديد من الأرتال العسكرية الهابطة كتعزيزات إلى القمة الأخرى ، وهنالك حشود كبيرة من الجنود الذين يهبطون بآلياتهم العسكرية وأسلحتهم ، متوجهين إلى جسر حديدي يربط بين القمتين ، أي بمعنى آخر إنهم يذهبون إلى القمة الأخرى .

هل أخطأنا الطريق؟

فجأة أصبحنا أمام قوات من الحرس الجمهوري ، وهي الفرقة الذهبية التي كانت ترتبط مباشرة بصدام حسين ، ولا تستخدم هذه الفرقة في المعارك العادية إنما في المعارك الخطرة جداً ، ولا تدخل في القتال إلا لحسم مواقف عسكرية صعبة .

وما إن وصلنا إلى يمين الجسر الحديدي حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام العديد من جنود هذه الفرقة ، كانوا يحملون أسلحة مختلفة ، بنادقهم قصيرة وحرباتها وأنصالها مشكوكة فيها ، هذا يعني أنهم كانوا في معركة بالسلاح الأبيض ، وما إن ترجلنا من السيارة الزيل حتى رأينا على حافة السفح جثثاً لا عد لها

من الجنود الإيرانيين ، بعضها كان معلقاً على أسلاك شبكات الألغام ، وكان الآخر ساقطاً في الوادي ، وبعضها مكوماً على الطريق وما زال الدخان يتصاعد منها .

كانت سيارتنا هي النشاز الوحيد في صعودها إلى الجبل ، ذلك أنها فاتت السيطرة قبل اندلاع الهجوم ، وقد صعدت بينما جاءت الأوامر إلى سيارات الأعتدة والتموين بالتوقف ريثما ينجلي وضع المعركة ، فكان وصولنا مفاجئاً لقوات الحرس الداخلة تواً إلى المعركة ، كان جنودها المتميزون بملابسهم المرقطة وشاراتهم الحمر على نقطة الجسر يشيرون ببنادقهم نحونا ويصرخون : «قف . . لا تتحرك . . قف . .» .

*

رفعت رأسي من أعلى الزيل فرأيت جنود الحرس :

يصرخون ، يصيحون ، بنادق ، حراب ، خوذ حديدية عليها شبكات تمويه ، وجوه غاضبة ، متعرقة ، ساخطة ، شيء من الغضب ، شيء من الاحتقار ، شيء غير مفهوم بالنسبة لنا ، نزل السائق وقال لهم إننا ملتحقون إلى فصيل المغاوير!

قالوا له إنه أبيد تماماً في المعركة!

أشاروا لنا إلى طريق آخر للالتحاق مباشرة بآمرية المعسكر ، وجعلونا ننحدر قليلاً ثم صعدنا مرة أخرى نحو القمة ، وفي صعودنا انكشفت لنا ساحة المعركة :

كان القتال في كل مكان ، القرى في الطريق كانت تحترق ، العائلات تحمل صرارها وتبحث عن ملجأ لها بسبب

غارات الطائرات ، حشود من الأكراد هاربة ، باحثة عن مكان آمن خلف الأشجار الخضر ، الخيول والبغال الميتة وهي تحمل جليكانات الماء ممدة في الطرقات ، حشود من الجنود يختفون في الغبار وشعب الجبال الصاعدة ، يحملون أسلحتهم ويتقدمون .

– لماذا هم يصعدون إلى أعلى؟

– لا بد أن الإنزال الإيراني من الجهة الأخرى من الجبل .

يحنون رؤوسهم ، يحضنون أسلحتهم ، يتقدمون إلى أمام ، خوذهم الثقيلة على رؤوسهم ، ولا يظهر بين الأحراش سوى هوائي التومسن النحيف والطويل والذي يهتز من على ظهر جندي المخابرة .

العديد من الجنود القتلى يتساقطون من أعلى ويتدحرجون إلى أسفل . العديد منهم يتقدمون ويحتمون خلف الصخور ، العديد منهم يسقطون ممزقين بالرصاص أو بشظايا المدفعية ثم يتأرجحون فوق الأشجار ، العديد من الحجارة كانت تتشظى في الفضاء بسبب القنابل التي تستهدفهم ، العديد من الجنود كانوا يختفون بلمح البصر خلف الغبار والدخان والحرائق ، بعضهم يمشي ، بعضهم يركض ، بعضهم يتعلق بسيارات أخرى تتبعهم على الطريق المعبد ، ثم تصيبها قنبلة فتتطاير أشلاؤهم في الهواء ، بعد ذلك أخذت المدفعية من جهتنا تجيب على مدفعية الإيرانيين التي تستهدف جنودنا الذين يصدون الهجوم .

أخذت سيارتنا الزيل تهبط بثبات هذه المرة ، بينما كنا ننظر إلى القمة المقابلة حيث كان الهجوم الإيراني على أشده ، الأشجار الخضر الوارفة ، شلالات الماء التي تتساقط إلى أسفل ، زهور الربيع المتفتحة ، الشمس الذهبية الساطعة ، كلها كانت تشكل مشهداً يتناقض كلياً مع مشهد المعركة .

*

كل هذه الفوضى الكونية التي كانت تحيط بنا ، كل حمام الدم على الصخور ، كل هذا القتال الشرس ، والذي لم يهدأ لحظة واحدة ، كل هذا الرعب والسخط المرتسم على الوجوه ، كل بيارق الحرس الجمهوري الحمر على المصفحات ، كل هذه الجثث المتدحرجة على الصخور ، وعيسى الجندي بملابسه الكاكية الواسعة عليه ، ونظارته الطبية السميكة ، ما زال يقرأ بكتاب جنائن اصطناعية لشاعر فرنسي اسمه (بودلير) قد مات قبل قرن تقريباً . . . في باريس!

VII

حينما لا يعيش الجنود إلا في جنائن اصطناعية

التحقنا أنا وعيسى في فوج واحد بديل عن فوجنا المباد ، ولم نلحق بالمشاركة في المعركة ، فقد كانت على نهايتها ، وبعد خمسة أيام كنا عدنا مع فوجنا الجديد إلى أسفل السفح ، تحت مظلة كبيرة من أشجار الصنوبر حيث كانت هنالك مواضعنا ، وعلى مقربة منا أشجار جوز وارفة وشلال ماء ، وكان عيسى يجلس على الدوام على صخرة قريبة من الموضع ، ويقرأ بكتابه جنائن اصطناعية ، ولم يكن سهلاً على أحد إخراجه من عالمه هذا سوى الأوامر العسكرية ، والتي كان يهرع لتنفيذها ، ثم يعود إلى كتابه بشدة .

*

تلك الأيام كنت اقتربت من عيسى كثيراً ، وأخذت أتحدث معه على الدوام ، ومن وقت إلى وقت كنت أذهب للجلوس قريباً منه ، إما أن أقرأ بكتاب بيدي ، أو أتحدث معه ، وقد كان يقرأ في الجبهة أكثر مما يتحدث ، على العكس من أيام الإجازة التي كان يتحدث خلالها على الدوام ، وبالرغم من أنه

يحمل الكتب معه-أيام الإجازة- أينما يذهب ، ولكن من النادر أن يقرأ بها ، إنما كان يحملها للمظهر فقط .

مرة كنت اقتربت منه ، كان يجلس على الصخرة ذاتها . يمسك كتابه الذي يقرأ به بالفرنسية ويضع في حضنه القاموس ، وكلما استعصت عليه كلمة يعود إلى القاموس ثم يؤشر في الكتاب عليها بقلم الرصاص . وفي الواقع لم يكن عيسى يعود إلى القاموس كثيراً ، ولكنه كان مستغرقاً بشكل فعلي في القراءة .

لم يكن عيسى يقرأ بالفرنسية فقط إنما بالألمانية والإنكليزية أيضاً ، لقد علم نفسه هذه اللغات كي يقرأ أدبها ، تعلمها على القاموس ، وكنت أعجبت بهذا الأمر جداً ، ولكني اكتشفت في يوم من الأيام وبالمصادفة أن عيسى لا يستطيع لفظ كلمة واحدة مما يقرأ ، أي بمعنى آخر أنه يعرف معاني الكلمات ، ولكنه لا يعرف أصواتها ولا كيفية لفظها مطلقاً ، لقد تعلم هذه اللغات الأوربية ككتابة ، كحروف ، كرسوم ، لا أصوات ولا ألفاظ ولا تنغيم ولا بطيخ ، يعرف قراءة الحروف المكتوبة ويستدل على معانيها بالقواميس حتى حفظها ، ولكن لو قلت له مثلاً إلفظ لي هذه الكلمة ، فإنه سيتلعثم ، سيضطرب ثم ينظر لك مبتسماً ليقول لك إنه لا يعرف كيف تلفظ مطلقاً ؛ لأنه لم يسمعها .

حين عرفت هذه الحقيقة منه ، انفجرت ضحكاً ، لقد جلست على الأرض من الضحك ، هل يمكن أن يكون هذا؟

إنه شيءٌ جنونيٌ حقاً ، هذا الذي يقرأ أمهات الأدب الغربي وبثلاث لغات لا يستطيع لفظ كلمة واحدة مما يقرأ ، كانت عيونه هي التي تقرأ ، كانتا تتحركان بسرعة على الورق ، كان يفهم كل شيء ، ويترجم أي شيء يصادفه ويحوله بذهنه إلى العربية ، ولكنه لا يستطيع لفظ كلمة واحدة ، كنت أضحك وأضحك ، وعيناي مغرورقتان بالدموع بينما بقي عيسى متسمراً ينظر إلي باستعلاء شديد ، ولم يرد علي ولا بكلمة واحدة .

*

بقينا-عيسى وأنا- في فوج المغاوير السابع عشر ستة أشهر أخرى ، من منتصف الربيع إلى منتصف الخريف ، ومع أن عيسى نقل بعدها إلى قواطع الجنوب ، بعد أن اندلعت معارك شرق البصرة ، إلا أننا لم نفترق كلياً حتى بعد انتقاله ، فقد نسقنا إجازاتنا لتكون متوافقة ، وهكذا كنا على الدوام على اتصال ولم ننقطع مطلقاً ، ولا سيما بعد أن التحق منير بالفوج ذاته .

أما خلال الفترة التي كنا فيها في فوج واحد وفصيل واحد ، كانت إجازاتنا العسكرية في توقيت واحد أيضاً ، وهكذا أمضينا أكثر أيام إجازاتنا العسكرية في بغداد معاً ، حيث كنا نتردد في ذلك الوقت على المقهى البرازيلية الكائنة في شارع الرشيد ، وكنا نجلس على الدوام عند طاولة صغيرة على مقربة من الباب الزجاجي ذي الدرفتين ، نمضي نهارات أسبوع الإجازة كله تقريباً في المكان ذاته ، أو في منزل منير الذي عرفته أنا إليه .

VIII
عيسى الشاعر أيام الحرب والإجازة

لم يكن عيسى يهتم بشؤون الحياة أو أخبار الحرب أبداً ، كان منقطعاً عن الحياة وكأنه يعيش في عالم آخر غير العالم الذي كنا مكبلين به ، كان ينظر العالم عبر استعارة كبيرة ، استعارة اللغة والكناية والمجاز ، كان العالم نسبة له ليس حقيقة إنما هو مجاز لعالم آخر ، والحياة استعارة عن جمال بعيد ، والحرب كناية عن القسوة والعنف ، فالعالم المحيط بنا هو قسوة مفرطة تعبر عن نفسها عبر الصراع ، هكذا كان عيسى .

*

أيام الإجازة كنا معاً على الدوام ، في الصباح نلتقي في المقهى ثم نذهب بعدها إلى منزل منير .

وكان أكثر الوقت يتحدث عن الشعر ، يتحدث بصوته الأجش عن الأدب بلغة محورة ، لغة يشدد فيها على مخارج الأصوات لتصبح أقرب ما تكون للشعر ، يتحدث وعيناه تتحركان ، ترقبان السابلة الذين يمرون على الرصيف أمام زجاجة المقهى ، وصوته الغريب كأنه قادم من مغارة عميقة ، يشرب الشاي ببطء كأنه يمثل دور النبي في فيلم أميركي ، ويهز

بوجهه الغريب المتجهم ، وهو يحدق بالداخلين والخارجين إلى المقهى وكأنه يبتلعهم بعينيه السوداويين الغائمتين تحت نظارته السميكة .

أتذكر كلماته كما لو أنه لفظها للتو ، فكثيراً ما كان عيسى يطلق جملاً غريبة وتصريحات غير مألوفة ، سواء أكانت عن حياته أم عن حياة الآخرين ، فصوته الجهوري الفصيح القادم من الطاولة القريبة من باب المقهى ، يجذب الناس ، فينظرون إلى هذا الشخص الذي يرتدي ملابس غريبة اشتهر بها ، وعلى الطاولة الخشبية النظيفة ذات الصفحة الفورميكة التي أمامه ، ينشر أدواته بعناية بالغة :

هنالك الصحيفة أو الكتاب ، كوب شايه ، وسيجارته في المنفضة ، يحملها بإصبعيه إلى فمه ، يسحبها ببطء ، يطلق الدخان ، ثم يعيدها إلى طرف المنفضة .

ما يلفت الانتباه ذلك الوقت أيضاً هي الكتب التي كان يحملها معه أينما يذهب ، ويضعها بشكل مكشوف على الطاولة ، وقد كان مولعاً بسلسلة تختص بسير حياة الكتاب والشعراء الغربيين ، طبعتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ، تحت اسم سلسلة أعلام الفكر الغربي ، فسير حياة هؤلاء الكتاب الغربيين ، ولا سيما الشعراء منهم ، هي أكثر ما كان يقرأه عيسى ، أما تقليد هذه الحياة التي كان يقرأها فقد كانت تصل به إلى حد التطابق الساخر- ومن الكتاب الذين كان معجباً بهم أيضاً هو كاتب إنكليزي شعبي ، اسمه كولن

ويلسن (وربما كانت شعبيته في بغداد دون مبالغة أكثر من شعبيته في لندن) وكانت كتبه المترجمة مسئولة مسؤولية كاملة عن ضياع وجنون وفقدان عقل الكثيرين ، ولا سيما كتابه اللامنتمي ، الذي أشك أنه فلت من قراءته أي واحد من أصدقائي .

*

لقد فارق عيسى أهله ، ليكون شاعراً على طراز الشعراء الذين كان يقرأ سيرهم ، واستأجر لنفسه شقة في شارع الرشيد يعيش فيها وحده ، أو بالأحرى ليعيش فيها تجاربه الشعرية وكتاباته وقراءاته ، كما كان يقول أو يعلن لأصدقائه ، فالشاعر بحاجة إلى تجربة ، إلى تجريب ، لا في اللغة وحسب إنما في الحياة أيضاً ، ولذلك عليه أن يعيش وحيداً ، فريداً ، منعزلاً ، مستقلاً .

كان عيسى يفكر على النحو التالي :

من يريد أن يكون شاعراً ويريد أن يعيش مع الشعر ، فعليه أن يغادر المركز ويعيش على الطارئ والدرامي والمتحرك ، فالقصيدة لا تصنعها إلا حياة الوحدة والحياة في الشارع ، إذن من يريد أن يكون شاعرا كبيراً لا بد أن يعيش وحيداً متفرداً ، لا بد أن يكون مستقلاً عن كل ما يدور حوله ، وأن يعيش متناغماً مع الحقائق المتنافرة ، ولا توجد هذه الحقائق المتنافرة التي لا يوحدها أي يقين ميتافيزيقي إلا في الشارع .

إذن هذه الشقة ، طبقاً لأفكار عيسى هي التي تحمل ضمير

الشارع ونكهته ، فهنالك العاهرة ، والشرطي ، وشيخ الجامع ، والصبي الشارد ، والقتلة ، والفرارية ، وهنالك الأبطال ، أبطال الشارع الذين لأسمائهم رنة تشبه رنة النقود المعدنية . إذن عليه أن يعيش في هذا المكان القذر والكريه ، يعيش حراً جامحاً متعطشاً للمغامرة ، ولا تكون هذه المغامرة إلا في هذه الأماكن الكريهة المهملة ، وهي أفضل من عيشه في أعظم من منزل في بغداد ، ذلك أن أعظم المنازل في بغداد لا تضاهي نبل هذا الشارع القذر ولا بهاءه ولا فخامته .

*

كنت زرته مرات عديدة في هذه الشقة-حجرة واحدة ، لا أعرف لماذا يسميها شقة-وقد كانت في واقع الأمر مكركبة بعضها على بعض . أكداس الكتب المرمية في كل مكان ، المجلات والصحف على الأريكة ، القناني الفارغة موضوعة تحت السرير ، أما الملابس فقد كانت مرمية بصورة عشوائية هنا وهناك ، شقة تحمل كل التناقضات ، تحمل في واقع الأمر كل الحقائق المتنافرة ، وكان عيسى يقول :

«من لا يعيش هذه الحقائق المتنافرة ، من لا يعيش تناقض الأفكار في عراء الشارع فهو زائف حتماً .»

وإلى اليوم لا تفارق ذاكرتي صورته في هذه الحجرة الغريبة ، كي لا أقول القذرة :

كنت صعدت السلم الضيق ، درجاته لزقة ، وهو مظلم وملتوٍ ، دفعت الباب ودخلت ، وجدت عيسى متمدداً على

الأريكة شبه المحطمة ، ومن خلال زجاج النوافذ كانت الشمس تلقي على الأرض خيطاً من أشعتها ، شعاع ذهبي يتكسر على زوايا قطع الأثاث ، ويتراقص على الأرضية . . كانت هناك نحلة تتسلق كوب الشاي شبه الفارغ الموضوع على طاولة قريبة ، وترسل طنيناً وهي تغرق في بقايا الشاي . . كان رأس عيسى محنياً على كتابه . . .

جلست أمامه ، كان مستغرقاً بقراءة سيرة أحد الشعراء ، «بافيزة الشاعر الإيطالي المنتحر على ما أتذكر» ، عيناه ذائبتان في القراءة ، وفمه مشغول بحرق سيجارة من صنع محلي ، ويداه تمسكان الكتاب وعيناه شاردتان تماماً ، لقد كان مخدراً بشكل فعلي ، كان ذائباً تماماً ، هذا الذي لا تراه الناس إلا جندياً مسكيناً ، مشروعاً للموت في الجبهة ، كان شارداً كلياً عن كل ما يحيط به ، كان ينكر حياته التي تتعرف فيها الناس عليه ، كان ينكر حياته طالما لا تشبه حياة بودلير أو إليوت أو بافيزة . . وما لا أدري من الشعراء الغربيين الذين تأثر بهم . .

كان ينكر حياته الشخصية بصورة مريعة ، ويتخذ لنفسه حياة أخرى ، حياة كتاب آخرين ، ويدعي أشياء لم يصنعها في حياته ، إنما اتخذها لنفسه من خلال قراءة سير هؤلاء الكتاب ، وكان يعتقد أنه يستحق أن يستحوذ على حياتهم وتجاربهم وينسبها لنفسه ، طالما هو يقرأ سيرهم ، فطالما هو يقرأهم إذن لا بد له أن لا يتشبه بهم فقط إنما أن يمتص كل تجاربهم .

هل كان محقاً في هذا الأمر؟

الواقع ، كان عيسى يعتقد أنه كشاعر لا يقل أهمية عن الشعراء الأوربيين الذين قرأهم . . لا يقل أهمية عن الشعراء الذين تأثر بهم وأعجب بهم ، ولكن المشكلة أنه حينما قرأ شعرهم ، وعرف حياتهم ، وكتبهم ، وحفظ تفاصيل حياتهم . . اختلطت عليه هوياتهم ، وجغرافياتهم ، وأديانهم ، وأوطانهم . . ولم يعد يقارن نفسه بأي واحد منا ، لقد تجاوزنا ، طار وحده نحو جغرافيات غير محددة ، وأوطان أخرى ، وممالك ليس فيها شرطة ولا جوازات مرور ولا ثقافات أو أعراق مختلفة ، صار في مقبرة الشعراء العالميين حيث القبور منظمة والأكاليل لا تذبل أبداً ، حيث الأجساد فولاذية والعيون نارية ، فصار يقارن نفسه بهؤلاء الشعراء ، بهؤلاء الأساطير الكونية ، ولا يقارن نفسه بنا ، نحن الشعراء المحليين :

كنت جلست أمامه ، وجهه يتصبب عرقاً ، وعيناه ذائبتان ، صمت قليلاً وهو ينظر إلي ، ثم قال لي بصوت خفيض ومرتبك :

أنا أتساءل ، أتساءل فقط ، هل يمكن لنا أن نكون شعراء عالميين ونحن هنا في بغداد ولا نعيش في أوربا؟

عرفت ما يدور في نفسه ، عرفت ذلك وابتسمت له ، دون أن أجيبه بشيء ، لم يكن لدي ما يمكنني أن أجيب به . وقد كنت أعرف مثلما هو يعرف ، أو هذا ما يعرفه كل أبناء جيلي ، أن أوربا هي مقياس العالمية . . بمقدار ما هي محلية ومسجونة في هويتها ، هي عالمية . . وكونية . . ولكن هل توقفت الغرفة عن الإلهام؟

هل توقف هذا الشارع في بغداد عن أن يكون هذه الأيدي السوداء المُلطّخة بالموت التي حلم بها؟ هل توقفت بغداد عن أن تكون الشارع الذي حلم به شاعر في أوربا ، والليل والجسر لدى شاعر آخر في مكان آخر وفي عصر آخر؟

هل توقفت السماء عن أن تكون السماء التي ألهبت هذا الشاعر الذي يقرأ عيسى الآن عن حياته؟

ماذا عن العيون المتقرّحة التي تلتهبُ من قلة النوم ، وهذه الحيطان التي لم يمسها زهر في يوم من الأيام ، وهذا الدَرَج الذي ينهار في ضباب الدخان ، وهذه الفئران التي تعدو عبر السقف ، والوسخ المُسمَّر على الباب ، والصراصير الزاحفة ، وآلاف الأرجل التي تسمع من الشارع كحبّات المسبحة؟

قرأ عيسى لي قصيدة . . قصيدة كتبها في الليلة الفائتة ، ومن لغتها عرفت أنه متأثر بالكتاب أو بمجموعة القصائد التي ترجمها لنا منير عن الروسية ، في منتصف القراءة توقف . . صفن قليلاً . . ثم سألني هل تهم هذه القصيدة رجلاً يعيش في عمارة كبيرة في ضاحية من ضواحي باريس؟ أو نيويورك ، أو برلين ، هل يمكنهم أن يتأثروا بنا مثلما نحن نتأثر بهم . .

*

إن السؤال الجوهري ، الذي كان عيسى يطرحه علينا ، وهو السؤال ذاته الذي سأله كل أبناء جيلي سواء بصورة صريحة أو بصورة مداورة :

هل يمكنني أن أكون شاعراً مثل أي شاعر في أوربا أو أميركا؟

لم يكن عيسى متأكداً من هذا الأمر، طالما هو يقرأ سير الكتاب والشعراء الغربيين وحياتهم، حيث يظهرون له مثل ملائكة في الظلام، هم وتجديفاتهم وشتائمهم ولعناتهم، يظهرون له مثل أشباح سعيدة، أشباح تتكلم، لا تمحو أصواتها صرخات رياح الليل، ولا لعنات رجال الدين ذوي الأرجل الدوديّة، ولا تغيبهم توابيت موتهم، إنهم هكذا بيض، شقر، واضحون، مثل أعمدة معبد، لا خطابات الحزب التي تتلوها الشفاه الشمعية الباردة تمحوهم، ولا العيون الميتة والجفون القاسية من الضباط يمكنها أن تراقبهم.

كيف يمكنه أن يعيش شاعراً عالمياً وهو في بغداد، وهو لا يعدو أن يكون ابناً لسكير ولأم تبيع على البسطة، وفي غرفة مؤجرة في ضاحية فقيرة مثل الضاحية التي يقطن فيها، وفي مدينة مثل مدينة بغداد؟ كيف يتحول من كائن محلي إلى كائن عالمي؟

*

الواقع كان عيسى يعير أهمية لهذه الأشياء أكثر من أي أمر آخر، كان يشعر أن سيرة حياته، لا تتطابق مع سيرة حياة شاعر عالمي، كان يشعر بأن روحه أقوى وأكبر من المعطيات الممنوحة له في الحياة الواقعية، هذه الحياة التي يعيشها لم تكن سوى مستنقع، مستنقع كبير يبتلع كل شيء ويجره إلى

قذارته الأبدية ، بينما روحه تتسامى مثل فكرة ، روح عابرة للمنازل والشوارع والبيوت والسجون ومصحات المجانين ، فسيرته كابوس أنتجها العجز الأعظم للغالبية العظمى ، بينما روحه مفردة وسط أكبر مهرجان صاخب من التفاهات العالمثالثية والرعب والمهزلة .

أقول له ، دون أن أصدق ذلك في داخلي ، يا عيسى هنا عمارات كثيرات . . ما فرقها عن أوربا . . أشير له بإصبعي إلى منازل مشيدة على الشارع ، وأصرخ : المنزل الذي تقطنه من طبقة واحدة أو طبقتين لا يهم . . هنا أيضاً حدائق لا تغيب عنها الأزهار ، هنا أشجار الليمون ، ونخل ، وجهنمية ، وعشب ؛ وشرفات تتسلقها أزهار العسل واللبلاب ، وأمام الباب أراجيح هزازة ، تجلس عليها الصبايا بانتظار حلول الليل ، وهن يثرثرن عن شباب المحلة هذا وذاك ، ويغرين الشباب وهن يستنشقن أريج الياسمين .

يتلفت حوله ، لا يجد أي شيء من هذا ، أو لا يرى ، أو لا يصدق أو لا يريد . .

وكل هذه الأشياء مختلفة ومتناقضة في ثقافة وتفكير عيسى ، فهو لا يعتبر هذه المدينة مثل أي حي فقير في روما أو باريس أو لندن . . إنه لا يرى سوى مدينة عفنة لا تشبه إلا صدف السمك الميت ، إنها قفص ، لا نجوم ولا غيوم ولا سلالم ، مدينة بلا رجال أو نساء ، إنهم ليسوا بشراً ، إنهم حيوانات مفترسة بأذناب ومخالب ، كلماتهم نوع من الهجاء ،

كلمات جارحة ، حروف حلقية متفجرة ، عربية أشبه بانفجار الحديد والبرمنغنات ، حياته هنا لا تعادل أن تكون قفصاً ، وهو يدور على قرع الطبول ، بينما هنالك شخص واحد في الأعلى ، دكتاتور بلا أسنان ، إنه قائد ، مخرج يقف أعلى مسرح يحترق ، والشعب ممثلون يتابعون إلقاء أدوارهم ، عليه أن يبقى هنالك بينما مثانته تتفجر ، يريد أن يتكلم غير أن أسنانه تسقط ، يقول للقائد إنه يريد أن يذهب إلى الحمام ، ولكن نواح الشعب الشبيه بضجيج سقوط الصخور من الجبل تمنعه ، يرى نفسه هناك في مكان غير مكانه ، عالم مظلم ، من نيرانٍ خامدة وجماجم وعصافير بلا أجنحة .

*

هكذا كان قد صور نفسه وحياته في بغداد في واحدة من قصائده ، إنه يعيش في كابوس ، يريد أن يهرب ، يريد أن يكون شاعراً عالمياً ، شاعراً بلا وطن ولا تأريخ ولا أمة ، ولا شعب ، ولا فلكلور ، ولا لغة محددة ، ولا تعبيرات ثابتة ، يريد أن يكون من غيمة عابرة ، من هوية متنقلة ، غير ثابتة ، من عالم غير محدد ، من عالم مخلوق ، مرقع على نحو أصح ، من أشياء متعددة ، من أوطان ، من ثقافات ، من عوالم قديمة وحديثة ، من شعراء من كل مكان .

هو يحاجج وأنا أنكر .

فأقول له إن الكثير من الشعراء في أوربا هم أبناء زبالين وعتالين وباعة بسطيات . . وأطلق في وجهه ضحكة في

الهواء ، فيبتسم لي ساخراً ، وهو يهز رأسه من جهلي الحقيقي بأوربا . . وكما لو أنه يعرف أوربا شبراً شبراً . . يقول لي :

لا زبال لندن زبال البتاوين نفسه . . ولا زبالة باريس مثل زبالة بغداد . .

الجزء الثالث:

تراجيديا السيرة

والبحث عن اسم العلم

في هذا الكتاب
أيّ اسمٍ سُجِّلَ قبل اسمي ؟
فيً هذا الكتاب
السّطرُ المكتوب لكلمة مفكر جاءت
عن أملٍ فيِ القلب بلا تأخير

Paul Celan

Lichtzwang

I
عيسى الحالم... شاعر العوالم البعيدة

يتجول عيسى -أيام الإجازة- في شوارع بغداد شارد الذهن ، فهو لا يفكر بالعالم المحيط به أبداً ، لا ينتبه إلا لصورته التي ترددها الواجهات الزجاجية للمتاجر مرة بعد مرة . حينها يتوقف ، يركز قليلاً على صورته الموحشة التي تعكسها واجهات محلات الأحذية ، أو واجهات المطاعم ، أو محلات بيع الساعات ، أو واجهات محلات الملابس . يعدل ياقة قميصه ، أو يصعد بيديه بنطلونه ، أو يركز على عينيه نظارته كأنه ينظر إلى شيء معروض خلف الزجاج ، ولكنه في الحقيقة ينظر إلى صورته ، فهو لا يرى غير نفسه ، لا يفكر إلا بشكله وما يكون ، لا يفكر إلا بكونه شاعراً ، شاعراً حالماً برغبات متعددة ، مصنوع من متع لا تنتهي ربما يحصل عليها في بغداد وربما لا يحصل عليها أبداً .

لو سألته مثلاً (كما يفعل منير أغلب الأحيان) : ماذا تشتهي الآن يا عيسى . . .

- أشتهي أن أدخن سيكاراً كوبياً ، وأسبح في حمام تركي ، أنا وصبية يابانية عند حوض مياه سماوية الزُرقة . . .

كل هذه الأمنيات ونحن نسير في شوارع بغداد في الصيف الحار حيث يهطل العرق من الجبين مثل المطر ، بينما عيسى يفكر بنفسه وقد أصبح في مكان آخر ، لا في هذا المكان ، يعتقد بنفسه وقد أصبح وسط شعراء كثيرين من العالم يرتدون المعاطف الثمينة ، ويمسكون الغلايين ذات الكُرات الفضيّة ، ويجلسون على مقاعد من الجلد أمام بحيرة ، هنالك حيث معاطف الفيزون (لم ير في حياته فيزون) ، وآلات البانغو الموسيقية (لا يعرف ماذا تكون) ، يمسكون المناديل المُزركشة والسيجار الأسود ، ويأكلون حلوى التارت أو بوم التي تمطّ من طرف إلى طرف .

قلت له ما معنى هذه الأشياء؟

قال إنه لا يعرفها ولكنه قرأها في مكان ما وحلم بها .

انفجرتُ من الضحك بوجهه (أحلم أحياناً أحلامه نفسها ولكن لا أجرؤ على التصريح بها) ، وبعض الأحيان لا أضحك إنما أتصنع الغضب وأصرخ في وجهه :

عيسى ماذا ينقصنا لتحلم كل هذه الأحلام البعيدة ، ماذا ينقصنا لتفترض عالماً آخر غير هذا العالم الذي نحن نعيش فيه؟ ألست سعيداً؟ صرخت به مرة!

سعيد! أجابني مستغرباً . . . دون أن يضرب وجهي بالكتاب الذي يمسكه!

أكملت خطابي له :

اسمع . . . ماذا ينقصنا . . . ها نحن في البار أليس

كذلك؟ في أيدينا زجاجتا بيرة ، وعلى مقربة منا زجاجات الكوكا كولا ، وأطباق الحمص الساخن ، هنا هدير أمواج الشاطئ في دجلة ، هنا أزيز لحمة سمك الشبوط في المقلاة ، ورائحة حلوى الباقلاوة ، ورائحة شجر الكافور ، لدينا جرأة لصوص ، وعندنا قصاصات ورق ملوّن نكتب عليها الشعر ، ونتغزل بقوام امرأة جميلة ، ولدينا بلم ومجداف خشبي ، وضجيج سمك نهري ، وأحجية صوفية ، وكنائس مثل الغرب وأحسن أيضاً ، وابتسامة لا تغيب عن الوجه ، ابتسامة عراقية يا صديقي ذات ألسنة نارية ، وعقيق أحمر . ماذا بعد؟

*

عيسى لا يوافق على ما أقول ، لا يقبل الأشياء التي أذكرها له مطلقاً .

ذلك لأنه يعتقد أن قدراً أحمق جعل منه يعيش في هذا البلد ، هنالك خطأ إلهي من نوع ما بدلاً من أن يسقط في واشنطن أو لندن أو موسكو أو باريس ، دارت الأرض قليلاً وسقط في بغداد . . . ومنذ أن وعى هذا الخطأ أخذ يبحث عن تصحيحه .

إنه في بغداد ، يقول :

- يا للقدر الأحمق!

لذا فهو لا يتوقف في هذه المدينة (الخطأ) إلا أمام صورة واحدة ، وهي صورة مشوهة على الأغلب ، شوهها بنفسه أو لم تكن بمقاسات طموحه ، إذاك لا يرى في العالم المحيط به إلا

عالماً منهاراً ، يقوده مجرم بعضلات نابضة وأسنان قوية ، عالم غارق بالدم ، بضاعته أعلام مذهبية وسكاكين انتقام . هو لا يرى في هذا العالم الذي يعيش فيه غير الحرب ، لذلك يريد أن يستبدله بعالم آخر ، إنه لا يرى فيه سوى خوذ الجنود وأحشاء الجرحى ومصارينهم الوردية ، لا يرى فيها سوى تمرة ممضوغة حتى الاهتراء ، لم يعد لها أي طعم ، وحتى قمر بغداد ، فإنه قمر ميّت بارد بلا لمعان .

*

لم يكن عيسى يشعر بهذا العالم الذي يحيط به إلا بوصفه كابوساً . سينتهي هذا الكابوس حين ينتقل إلى المكان الصحيح ، مكان آخر غير هذا المكان الذي يعيش فيه ، وعالم آخر غير هذا العالم الذي يحيط به .

المشكلة أن هذه الأفكار تتفاقم وتتصاعد في الأيام الأخيرة من الإجازة ، وفي الغالب وقت الغروب!

لذلك يظهر الوجه القبيح لعيسى فجأة ، ومثل طفل فاسد يعكر علينا يومنا ، فيرفض اقتراحاتنا بالتوقف أو الذهاب إلى أي مكان ، ذهنه يتعطل ، تفكيره يتوقف ، ثم فجأة يرفض الجلوس في مقاهي شارع الرشيد ، أو الذهاب إلى سينما سيراميس ، أو الدخول إلى بار ٢٢ في الكرادة ، أو الذهاب إلى بيت منير . . . لا نعرف ماذا أصابه تلك الساعة فيصر على العودة الآن إلى المنزل .

- أمر يتعلق بالفضاء العام . . . يقول وهو يرفع أنفه الكبير إلى أعلى .

- الفضاء العام! رددت وراءه ومنعت نفسي من الضحك . كلمة مثيرة لوصف هموم عيسى .

عند وصولنا إلى الميدان تصنع مظهراً آخر ، وقال إن عليه أن يذهب الآن ، دون أن يودعنا الشاعر العالمي ، أدار وجهه ورحل .

قال منير ساخراً : ساعات الغروب تصيب عيسى نوبات هوم سك متعددة . . .

- حنين الوطن؟

نعم . . . يصاب بنوستالجيا إلى لندن أو باريس . .!!

*

في الصباح يتغير مزاجه تماماً ، أراه سعيداً ، نشطاً ، يتناقش في الشعر والأدب بروحية عالية ، يصغي بشكل جيد ، يشرب الشاي ، يدخن السيجارة تلو السيجارة ، وحين ينتصب يبدو كأنه تمثال ، مرح ومتعال وواثق من نفسه . . .

أسأله ماذا تريد أن تفعل اليوم . . .

يقول إنه يريد أن يتوقف في الفراغ وحسب . .

لماذا؟ قلت له .

لأنَّ شمس الآلهة العظيمة أشرقت عليّ!

ضحكت منه من كل قلبي ذلك اليوم ، بينما أتذكر إلى الآن وقفته المتغطرسة ، وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارته ويطلقه في الهواء ، إلى الآن أتذكره كيف كان واقفاً وسط شعور

بالثراء : في جيبه ديناران ، وشعور بالسعادة هبط عليه بشكل مفاجئ .

قلت له :

عزائي الوحيد ، ومتعتي الوحيدة ، أني لم أقابل رجلاً واحداً ثرياً وسعيداً حقاً مثلك اليوم .

كان واقفاً كما لو كان الإنسان الوحيد على الأرض ، إله مفرد ، إله سعيد . ربما هبط عليه إلهام مفاجئ ، أوصله في تلك اللحظة إلى المكان الذي حلم به ، وصل المكان الذي لم يولد فيه أبداً ، مكان لا يعرفه من قبل مطلقاً ، وصل المكان المحلوم الذي لا يقطنه سوى الشعراء ، ليس فيه أي عمل سوى كتابة الشعر ، فالشعر هو عمل الآلهة!

- يا له من عمل عظيم! عمل مصحوب بنوبات سريعة من البهجة .

هكذا يفكر عيسى بالشعر ، فهو الأداة السحرية الأسطورية الوحيدة التي ستنقذه من البلاد التي يعيش فيها ، من السماء التي أضحت بعد الحروب بلا نجوم تقريباً ، وليس هنالك في الأفق سوى كوارث ، كوارث وخرائب فقط .

*

أخرج علبة سجائر مارلبورو من جيبه ، تناول سيجارة ، أشعلها في الهواء البارد الرطب ، وأطلق الدخان إلى أعلى . نظر باستقامة تامة إلى الشارع . .ثم سار . بعد خطوات التفت إليّ وقال :

- هل تعرف . . . عزائي الوحيد في هذه الحياة هو أني شاعر . . .

لقد شعرت ذلك اليوم ونحن نسير في شارع الرشيد ، أن هذه هي الصفة الوحيدة التي أنقذته من العالم الذي وجد نفسه فيه ، ذلك أن الشعر هو نوع من التعالي على هذه الحياة العادية التي يحياها ، الشعر هو تصحيح الخطأ الإلهي العظيم الذي وجد نفسه فيه ، وفي الشعر كل شيء بالنسبة لعيسى سيحتل مكانه الصحيح . كل شيء سيسير بصورة متكاملة .

سار متقدماً إياي ، بنطلونه الواسع يهفهف في الهواء ، وكتبه التي اشتراها من مكتبة النهضة في شارع السعدون .

شعرت ذلك اليوم أنه يسير بصورة حيوية : النصف العلوي من جسمه في حالة نشوة ، والنصف الآخر في حالة حركة ، بينما هنالك شخص آخر في داخله ، شخص يكاد أن يطفر من الفرح ، شخص سعيد لأنه توصل إلى الحل ، وهو تصحيح سيرته .

لا بد أن يصلح العطب ، لا بد أن يصحح سيرته طبقاً إلى حياة شاعر ، لا بد أن تكون سيرة مميزة ، سيرة شاعر عظيم يولد في زمن جديد ، زمن لا يشبه أي زمن مر على العالم ، ألم يكن في قصائده إله اللغة الذي سيصرع الرجال الذين يقاتلون من أجل الأفكار؟ لا بد أن تكون سيرته إذن سيرة مميَّزة .

صرخ ذلك اليوم على مقربة من تواليت عمومي في نفق ساحة التحرير ، وهو يخرط سحابه راكضاً كي يبول :

- من يرد أن يصنع تاريخاً لا بد أن تكون له سيرة عظيمة . . .

عيسى يفكر بالسيرة العظيمة على أنها كالقرحة على جدار المعدة ثابتة وواضحة ، لا بد أن تكون سيرة مبتكرة ، سيرة متهوِّر شهواني لا يضارعه أحد ، سيرة داعر عاصِف لا يشبهه أي شخص آخر!

لكن مشكلة عيسى أن حياته لا تتوفر على كل هذه الأشياء ، لا لشيء إلا لأنه عاش في عالم لا يسمح له بأن يعيش أي تجربة ومن أي نوع ، إذن لا بد من تصحيح هذا العطب .

*

وصلنا ذلك النهار إلى بار ٢٢ في الكرادة ، دخلنا ، كان المكان بارداً ، معتماً قليلاً في هذه الظهيرة المشمسة ، موسيقى هادئة ، ورائحة البيرة النفاذة تهجم علينا مباشرة مع برد المكان ، بينما يتصاعد دخان السجائر الذي تدفعه مفرغة الهواء إلى أعلى . رجل وامرأة جالسان في الزاوية البعيدة ، ثلاثة شباب عند الطاولة القريبة من الزجاجة . وعلى مقربة من البار جلس عيسى ، وقبل أن يصل الكرسي الجلدي الأسود مد يده باتجاهنا وقال :

- أنا سأدفع الحساب اليوم . . .

شيء رائع قلنا له أن نشرب على حساب الشاعر العالمي . .

بعد كأسين بيرة باردتين جداً أخذ عيسى يصرح تصريحاته

التي اشتهر بها ، والتي ينساها على الدوام حين يصحو .

نهض بملابسه التي تشبه ملابس المهرجين ، رفع كأسه مبتهجاً إلى أعلى ، وقال إنه يريد أن يصبح المفكّر الشكّاك والكذّاب والكاره ، (طالما الحزب الحاكم لا يسمح له بالشك ولا يعترف له بكراهية القائد) . ولا بد أن يتعالى في سيرته على التاريخ ، طالما تريد منه الدولة أن يكون وسط التاريخ .

كنت أتفهمه ، يريد أن يتعالى على التاريخ لأنهم يريدون منه أن يكون وسط التاريخ ، ولكن أي تاريخ ، إنهم يريدون أن يصنعوا منه محارباً ضد الأعداء (إيران و . . . وأوربا وأميركا) ، إنهم يريدون أن يصنعوا منه محارباً ضد جميع الأعداء ، عليه أن يكون بطلاً وطنياً ، عليه أن يكون مخرباً ، متحاملاً ، وحاقداً ، شخصاً ينطوي على غِلّ ، وعليهم أن يستخرجوا من أعماقه هذا القاتل الكامن ، القاتل الذي يريد أن يسود العالم ، البطل الوطني المتعطش لسفك الدماء ، بينما هو شاعر شرير ، كاذب وفاسد ، ليست لديه شهوة قوية للانتقام ، ولكنه يعبر بقوة عن كراهيته وتمرده .

كان يقول عن نفسه إنه نتاج شيطاني لتربة شريرة ، ومتعته الوحيدة ، أن يكون مخيفاً . كان يقول إنه من الأفضل لروحه لو عبّرت عن تمرُّده الخاص ، لو ذهب إلى السجن ، حتى لو تعفن هناك ومات ، كان أفضل حالاً لو عاش حياة المجنون ، لو أطلق الرصاص على نفسه . . .

هو يريد أن يكون كل شيء . . . كل هذه الأشياء

مجتمعة ، ويريد أن يحيا كل التجارب التي يمكنها أن تصنع منه شاعراً عظيماً . . . ولكنه مع الأسف ، لم يكن سوى شخص تافه ، لطيف ، وطيب . وكل ما يقوله عن نفسه كان تلفيقاً لا أكثر .

*

«إنَّ الحقيقة نادراً ما تُثير اهتمام أحد» قال لي مرة .

إذن لننتهه من الحقيقة وليكن هو المخلوق الشيطاني الحق ، شيطان الشعر الجميل . في هذه الحالة فقط ستكون سيرته سيرة عظيمة ، ربما سيرة لا يحبها الكثير من الناس ولكنهم لن يتجاهلوها أبداً ، لن تكون سيرة وحسب إنما هي الندبة التي سيتركها عيسى على وجه العالم بأسره .

*

توقف أمام تمثال السعدون ، التمثال البرونزي المقام في الساحة . .في تلك اللحظة قال لي إنه يريد تصحيح سيرته .

- لماذا؟ قلت له دون تهكم . . . بل كنت تعمدت الجدية .

- تصحيح سيرتي هو تصحيح لأخطاء العالم . . .

ضحك منير من كل قلبه .

كان يتحسس جداً من سخرية منير منه ، ويعدها نوعاً من التعالي الطبقي .

- موهوم! قال لي منير مرة مدافعاً عن نفسه . . . لا طبقات في العراق . . . هنالك عائلات تأكل الرز مع المرقة ، وهنالك عائلات تأكل المرقة مع الرز . . . ويوحدنا كلنا أكل العروق

بالرشاد والفلافل مع العمبة . . .

*

لقد رسم عيسى تلك الأيام مخططاته ، فتصحيح السيرة هي ستراتيجيا تبدأ باسم العلم وتنتهي بالاكسسوارات التي تتعلق بالشاعر لا بشعريته ، تتعلق به هو ، بشخصه ، باسمه ، وبشكله ، بتسريحة شعره ، وأناقة ملابسه ، باسمه المكتوب على دواوينه ، بسيرة حياته وولادته . عليه أن يفكر بكل تلك الأشياء التي لا تعني الشعر على نحو مباشر ، إنما تعنى بما يحيط الشاعر ، من لوازم غير الشعر :

الإكسسوارات! أليس هذا مهماً . . . صرخ عيسى .

لم أنطق أمامه بكلمة . بينما استمر منير ساخراً منه ، دون أن يجيبه بكلمة .

بالنسبة لي كنت أتفهمه ، لا أوافقه ولكني أتفهمه ، إنه يفكر بهذه الطريقة ، لأنه يريد أن تحل النهاية على سيرته العادية ، السيرة التافهة التي عاشها كل جيله ، وتحل محلها السيرة الشعرية الجديدة ، عند ذاك فقط تتحول السيرة العادية من هاجس محموم لديه إلى شيء عملي ، إلى شيء شعري ، وتتوقف السيرة العادية من أن تكون هاجساً قاتلاً ومعذباً ، ستنتهي بمجرد حصوله على حياة جديدة ، ستغادره هذه العذابات والآلام بمجرد أن تنولد السيرة الجديدة التي سيكتبها عن نفسه .

*

غاب عيسى عنا فترة ، ثم جاءنا بسرعة البرق ليتلو علينا قصة خيالية أخرى .

لم يصدقه أحد . ثم عاد إلينا في المرة الثانية بقصيدة جديدة ليبهرنا ، قصيدة جميلة بلغتها تلك الفترة ، اسمها «هذه الأزهار ليست ملكاً للرب أيها السيد . إنها ملك البلدية» ، طبعاً أقول جميلة بسبب لغتها وتقنياتها ، ولكن هنالك مشكلة من ناحية سياقها ؛ إذ ستكون رائعة لو كان كتبها شاعر يعيش في باريس أو لندن أو أي من العواصم الأوربية ، إنها مشكلة عيسى ذاتها . فقد ضمنها كل الأشياء المفقودة في العراق ، ضمنها كل ما هو أوربي لا يمكنه أن يحدث في العراق .

ولكي يكون في مستوى الحدث فقد اشترى عيسى عكازاً أشبه بذلك الذي يتكأ عليه الأعيان في الأفلام الإنكليزية ، أراد أن يجرب نفسه وهو يسير مثل بطل في فيلم إنكليزي قديم ، ثم اشترى قبعة سوداء من بسطة للملابس الأجنبية المستعملة «البالة» ، اشتراها من أسواق اللنكات في بغداد الجديدة ، وفي هذا السوق ملابس غريبة المظهر ، بعضها ملابس مهرجين ، غير أن عيسى يعتقد أنها ملابس فنانين أوربيين ، ومع أن أصحاب البسطة يبيعونها بأي ثمن لأن لا أحد يجرؤ على ارتدائها في بغداد ، إلا أن عيسى يشتريها بأي ثمن لأنها متطابقة تماماً مع ذوقه ، أي مع الصورة التي في ذهن عيسى عن الفنان الأوربي ، والتي يراها في كتب السير ، وبالرغم من أن الكثير من هذه الصور تعود إلى أوربا القرن

التاسع عشر ، غير أن الزمن أمر غير مهم في تصور عيسى للعالم من المنظور الشعري .

حين رأيناه منير وأنا بالعكاز والقبعة يسير بكامل ثقته بنفسه ، العدسات الطبية ، الجاكيت الأسود ، الصديري ، القميص ، البنطلون العريض ، الحذاء الغريب . جلس منير على الرصيف من الضحك .

لقد غرق منير بضحكة مجلجلة ثم اختنق بها ، احمرت عيناه ودمعتا ، ثم لم تعد قدماه تحملانه ، فجلس على الرصيف وهو يضحك ، لقد كان المشهد مضحكاً حقاً ، ساخراً إلى درجة الثمل ، بينما وقف هو دون أن يعير أي اهتمام لهذين الجاهلين- منير وأنا- لا بحياة الفنانين في أوربا إنما بفقداننا للجرأة على صدم معاصرينا كما يفعل هو ويصدم معاصريه .

*

ها نحن نمشي الثلاثة معا في شارع الرشيد ، ذاهبين إلى مقهى البرازيلية ، شاعرين بالخجل والإحراج من هذا الصديق الغريب الطالع تواً من صندوق سحري قادم تواً من أوربا القرن التاسع عشر . نكت غباره وجاء ، أو كما يقول عنه منير نكت الطحين ونهض . دون أن يأبه عيسى للضحك في مدينة بغداد ، مدينة الفضوليين ، أو يأبه لنظرات العابرين المستهزئة ، كان يسير وهو يدخن غليونه ، القبعة على الرأس ، العكازة في اليد ، النظارات على العينين ، الجاكيت الأسود يذكر بشارلوك هولمز وهو يدور بظرافة شديدة على موقع الجريمة .

II

تصحيح السيرة... تغيير اسم العلم

أخذ عيسى يفكر تلك الأيام بمتطلبات حياته الشعرية ، والتي تتعلق بتلفيق السيرة الشخصية ، واستعارتها من تجارب وحيوات شعراء آخرين ، واستعارة تجاربهم ، لأنه في واقع الأمر لا تجارب حيوية له على الإطلاق ، لأنه ببساطة كان يعيش في مدينة مثل مدينة بغداد لا في لندن ولا في باريس ولا برلين ولا في موسكو .

لكن خياله هو الذي سيلتهب ليحرق حياة الآخرين ، ويجلب نارهم إلى حياته الباردة ، عند ذاك سوف تتوهج تجربته . ستتصاعد منها ألسنة لهب كثيرة ، ومع التماعة النار سيصعد هو كشاعر ، ليشهد هذا الانهيار المجيد للعالم ، ستذهب روحه إلى أفقٍ أرحب ، ستمكنه من الاحتياز على المزيد من المغامرة ، سيحصل على مزيد من الحرية ، مزيد من الأحداث في حياته ، مزيد من الاكسسوارات ، مزيد من الحاجات ، مزيد من الترتيبات والتعديلات ، مزيد من التحويرات بدءاً من اسمه وانتهاء بشكله .

اسم العلم أولاً . . . قال في المقهى .

اسمه عيسى .

صوّته مع نفسه ، قاله بصوت عال :

- تصويت اسم العلم مهم .

إن تنغيمه هو الانطباع الذي يتركه عند سامعيه . وهو ما يتركه من صدى في نفوس الناس .

ثم تساءل هل يتلاءم هذا الاسم المحلي جداً ، والديني على نحو مخصوص مع شاعر عالمي؟

عيسى اسم عظيم قلت له . . .

ابتسم ، لم يقبله على نحو مرغم عليه ، أو مقدر له ، أو شيء لا مفر منه . . . إنما قبله بوصفه اسماً عالمياً أيضاً ، ولكن أرويد . . اسم والده لا يمكن . . ، وعند هذا الحد قال إنه سيصبح من الآن فصاعداً . . عيسى فقط . . اسم واحد فقط ، وهو يشرب الشاي ويسحب دخان سيجارته ويعبه في داخل رئتيه إلى أقصى نقطة ، أخذت عيناه تبرقان وقال : هل كان يُعرف النبي عيسى باسم غير اسمه؟ . .

*

الشاعر نبي . . إنه نبي مثل أي نبي آخر . . رؤى ولغة وتصورات وأوهام وأحلام واستباق . . وسحر . . وحياة وإحباط والخ . . إذن هو عيسى ، الشاعر الذي يقف باسمه الأول مثل نبي ، يعيش بلا إضافات أو ملحقات ، ليس ملهماً وحسب ، إنما وحيد ، منعزل ، مستقل ، ومكتف بنفسه ، لا لأن اسم الأب المحلي جداً والمغرق بمحليته عائقه ، إنما لأن الشاعر مثل

نبي بلا أب ولا هم يحزنون . .

لقد وصل عيسى الحد . .حد الاسم ، حد اسم العلم الذي يُعرف به الشاعر ، ومن قبل كان يُعرف به النبي .

كنت ألمح أحيانا خوفاً واضحاً في عيني عيسى الجائعتين ، خوفاً يتردد صداه من خلف النظارة الطبية السميكة ، خوفاً يبقى ويدوم حتى بعد أن يكون الاسم حُلٌ باسمه هو . حل باسم واقف وحده بلا اسم أب . اسم مفرد يتردد صداه هناك في أرض غير مكتشفة بعد .

غير أن التفكير بالاسم حمله مباشرة للتفكير بولادته .

*

هكذا يصل عيسى مع تفكيره بتصحيح السيرة فينتقل من اسم العلم إلى أمر الولادة بسرعة شديدة ، ينتقل بلحظة واحدة من الاسم إلى الموضوع ، الموضوع الذي يولد الاسم ويكون في لحظة واحدة مناسبته ، وهكذا يصل بعد تفكير قصير جداً إلى السؤال التالي :

إذا كان اسمه واقفاً وحده بلا اسم أب يسنده ، فهل من الممكن أن يجيء إلى الحياة بلا أب؟

طالما أن الاسم هو اختراع ، إذن الحياة هي اختراع أيضاً ، والولادة اختراع كذلك ، أما الشك بوجود الأب فهو مناسبة كبيرة عند الشاعر ومكمل لأسطورته ، كما كانت الأسطورة مكملة لحياة القديسين والأنبياء والورعين والاستثنائيين من الناس . الحياة اختراع عند كل الناس الاستثنائيين . سيرة

الناس الاستثنائيين يمكن قبولها ، حياة شاعر يمكن ابتداعها ، يمكن توهمها وصياغتها . .

وهكذا فإن حقيقة ولادته تخضع للشك ، مثلما تخضع شخصية والده ووالدته للشك أيضاً ، فهل يمكن اختراع أمر حياته ، مثلما يمكن اختراع أمر ولادته؟

ماذا عن السيرة؟

الاسم وخلص من مشكلته ، حله هذا الحل السهل ، حله بإبقائه وحيداً ، وبإلغاء كل متعلقاته وملحقاته ، بلا اسم الأب أو الجد أو اللقب ، أو الإضافة لأي شيء آخر ، ولكن ماذا عن السيرة . . كيف يمكنه تدبرها ، كيف يمكنه اختراعها ، أو ابتداع صورتها وشكلها؟

أين ولد؟ هل يقول للقراء إنه ولد في حي فقير ، في منزل داوود التكمجي ، في الزقاق الصغير الذي يؤدي إلى الجامع؟

لا . . . قال عيسى . . لا يمكن ذلك . . .

كيف ولد؟ هل يقول يوم نام أرويد والده ، وصبرية أمه فوق السطح ، ناما على حصيرة قرب قن الدجاج الذي كان يقوقئ ، في الليل الساخن من صيف حزيران ، أيام تصعد الناس في بغداد أواخر الستينات وتنام على السطح . .

وثيقة

(ولد عيسى في ١٩٦٣/٧/٣ بالضبط ، كما أخذته من شهادة ميلاده فيما بعد ، اسم والده ارويد ، تزوج من صبرية

التي كان والدها يقطن في صبابيغ الآل، ويعمل عتالاً في سوق الدهانة، اسمه حسن زادة، وقد زودتني بهذه المعلومات سليمة شقيقة عيسى، وقد التقيتها بعد شهرين تقريباً من إعدامه).

لا.. لا يمكن ذلك.. قال عيسى هذا، وهو يضغط كتب كولن ويلسن الثقيلة، قال هذا وهو يرفع سيجارته إلى فمه، يسحب بقوة نفساً عميقاً ثم يطلق الدخان في الهواء.

*

لحظات يشرد تفكيره بعيداً، يشرد من التفكير في أمر ولادته ويذهب إلى التفكير بسيجارته، بالسيجارة التي يحبها في الأيام الممطرة الباردة في بغداد، وفي الأيام المشمسة الحارة، السيجارة التي تربطه مظهرياً، مظهرياً على الأقل بكبار الشعراء الذين قرأهم ورأى صورهم في كتب سيرهم. صورة أندريه بروتون مثلاً.

صورة أعجب بها عيسى كثيرا

أندريه بروتون جالس في مقهى من مقاهي باريس، يرتدي بذلة أنيقة، ويرد شعره إلى وراء، أمامه صحيفة وكتابان، وسيجارته بيده، يرفعها عالياً، بينما الدخان الأبيض يتصاعد ببطء في الصورة الممحوة قليلاً لتحجب مشهد باريس وراءه.

*

لحظات يشرد تفكيره، يشرد تفكير عيسى من أمر سيرته

ويذهب إلى التفكير بالكتب التي يحضنها ، يذهب تفكيره إلى الكتب السميكة التي تحتوي على سير حياة الكتاب والشعراء العظام في كل أنحاء العالم ، إلى التفكير بالشعراء المشاهير الذين يحبهم ويتشبه بهم ، ولا يريد أن يصبح شاعراً مثلهم فقط ، إنما يريد أن يصير مشهوراً مثلهم أيضاً ، يريد أن تكون صوره في كل مكان ، في الصحف ، في المجلات ، على أغلفة الكتب ، يريد من صورته أن تكون محفوظة أيضاً في درج معجب أو معجبة في برلين أو باريس أو لندن ، هل يتحقق ذلك له ، أم لا؟

حينما كنا نتحدث عن المركزية الغربية ، وانشغال الغرب بنفسه كمركز منتج وهوامش مقلدة ومستهلكة (اصطلاحات كانت شائعة بين المثقفين ذلك الوقت) كان عيسى ينفر من هذا الحديث ، ويغضب غضباً شديداً ، ويعتقد أن هذه الأفكار تنتج بسبب قلة الموهبة وضعف البصيرة .

– ماذا يضر أوربا لو كانت مركزاً ، إنها مركز عظيم ، إنها الصورة التي حلم بها كل المصلحين والأنبياء والمفكرين ، هي وحدها القادرة على تقديم تجربة لشاعر ، وخيالاً لفنان ، وقصة عظيمة لروائي ، وفكرة فتاكة لفيلسوف ، ماذا تريدون من أوربا إذن؟

كان عيسى يعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يقل أهمية عن أي شاعر من هؤلاء الشعراء الذين نقرأ لهم ، وهو لا يقل عنهم لا مستوى ولا شاعرية ، ولهذا السبب ستحبه أوربا ، ستحبه

حتماً ، سترعاه ، سيكون مواطنها الأبدي ، سيكون جزءاً لا يتجزأ من ثقافتها ، إنها لا ترعى إلا الموهوبين ، لا ترعى إلا الشعراء ذوي الخيال الجامح مثله . . .

ماذا ينقصه؟ هكذا فكر في نفسه .

اللغة ويعرفها جيداً ، الشعراء ولم يفلت أحد من قراءته ومعرفة أسراره وأسرار شعره ، التجربة الشعرية ومو ناقص عيسى للتجربة الشعرية . . اشناقصه بعد حتى يصبح مثلهم . .؟

السيرة بطبيعة الأمر..

عيسى يعتقد أن سيرته ليست مثل سيرهم . . وحياته لا تشبه حيواتهم ، فهم من أوربا ، أوربا التي تمنح الناس -حتى العادي منهم- التجربة العظيمة بلا مقابل ، أوربا التي تقدم الإمكانات الكبيرة لكل فرد ، أوربا التي تقدم اكسسوارات الشاعر للشاعر ، أوربا التي تقدم تجربة الحياة العظيمة لكل فرد ، أوربا الفردية على نحو أصح ، الفرد الحر الواقف بلا مجتمع ولا دولة ولا حزب ولا حكومة ولا جيش . . . أوربا التي تجعل حتى الكديش شاعراً وعلى نحو مذهل ، فهي وحدها التي تنطوي على كل شيء عظيم وأسطوري وخرافي . . .

هذه مركزية هذه . . قال لنا مرة .

أوكيه - أجاب هو - مركزية . . . ولتكن . . لم لا . . . هي أحسن شيء على الأرض ، وما الضير إذا قلدناها . . . ماذا يضر

لو تعلمنا منها ، لو تطابقنا معها . . .

هذه هي الطريقة التي يفكر فيها عيسى ، إذن عليه أن يجعل حياته متطابقة مع حيوات شعرائها ، وأفكاره متطابقة مع أفكارهم ، وشعره يقترب من شعرهم . . . وكل هذه الأشياء طالما هي تتعلق به على نحو شخصي أو فردي لا يجد صعوبة كبيرة في إحداثها ، فهو من الناحية الفردية ، أي فيما يخصه هو على نحو فردي ، وما يخص اسمه وهيئته فهو مستسلم بالكامل ، ويشعر من السهل أن يجد في نفسه كل الممكنات التي تطوعه ليكون في القالب ، ليكون متطابقاً مع الموضوع الذي كونه في ذهنه ، ولكن في الواقع كان العائق الأول والأخير هو موقع الأب . . فهذا الأمر لا يتعلق به ، ولا يختص بأنيته ، أو بذاتيته أو بفرديته ، إنما بأنية أخرى ، بفردية أخرى ، وبذات أخرى ، فكيف يتخلص منه ، كيف يتخلص من هذا الأب المجهول والزائد عن الحاجة . .

III

الشاعر أوديب يسعى لقتل الأب

أوديب . . . قال ضاحكاً .

ذلك لأنه ولد من المعـاناة الشـعـرية ، ولد من عـذاب الأفكار ، من الحكمـة العظيـمـة ، لا من اللذة الرثة المبتـذلة لأرويد والده ، ومن رغبـة صبـرية أمه . لقـد ولد من الحقـائق العظيمة لا من الرعشة بين السيقان ، ولد من الجذوة الملتهبة ، لا من الرخام اللحمي الحي لجسد والده ووالدته .

إنه من نسل الأنبياء ، من المغامرة التاريخية ، من المعاناة المصـمـمة داخل الوجه المعذب ، لا من الوجه الممسوخ ، من النهار المشرق ، لا من الليل الدامس ، من الأيدي العارية التي كانت تحمل شواهد القبور الثقيلة ، لا من الحفر الغائرة ، أو من عيون البائسين المفتوحة على الطين .

*

كان عيسى يتأمل هذا الأمر من جميع جوانبه وهو يمر على محلات ودكاكين مختلفة في شارع السعدون ، يتأمل أمر الأنبياء والعظماء والكتاب والشعراء والرجال الاستثنائيين في التاريخ ، الذين ولدوا من اتصال الأم بروح أثيرية ، أو بإلهام ، أو

بنور ، أو بإيحاء ، أو بتفكير ، أو بتصور ، أو بتوهم ، أو بخيال .

خيال؟ . . قال بصوت خفيض أول الأمر . . وكأن هنالك شخصاً ما يسأله ، شخصاً ما واقف أمامه ، شخصاً اخترع صورته ، أو معجباً بشعره أمسك بيده كتب عيسى الشعرية المطبوعة ، وقد طلب منه توقيعه (صورة ظلت عزيزة على خيال عيسى وذهنه ولفترة طويلة ، صورة أن يقف أمامه معجب ما بشعره ، ويطلب توقيعه على كتبه المطبوعة والمخرجة من قبل أفضل دور نشر في البلاد) ، وبعد التوقيع يسأله هذا المعجب أسئلة متعددة عن حياته ، وأفكاره ، وشعره ، فيقول له مندهشاً : من خيال؟

عيسى يجيبه : لم لا . . أجل . . من خيال . .

كأن عيسى يخاطب نفسه ، وبصوت مسموع أحياناً : لم لا . . الخيال مثل الحقيقة ، وأحياناً يتفوق عليها بتأثيره وفعاليته ، الخيال حقيقة في وجه من وجوهه ، واقع في شكل من أشكاله ، الخيال هو أساس كل شيء في الحياة ، أساس الفن ، الدين ، السياسة ، الاقتصاد ، الحب ، الثقافة . . . إذن من خيال . . لم لا . . من خيال . .

*

كان عيسى يسير في شوارع بغداد ، يتنزه ، يتمشى ، شارداً متنقلاً بين شارع الوزيرية وشارع الكمب ، بين الساعة السابعة والتاسعة مساءً .

قال في نفسه ، وهو يفكر في تحوير سيرته ، أن لا شيء

أفضل هذه الساعة ، من أنْ يجد نفسه مُقحَماً في حشد من الناس ، لا شيء أفضل من أن يتجول بطيئاً في الشارع الأثير على نفسه : شارع الأعظمية . هناك حيث يتعقب مؤخرة امرأة مسرعة ، قادمة من مخبز الكمب ، أو نهداً جميلاً يمر باتجاه شارع عمر بن عبد العزيز . يريد أن يشعر بنفسه وهو ينجرف مع التيار ، تيار الناس وكأنه منهم ، ولكنه في الواقع كان تائهاً في أفكاره ، كان تائهاً في أشعاره ، في متلاطم الأشياء المدومة في عقله .

مع أن هذه الأفكار منحته نوعاً من رضا عجيب عن نفسه . منحته شعوراً مطمئناً وذهبت بشعور الاضطراب والقلق والخوف الذي كان يسيطر عليه تلك الأيام ، إلا أن هذا الشعور الجديد قد غمره واستحوذ عليه بالكلية أيضاً . مع ذلك علينا القول إن الفترة التي شعر فيها عيسى بأنه بلا أهل ، بلا أب ، بلا تخطيط ، بلا نقود ، هي فترة ذهبية في حياته ، ذلك أنه من خلال هذه الفترة فقط ، شعر بأنه يمكنه عندئذ تخطيط سيرته على كيفه ، وعلى هواه ، تخطيط سيرته كما يجب أن تكون عليها سيرة شاعر عظيم مثله . لذلك قرر في نفسه ذلك اليوم أمر الخيال على النحو التالي :

الخيال يتبادل الموقع أحياناً مع الحقيقة ، بل يصبح أحياناً هو الحقيقة ، يأخذ موقعها ، يطابقها أحياناً ، يكون مثلها ، أو يتفوق عليها بعض الأحيان . هو بمقدارها حيناً ، وكثيراً من المرات هو أفضل منها ، لذا طور عيسى فكرة أخرى عن الخيال ، فكرة كان قد صممها منذ ومن بعديد ، إلا أنها داهمته وهو

يسير ذلك اليوم في شارع الأعظمية ، فكر على النحو التالي : كم من شيء خيالي في حياته أعظم من أشياء حدثت له حقيقة وواقعاً . .

«نصف حياتي من الخيال لا من الحقيقة . .» قال عيسى وهو يجتاز الشارع .

سار على الرصيف ، معطفه الأسود يلف به جسده ، سيجارته بين إصبعيه ، تصل إلى شفتيه ، يسحب نفساً ، تهبط يده أسفل ، فيطلق دخانها في الهواء الرطب في هذا المساء من مساءات بغداد ، أما الكتب التي يحملها معه ، فإنه يحملها باليد الأخرى ويلزها على أضلاعه .

صورة مثقف عراقي جينيك

(عادة معروفة عند المثقفين العراقيين بشكل عام ، عندما يخرج من المنزل يحمل كتاباً ، أو مجموعة من الكتب ، لا يضعها في كيس أو حقيبة ، إنما تبقى مكشوفة ، يقبضها بيد واحدة كما لو يحتضنها . أما الإكسسوارت الأخرى فيجب أن تكون حاضرة أيضاً : جاكيت عريض ، لحية لم تحلق منذ يومين أو ثلاثة أيام . نظارة طبية حتى لو كان البصر ستة على ستة . . . !!)

*

نعم الخيال!

هكذا كان عيسى يفكر في نفسه ، نصف حياته أو أكثر

من الخيال ، لأن الحقيقة في واقع الأمر لا تمنح الإنسان الكثير من الأشياء ، إنها لا تمنحه الكثير من الحاجات ، إنها لا تقدم له ما يرغب به ، أو ما يريده ، لذلك فهو يلجأ على الدوام إلى الخيال ، إنه يعوض هذا النقص بالخيال ، لولا الخيال ، ما تمكن عيسى من الحياة ، ما تمكن من أن يمضي ويتجاوز حياته اليابسة ، الجافة ، المتقشفة ، فبالخيال يعوض فقر حياته ، يعوض ما ينقصه ، وبالخيال يأتي بما يحتاجه ، ولا يستطيع الوصول إليه ، مثلاً :

العادة السرية حقيقة ، إنها شيء واقعي ، هي حادث موجود ، لكنها قادمة من الخيال ، قادمة من أعمق أعماق الخيال ، هذا الخيال متجسم وواقعي ، هو موهوم ومقبول في آن واحد ، هو موجود وغير موجود في الوقت ذاته ، والمرأة في العادة السرية محسوسة لكنها غير ملموسة ، والعملية خيالية برمتها ولكنها حقيقية من جهة أخرى برمتها ، إنها خيال أو قادمة من الخيال ، وهي مثل الخيال أيضاً ، أثيرية ونظيفة ، بل أنظف من الاتصال المباشر بكثير . .

إذن لماذا لا تكون هذه الولادة من هذا الخيـــال لا من الحقيقة . .

هكذا فكر عيسى مباشرة ، فكر بهذا الرجل الذى يدعى : إرويد .

إنه الأب الذي يتمتع مُسبقاً بشيء من الاحتقار ، بشيء من الإذلال ، بشيء من السخرية في تفكير عيسى وخيالاته .

فدور الأب الطيب ، دور الأب المسكين ، الأب الوديع الهادئ والمهادن لم يرْضِ تجبّر عيسى أبداً ولم يرض تعطشه للاستثنائي والخارق ، صحيح هو أحبه وشغف به في طفولته لتسامحه ، وربما بقي يحبه حتى مماته ، ولكن هذا لم يمنعه أبداً من أن يكون العائق الرئيس في السيرة الاستثنائية للشاعر أيضاً ، ذلك لأن صورة هذا الأب السكير الثمل ، الذي لم يكن يقظاً على الدوام ، ولا قاسياً ، ولا كريهاً ، ولا ثريّاً ، لا تتطابق مع الروح الأرستقراطية التي كانت لعيسى .

*

ما علاقة الشاعر القادم من أرض أخرى ومن سماء أخرى مع أب لم يصنع شيئاً شريراً ، أو يؤذ أحداً تقريباً في حياته . أب سكير نعم . لكنه لم يفعل شيئاً تقريباً سوى أن يكون موضوعاً للسخرية والضحك من الجميع . ما علاقته مع أب غير جاد بالمرة ، أب ملول ، كسول ، نوّام بطبيعته ، مع أب يغفو وهو جالس والسيجارة تحترق بين أصابعه ، ورمادها يتكون بين ساقيه ، ما علاقته بأب لا يغادر منزله تقريباً لأيّ سبب ، ربما لسبب واحد فقط ، هو أن يذهب إلى دكّان بيع الخمور في رأس الجادة ، يجلب بيده بطل العرق ، عصر كل يوم ، ملفوفاً في كيس أسمر كبير ، ويدخل بسرعة ، كي لا يراه أحد من الجيران ، إلى المنزل .

ما علاقة هذا الشاعر العظيم بارويّد ، إرويّد الثمل ، ارويد المرتبك المُبتل حتى أذنيه بالفقر والكسل ، إرويد الذي يمشي في

الشــارع وهو يتطوح مــثل شــبح في مــأدبة ، ارويد الذي يمضي النهار كله في شرب العرق ، ويمضي الليل بالدخول كل ساعة إلى المراحيض ، ولا يسمع منه غير صوت السيفون وغرغرة المبولة .

*

في الواقع ، إن مشكلة عيسى تكمن بعدم مقاساته في طفولته ، أي أنه لم يمض طفولة تعيسة ، فالأب السكير كان مرحاً ، كان ساخراً بصورة مريعة ، كان طيب القلب ، محباً لزوجته وبناته ، ومحباً لولده الوحيد عيسى ، وكانت الأم التي تكدح اليوم كله في عملها ، تقدم بعد الظهر ، للزوج الحنون ثمن العرق عن طيب خاطر ، تقول له :

- ارويد ، هاك هذا النص دينار اشتر بيه بطل العرق .

لم تكن الأم تعيسة ، لم تكن الشقيقات مسحوقات ، لم يكن عيسى مطروداً من منزله وينام عند شباك السينما ، لم يكن دائم الاختناق وهو ينام على الأرضية حيث الصراصير تتجول في فراش الجدة التي تحتضر ، وفي الصباح يهرول في الشوارع ببطن خاوية ، يحمل الجردل ويغسل السيارات وهم يضربونه على قفاه . (هكذا صور نفسه في واحدة من قصائده المبكرات) .

ومع أنه كان فقيراً وليس جائعاً ، كان طبيعياً ولم يكن محطماً ، مع ذلك صور نفسه في إحدى قصائده القديمة بهذه الصورة الكئيبة : صورة فتى محطم ، بائس ، يعيش حياة فقر

مدقع مع أب سكير يضربه بلا رحمة ، وأم تقيم أود العائلة من الدعارة ، فتى شبه مجرم بالفطرة ، يتمنى الحطام لكل من يحيط به ، فتى يغادر الحياة ولا يغادره الشر .

هكذا كانت صورته وصورة عائلته في قصائده المبكرة ، غير أنه بعد قراءته لسير الشعراء الغربيين وحياتهم ، وعلاقاتهم ، وعلاقة هذه الحياة مع أشعارهم ، غير من صورة العائلة ، فأصبحت أمه «صبرية» في إحدى قصائده ترتدي معطفاً من جلد السمور ، ووالده «إرويد» يدخل إلى القصر ببنطاله الجوخ وسترة الصيد الخضراء على كتفه ، بينما كانت أزرار قميصه الوردي الفاتح كلها من الذهب الخالص!

قلت له من هذا؟

قال : أبوية . . .

آه دادي ارويد . . . قال له منير ساخراً . فبرطم شفتيه ، لأن تعليق الأخير لم يعجبه .

*

في البدء أراد عيسى أن يصور حياته في بغداد على هيئة مختلفة ، صورة من صور الشعراء الأثرياء في أوربا ، أراد أن يجعل من نفسه طفلاً معجزة ، ولد في غرف شبيهة بغرف القصور القوطية ، غرف ذهبية متعددة في القصر ، وهو يتنقل بين صبرية أمه ، وهي جالسة على كرسيها المهاغوني أمام السمك الملون الذي يسبح في الأحواض الزجاجية ، ووالده ارويد بملابسه.الجلدية الثمينة وهو جالس بين خرائط العالم

العتيق ، والكتب المُجلَّدة تجليداً جميلاً ، وفي كل مكان من القصر هنالك نساء شبه عاريات يخدمنهم ، بينما أطباق الطعام الشهي وزجاجات الخمر على كل طاولة في المنزل .

*

مع أن هذه الصورة لم تكن معقولة ، ولا مقبولة ، ولا يمكن لها أن تكون قد حدثت في بغداد أو أي مدينة من مدن الشرق الأوسط ، بأي شكل من الأشكال ، لا يمكن لها أن تكون من هنا أبداً ، ولكنه في البداية دافع عنها دفاعاً مستميتاً ، دافع عن كل حرف كتبه في قصائده في تلك الفترة ، وحتى في فصل الرواية التي تختص بحياته ، فقد كتب أشياء لا يمكنها أن تكون قد حدثت في بغداد ، ربما حدثت في باريس أو لندن أو موسكو ، وليس في هذا العصر مطلقاً ، إنما في عصر سابق ، أي في القرن التاسع عشر الذي كان يعبده .

وحين حاججناه ، منير وأنا ، سخر منا أيما سخرية ، وهددنا بأننا سنكون في عداد المجهولين طوال حياتنا ، وهو وحده الذي سينفلت من قبضة هذا القدر أو المصير الكريه الذي اسمه «محلي» ، قال لنا إننا سجنّا أنفسنا إلى الأبد بكل شيء وطني ، ومحلي وعربي ، أما هو فلا ، فقد انفلت كلياً من هذا المحلي إلى العالمي ، وانفلت من المحدد إلى اللامحدد ، ومن التجريدي إلى التكويني ، ومن المحسوس إلى المدرك ، وإذا تبعناه فهذا خلاصنا ، وإذا اتبعنا -هو- فهذه نهايته ، وصرخ بنا :

ماذا تريدونني أن أكتب؟ عن الدجاج في المنزل ، عن

المرحـاض الطافي ، عـن سكـر أرويد وبسطة صـبـرية . . . عن كويظم وعبيس؟

كـان عـيـسى يعـتـقـد أن هذه الأشـيـاء المحلية ، والأسـمـاء العـربيـة هي غير شعـرية بالمرة ، الأسـمـاء يجب أن تكون جـون وبيير وتوماس ، والنساء جانيت وكلودين وماريبلا ، وهكذا عن الملابس لا بد أن تكون جوخاً وجلد السمور والأحذية من جلد التـمسـاح ، وهنالك القبـعـات والغلايين ورائحة التبـوغ النادرة الممزوجة بالأفيون ، والقمصان البيض الشفافة والأزرار الذهبية ، وهنالك الخيل والعربات والسيارات الغريبة الأسماء والماركات والعناوين ، وكل هذه الأشـيـاء التي يبـرع بهـا مـخلوطة خلطة عجـيبة ببعـضـهـا ، وكل قـصـيدة ولهـا آثارها ومصادرها حسب الشـاعر الذي يقرأه تلك الأيام : من القـرن التاسـع عشـر أم من القـرن العـشـرين؟ من روسـيـا أم من أميـركـا؟ من انكلتـرا أم من فرنسا؟ حتى أميركا اللاتينية ، حتى الأفارقة يأخذهم على محمل الجد ، إلا الأشياء المحلية والمحيطة به . .كان يهرب منها ، يتحاشاها ، ينفر منها على نحو كامل ، يتقزز ، يشتم ، لا يمكن أن تكون هذه الأشـيـاء في عـرف عـيـسى أو في أسلوبه أو في مـخيلتـه شـعـرية أبداً ، لم تكن هذه الأشيـاء تحتوي في ذاتهـا قابليـة أن تكون مكتوبة ، ذلك أن عيـسى يعتـقـد أن المفردات ، الموضـوعـات ، الأسـمـاء ، المناخـات ، بعـضـهـا يدخل الأدب ، وبعـضـهـا الآخـر لا يصلح سـوى أن يكون في الحـيـاة ، أو في الزبالة ، أما الفن فهو حياة أخرى ، حياة فوق ، حياة عاليـة لا

تصعد لها إلا الأشياء التي لها روح الفن ونقاوته .

*

بعد فترة انتبه . . شعر . . أحس . . . صحا . . . لا يمكن . . . أن يكتب هكذا . . . غير معقول ، لا أحد سيصدق ، لا أحد يأخذه على محمل الجد ، ماذا يصنع إذن لكي تكون سيرة حياته استثنائية وعالمية وجنونية أيضاً؟

أن تكون السيرة استثنائية وعالمية وجنونية هذا أمر لا يمكن التنازل عنه ، ولكن أن تكون مطابقة لحياة شاعر في أوربا ، أو في مدينة من القرن التاسع عشر ، هذا يمكن التنازل عنه ، فماذا يصنع؟ بما أن الثمانينات كانت موجة الواقعية السحرية القادمة من أميركا اللاتينية فقد حفزت هذه الموجة عيسى على أن يبحث عن بديل استثنائي بصورة سريعة ، وهكذا سرعان ما استدل على السيرة الأسطورة ، السيرة القادمة من عوالم سحرية ، من أشياء نبوية ، صوفية ، دينية . . طالما هذه المنطقة هي منبع الدين وأصله .

بهذا التفسير سينفلت عيسى حتماً من كل الانتقادات التي وجهناها ، منير وأنا ، له ، سينفلت من الضحك ، سينفلت من السخرية التي كنا نوجهها له كلما سمعنا مقطعاً من مقاطعه السريالية .

لم نكن نضحك فقط ، كان الضحك يهدنا ، كنا نجلس على الأرض من الضحك حين كان عيسى يتكلم عن عوالمه التي اخترعها لنفسه ، عن حياته التي عاشها ، عن تجاربه

الغـرائبيـة وهو طفل ، عن تنبـؤاته ولا تنبـؤات نوسـتـرادمـوس نفسـه ، عن مـغـامراته في قـارات ومناخـات ومدارات لـم نكن نعـرفهـا إلا من خـلال الكتب ، عن أحـداث فنطازية ، عن رؤى وخـيالات ولا رؤى وخـيالات الأنبـياء أنفسـهم ، وكـاد يمر هذا الأمـر مـروراً عـابراً لو كـان يتـحـدد في إطار المزاح والسـخـرية والمعرفة ، ولكن المشكلة الحقيقية في هذا الأمر ، أن عيسى لم يكن يتخيل هذه الأشياء فقط ، إنما كان يعيشها أيضاً بوصفها حقيقة . . . كان عيسى يعيش هذه الأحداث الخيالية بكل حواسه ، بكل مشاعره ، بكل قلبه وعقله ، يعيشها حتى تختلط عليه الأشياء ولا يعرف هل هي حقيقية حدثت أم أشياء كان قد تخيلها فقط فالتبس عليه الأمر .

IV

فصل السيرة

طيب طالما سيذهب إلى أوربا ، طالما سيصبح شاعراً عالمياً ، إذن لن تبقى سيرته كما هي ، سيرة عادية مثل سيرة أي شاعر آخر من أقرانه أو من بلده .

فسألته مرة فيما إذا كانت السيرة إلى هذا الحد هي مهمة ، لتكن مالكاً لأكبر سيرة في التاريخ ولكن هل ستسندك إن لم يكن شعرك هو الذي يسندك ، قال لا . . . ولكن لا يمكن لشاعر عظيم من دون أساس حقيقي يصنع منه ذلك .

*

بعدها أدركت أن عيسى يفكر على نحو مختلف عن كل الذين عرفتهم ، فهو يعتقد أن الشاعر مجموعة من اللوازم التامة والكاملة ، مجموعة من العناصر المتراكبة ، ومن المستحيل على شاعر كبير أن ينفلت من هذه البنية المحددة ، ذلك أن السيرة ليست مهمة فقط إلى شاعر عالمي ، إنما هي أمر لا يمكن تجاوزه بالنسبة إلى شاعر كوني ، ولكن في حالته ، فإن هذه السيرة عليها أن تتنقى ، عليها أن تتصفى ، أن تتغير ، أن تتحور ، وعليه أن يبدأ هو بهذا التغيير والتحوير ، وأن يبدأ به من ولادته ، أو

بالأحرى من والده ، بعبارة أخرى عليه أن يمحو تماماً وجود والده ، لكي تتحقق عندئذ نبوءته!

ذهب تفكير عيسى ذلك اليوم إلى أرويد ، السكير البائس ، إلى أوريد الثمل المسكين في محلة صبابيغ الآل :

كان قد ارتمى في ذلك اليوم من الستينات جنب أمه صبرية ، ارتمى متعباً جداً ، انطرح على حصيرة صغيرة فوق سطح المنزل قرب قن الدجاج ، لحظة ثم غفا من السكر . فتح فمه قليلاً وهو يشخر ، فاختنقت المرأة الشابة التي بجانبه من رائحة العرق الذي يشربه منذ الظهيرة . أدارت ظهرها ساعة ولم تغف ، وحين أدار ظهره هو ، عادت لتعدل من نومتها ، على ظهرها ، انطرحت مستلقية هكذا ووجهها مقابل للسماء ، سماء مثل نسيج حريري معتم ، ونجوم مشعة بضوء ذهبي شفاف ترصعه مثل درر .

*

بقيت الأم ساهرة . .

هكذا تخيلها عيسى ذلك اليوم . . تخيلها وكأنها امرأة غريبة عليه ، لا أمه التي عرفها ، تخيلها امرأة أخرى لا يعرفها ، امرأة بوجه نوراني ستنجب معجزة .

تخصيب

المرأة الساهرة فوق السطح فتحت ساقيها بهدوء ، شعرت بضوء حاد قادم من مكان بعيد ، ضوء ساطع حاد مثل خيط ،

فشعرت بلذة كبيرة لا تقاوم ، لذة كبيرة أكبر بكثير من لذتها مع الرجل البائس المتعب ذي الخيال الضعيف .

كان الضوء حاداً قوياً . . . هكذا تخيلته المرأة المتمددة على السطح في ليلة من ليالي صيف بغداد الندية ، لم يكن قادماً إليها فقط ، إنما كانت تجره جراً في خيالها ، تجلبه لنفسها ، تجلبه ساخناً وملتهباً ، وتلتهب هي قبله ، إنها تتحسسه كما لو كان حقيقة ، فتستسلم له ، بكل روحها وجسدها تستسلم إلى هذه الومضة التي خطفت بصرها وجعلتها تشهق .

نهاية المشهد

شهقت وهي تطبق فخذيها من اللذة ، كانت رعشة قوية رفعت عجزها عن الأرض ، اهتز جسدها كله ، فأغمضت عينيها . عضت على شفتها السفلى ، وشعرت بهزة حقويها هزة قوية . ثم استرخت شيئاً فشيئاً ، بدأت أعصابها تتمدد إلى أن ارتخت تماماً ، فأخذت تسمع نبضها وهو يتردد في جسدها كله ، وكانت الرعشة والسخونة تبردان بين ساقيها ، انطرحت إلى الأرض ، لحظات ثم أدارت ظهرها ونامت .

نتيجة

لم تعرف أنها حبلت إلا في الشهر الثاني .

الجزء الرابع

بورتريت الفنان في شبابه

حدث مرة في الزمن القديم، في أفضل ما كان هذا الزمن القديم
مرة كان موكو يمشي في الطريق فقابل الصبي توكو

James Joyce

I

بورتريت الفنان في مقهى حسن عجمي

لم يكن عيسى وسيماً ، رأسه مفلطح مثل رأس بطاطا ، شعره الكث مغبر لونه ، عيناه ذابلتان تحت النظارة السميكة ، وجسده ناحل .

لقد ولد هكذا ، قبيحاً إلى حدٍّ ما ولكن ليس بشعاً ، ذلك لأنه لا يفتقر للجاذبية أبداً ، ومع أن هذه الجاذبية قادمة من غرابة شكله ، ومن محاولاته لأن يكون على غير ما هو عليه ، إلا أنها أثرت به كثيراً ، فالمظهر الخارجي الذي لا يعني شيئاً نسبة للكثيرين ، أمرٌ مهمٌ جداً بالنسبة إلى شاعر يهتم بالإكسسوارات كثيراً ، وهو لا يعدّه مظهراً خارجياً في واقع الأمر ، ذلك أن لعيسى نظرتين مختلفتين إلى نفسه ، أو بالأحرى هنالك لحظتان تحددان وضعه النهائي نسبة لزاوية نظره ، كل لحظة فيها نظرة مختلفة .

اللحظة الأولى : حين يسير وحيداً في شوارع بغداد ، أو يتخطى ساهماً مفكراً في الشعر ، فإن صورته عن نفسه تنقلب إلى صورة أخرى ، إلى صورة مغايرة تماماً عن الصورة الحقيقية له . فمن جهة لا يستطيع عيسى مغادرة هذا الميدان مطلقاً ، فهو

لا يفكر تقريباً في أي شيء خلاف ذلك . لا يفكر بأي أمر في الحياة ما عدا الشعر . كل شيء لا بدّ أن يجرّه جرّاً إلى ميدان الشعر . فيجد نفسه في هذه اللحظة على خلاف ما هو عليه ، ذلك أن التفكير في الشعر ينقي صورته ، يجملها كثيراً ، يجعلها متناسقة جداً ، يتخيل نفسه على صورة الشعراء الأوربيين الوسيمين الذين يراهم ويقرأ سيرهم في الكتب ، فيختفي هذا الشخص الذي (هو) من نظرته كلياً ، ويظهر بدلاً منه شخص آخر مختلف تماماً .

غير أن هذا الشعور لا يدوم طويلاً أبداً ، فما إن يتوقف عيسى لينظر إلى واجهات المحلات الزجاجية حتى تنعكس صورته عليها ، حينئذ يرى شكله الحقيقي . يرى وجهه على حقيقته وواقعيته . يُفاجأ عيسى بأنفه الكبير ، بفمه ، بعينيه الطامستين تحت النظارة السميكة ، يتملى طويلاً به ، وهو يرتجف وكأنه يراه للمرة الأولى . .

إن كثرة مماهاته لنفسه في صور الآخرين جعلته غريباً كلياً عن صورته الحقيقية ، وعن شكله الحقيقي ؛ لذا فإن مفاجأة عيسى اليومية هي حينما يستيقظ صباحاً وينظر في المرآة . عيسى يفز ، وكأنه يرى نفسه للمرة الأولى .

*

- لم يكن عيسى على صورة عيسى وسيماً أبداً ، ولا على صورة نبي! هذا ما قاله رسام صديق يجلس في مقهى حسن عجمي في شارع الرشيد ، كان قد رسم بورتريتاً له ، في يوم

جمعة ، حيث تزدحم هذه المقهى بالرسامين والشعراء والصحفيين والسينمائيين والفنانين .

جلس عيسى في المقهى على كرويتة خشبية ، مفروشة بحصير ناعم صغير ، من الجهة اليمين مرآة كبيرة ، عتيقة ، تساقط زئبقها فلم تعد تعكس أي شيء ، ومن الجهة الشمال سماورات فضية كبيرة يتصاعد البخار الأبيض من فوهاتها ، وفي الزاوية استكانات الشاي على الصواني ، وقوريات الفرفوري على الفحم ، بينما يصنع دخان النراجيل عاصفة على الوجوه .

عيسى جالس ، ثابت في جلسته . ينظر باستقامة إلى الرسام الذي ينحني أمامه وهو يخط على الورقة المحببة بقلم الفحم خطوط صورته . ومن الزجاجة الكبيرة يبدو شارع الرشيد قذراً قرب الشناشيل التي تقابل المقهى ، ضاجاً بالطنين الذي يتصاعد من الدكاكين ، ومن أصوات الباصات التي تهدر أثناء مرورها ، أما الشمس فقد كانت تخترق بأشعتها الإسفلت ، فتعود حرارته على واجهة المقهى .

ينتظر عيسى أكثر من ساعة أمام الرسام . . . ما إن يعطيه البورتريت أخيراً . . . يصفن عيسى بالورقة مفزوعاً . . . يرميها على الرسام وهو يبرطم شفتيه . .

- ما تشبهني . . .

- عيسى شلون ما تشبهك . . .

- والله ما تشبهني . . ما تعرف ترسم . . روح شوفلك غير

شغلة أحسن لك .

نصح منير أحد الرسامين مرة أن يرسم بدلاً من صورته صورة ممثل من هوليوود ويعطيها له ، قال له :

- سيقول لك عيسى مباشرة نعم هذا البورتريت لي وهذه الصورة تشبهني!

II

القبح الفيزيقي والعظمة الميتافيزيقية!

عيسى لا تعجبه صورته الحقيقية . وهو لا يمتلك أية مصالحة مع شكله أو قبول به أبداً . ليس لأنه على الدوام يتفاجأ به فقط ، إنما لأنه يرفضه من النظرة الأولى أيضاً ، هو بالنسبة له غير شعري بالمرة ، أي لا صورته لا وشكله الخارجي يتلاءم مع وظيفته كشاعر عالمي . إن تفكير عيسى الدائم بالشعر الغربي جعله يخترع لنفسه صورة ملفقة من صور شعراء آخرين في ذهنه .

– هذا الشكل –يشير بإصبعه إلى الصورة المحمولة بيده– لشاعر محلي ، لا لشاعر عالمي !

يريد لشكله أن يكون كما يرى بورتريهات الشعراء الغربيين المرسومة على الكتب ، ولا يقتنع على الإطلاق أن صورة الشخص عن نفسه هي إيهام فقط ، هو تصالح مع الشكل كيفما كان وتقبله كإيهام مصنوع! عيسى لا يقبل بهذا أبداً ، عيسى يريد أن ينظر في المرآة ، وبدلاً من أن تبرز صورته ، يبرز بورتريت الشاعر الإنكليزي بيرس بيش شيلي ملونة ، أو صورة اللورد بيرون بالأسود والأبيض!

عيسى يريد صورة شاعر غربي تظهر له ما إن ينظر إلى وجهه في المرآة ؛ لأنه يشعر أمام كل صورة محلية أو شكل محلي باشمئزاز منفر ، يشعر بحزن شديد ، بكآبة ، كأنه يرى الشيطان بعينه يظهر له في المرآة بدلاً من صورته .

*

بعد سنوات انتبه عيسى أنه لا يستطيع أن يجد لنفسه صيغة جديدة للتعايش مع هذا الشكل ، إلا من خلال قولبته في إطار أسطورة شعرية!

فكر عيسى في نفسه ، قال : هل يمكن صياغة معادلة رياضية عن الأمر؟

إن الشعر في النهاية هو رياضيات ، هو حسبة دقيقة بالكلمات تؤدي إلى نوع من الجمال ، هو خيال يشبه الخيال الذي ابتدع اللوغاريتمات ، هل يمكن صياغة معادلة عن الجمال والقبح تنفع في حياة الشعر والشاعر؟

قال : حسن ، لننظر هذه المعادلة :

إن القبح الفيزيقي سيؤدي بالضرورة إلى العظمة الميتافيزيقية .

أن يكون قبيحاً من الناحية الفيزيقية هذا أمر مؤكد ، أمر يعرفه منذ كان طفلاً ، منذ كان ينظر نظرة الخوف في المرآة إلى نفسه ، فحين يكون وحيداً بلا مرآة ، حينما يفكر في نفسه ، فإنه يتخيل نفسه على شاكلة أخرى ، على صورة مخترعة ومبتدعة في ذهنه وخياله ، ولكن حين يقترب من المرآة فإنه

يتفاجأ على الدوام بشكله ، وبهيئته :

« هذا آني؟ . . ما معقولة . .» .

لذا كان يفكر على الدوام بالاختباء ، كان يتمنى أن يتقي ويتخلص من نظرة الناس إليه ، كان يعتقد أن نظرة الناس له لها صلة ما بدمامته ، هذه الصفة المؤلمة لم تأت من مبالغات مازوخية إنما من معاناة شعرية ، فطالما ولد من لا أب ، وليكن من استمناء أمه الروحاني بمعاناة شعرية وصورة شاعر ، إذن هذا يفسر بصورة كاملة خوفه ورعبه ممن يتفحصه أو يراقبه أو يشعره بأنه مقهور من الآخرين بالنظرة .

شاعر أثيري

فكر في نفسه ، لم لا يكون شاعراً أثيرياً؟

حين ينظر الناس إليه ، عيسى يشعر بأنهم ينظرون إلى قبحه ، إلى دمامته ، إلى عدم اتساقه .

إنه شاعر ، نعم ، ولكنه ممسوس حقيقي بجسده . يفكر بالأنف الكبير الذي يحتل أكثر مساحة وجهه ، إلى العينين الصغيرتين الطامستين خلف النظارة السميكة ، إلى البشرة الخشنة المشعرة ، وإلى الأذنين المنغرستين مثل آذان الفطر على الجوانب ، وفي الليل يفكر بهذه النظرة الراسخة القوية التي تقهره في النهار ، وتشعره بالدونية .

*

لقد شعر في تلك الفترة بأنه مقهور من نظرة الناس ولا

يمكنه أن يتفادى هذه النظرة .

كيف يخفف من عذابه وآلامه إذن؟

عليه ، قال عيسى في نفسه ، أن ينظر إلى الناس من فوق ، أن ينظر إليهم بطريقة متعالية ، وكذلك عليه أن ينظر إليهم بطريقة مهيمنة . إن أعظم الأشياء التي كان يبغيها عيسى في حياته ويريدها أن تتحقق هو أن يكون لامرئياً . ولكن كيف يمكن له هذا؟

مر عيسى من الحوانيت الكثيرة على طول شارع الرشيد مستمتعاً هذه المرة بأن يرى صورته على الواجهات الزجاجية شفافاً أثيرياً . إذن ، قال عيسى في نفسه ، شيء واحد لا يتحقق في حياة الشاعر أبداً أبداً ، الشيء المستحيل هو أن يكون الشاعر مثل الشعر ، أن يكون شفافاً ، أن يكون لغة غير ممسوكة ، أن يكون خيالاً ، أو أن يتطاير في الأثير .

هل للشاعر أن يحلق مثل الشعر بعيداً صوب كل شيء بعيد ، هل للشاعر أن ينظر إلى الأرض نظرة اختزالية يريدها الشعر ويرغبها ، هل له أن يصعد ، ويتسامى ، ويتبخر؟

هل يستطيع الاختباء؟

*

هو يرغب بذلك ، يريد أن يحقق هذا الأمر ، لكنه مستحيل ، كيف يكون لامرئياً ، كيف يكون موجوداً لا بوجوده إنما مخلوقاته هي التي تدل عليه ، شعره هو الذي يكشف عنه ، أما هو ، فهو أثيري ومتطاير ، موجود وغير موجود ، كائن ولكنه

غير مجسم ، بشر لكنه بلا شكل ولا ملامح؟

مراقب ومعروف

يمكنه أن يكتب قصائده باسم عيسى فقط ، وبالفعل فقد كتب على قصائده من أعلى : عيسى .

لكنه كان يريد الاختفاء تماماً وعدم الظهور أبداً .

كانت هذه الرغبة الكبيرة في داخله تتعرض إلى عطب كبير كلما فكر أنه في العراق . كان يعرف أنه مراقب ومعروف ، أنه معلوم لا من قبل الناس أو القراء فقط ، ولكن على الأقل من قبل السلطة . السلطة تعرف به أين ينام ، وماذا يأكل ، وماذا يشرب ، وماذا يقرأ أيضاً . .

السلطة هي المتلصص الأكبر ، هي التي ترقب الناس دون أن تظهر لهم مباشرة ، هي الشاعر الأكبر الذي تدل أعماله على وجوده ، هي المتلصص الذي يعرف كل جالس في حمامات وتواليتات بغداد ، السلطة تعرف كل شيء وتدرك كل شيء ، ومن الصعب عليه أن يكون مختبئاً أو أثيرياً أو خفياً ، ولكنه بإمكانه أن يكون متلصصاً بطبيعة الأمر .

التلصص أو المتلصص الكبير

في تلك الفترة تعمقت لدى عيسى رغبة كبيرة في أن يتلصص على الآخرين كي يشعر بأنه يرى ولكنه خفي وغير مرئي بالمرة . .

رغبة تصاعدت بقوة في داخله ، رغبة حادة ومتفجرة في داخله لا يمكنه أن يخفيها أو الخلاص منها ، رغبة أن ينظر إلى الآخرين ، من يعرفهم ومن لا يعرفهم من ثقب الباب . . إنها رغبة البصاص الأبدي ، رغبة المتلصص ، وهذه النظرة كان يراها قائمة على غرار نظرة السلطات ، السلطة الأمنية من قبل الدولة ، أو من المجتمع . .

فاصلة

أنا أعتقد أن هذه الرغبة كانت قد نمت بشكل عنيف عند شعب بأكمله ، ولا سيما في عراق الثمانينات .

كان هنالك شعور عام عند الجميع بأن الدولة تراقبهم ، وتتجسس عليهم ، كانوا يعتقدون أن أعين البوليس الحادة تنظرهم من ثقوب الأبواب ، ومن زجاج السيارات . كان هنالك خوف ورعب دائم بين الناس على أنهم مراقبون ، تلفوناتهم مراقبة ، سياراتهم مراقبة ، غرف نومهم مراقبة ، حتى النائم مع زوجته كان يتخيل هنالك في زاوية من زاوية الحجرة كاميرات تصوره وهو عار مع زوجته .

راجت إشاعات في الثمانينات ، إشاعات في كل مكان ، مفادها أن الدولة تضع كاميرات سرية في كل مكان من البلاد :

كاميرات في غرف المتزوجين ، في الفنادق ، في الحمامات ، في المراحيض ، في السيارات ، في العمارات ، في الأبنية ، وهنالك كاميرات في المحلات ، وكل واحد يشلح

بنطلونه أو لباسه ستكون له صورة في الأمن العام .

وهكذا اشتعلت رغبة الشعب في أن يبصبص واحد على الآخر ، أن يتلصص كل شخص على الآخرين . . إنها رغبة البصاص الأبدي والتي تنتعش في البلدان التي تحكمها أعين المراقبة والمعاقبة .

عيسى والنظرة

كان عيسى يدرك هذا الأمر جيداً . . يحس به ويشعر به بقوة . . بل وبصورة مبالغ بها أحياناً .

كان يشعر بأن كل حركة من حركاته مرصودة . كل ما يقوم به هو معروف . كل نأمة ، كل كلمة ، كل إشارة محسوبة عليه . من هنا اشتدت عنده رغبة المراقبة ، مراقبة الآخرين ، والتلصص عليهم ، ومعرفة أسرارهم ، ومتابعتهم . ومن جهة أخرى ، كان عيسى في الإطار الشعري الذي يهمّه جداً يعتقد أن هذه المراقبة ، أو البصة ، أو النظرة ، أو اللصلصة . . تجعله أثيرياً ، متسامياً ، غير مرئي مثل الشعر بالضبط . لقد آمن ذلك الوقت إيماناً لا لبس فيه ، بأنه سيصبح بهذا التلصص لا مرئياً وخفياً تماماً ، لقد آمن أنه سيذوب ، سيتلاشى ، سيتطاير ، فتغمره لذة ما بعدها لذة .

– إنها لذة حقيقية! هكذا قال في نفسه .

إنها لذة حقيقية لأنها مختلفة تماماً عن لذة الشعب البدائية البسيطة ، حيث يجد الشعب متعته في النظرة السرية

ذاتها ، أو من الشخص المنظور إليه فقط ، بينما لذة عيسى لا تأتي من النظرة السرية ولا مما يرى ، إنما من لذة أعظم بكثير ، لذة تتفجر من كونه خلف الباب ، من كونه ناظراً لا منظوراً إليه .

*

في الواقع . .كان عيسى قد جرب متعة هذا النوع من المراقبة مذ كان طفلاً ، حينما كان يراقب نساء المنزل الذي قطن فيه مع عائلته في صبابيغ الآل ، فهنالك على الدوام أربع عائلات أو خمس في نزل واحد . كل عائلة مؤلفة من عدد من النساء والرجال . وكلهم يستخدمون تواليتات مشتركة ، حمامات مشتركة ، ومطبخاً واحداً مشتركاً .

وقد أخذ يشعر ، تلك الفترة ، أن هذه الأجساد التي يرقبها ليست ذات قيمة بحد ذاتها على الإطلاق ، إنما القيمة الحقيقية التي كان يتوخاها هي في المراقبة ذاتها ؛ أي في الشعور الذي يتولد لديه من اختلاسه النظر إلى أجساد تشعر بأنها غير مراقبة ، ولذلك تترك نفسها لطلاقتها .

عيسى الطفل على السلم

يجلس عيسى الطفل على السلم ، يتظاهر بأنه منشغل بدفتر يرسم به بقلم ملون ، في الحجرة المقابلة تتمدد بانو زوجة خورشيد على جودلية مفروشة على الأرض . كانت نائمة وهو يسترق النظر إليها من وقت إلى وقت . كانت بانو تتقلب على

الفراش وقد انحسر الثوب الأسود عن سيقانها ، أفخاذها البيض متروكة لطلاقتها ، عيسى ينظر ويشعر بلذة وتنمل في كل أطرافه .

بانو تتقلب وينحسر ثوبها عن جسدها وهو ينظر من الباب الموارب ، حتى وصل انحسار الثوب إلى أعلى وقد ظهر الجزء السفلي من الكالسون الأحمر ، فهيجه ، عيسى ينظر الصدر ببضاضته وقد برز أعلاه المكورتان من شق الثوب . بانو نائمة بلا سوتيان ، شعرها الأشقر الكث على الوسادة ويداها البضتان مفتوحتان .

فجأة خرج خورشيد من الحجرة ، نظرتاهما التقتا معاً ، نظرة عيسى الطفل وخورشيد الطويل الواقف أمام الحجرة وقد حجزت سيقانه نظرات عيسى عن بانو النائمة . هبطت نظرتا عيسى إلى الدفتر أمامه ، بينما تحرك خورشيد واختفى من الباحة بعد أن أغلق باب الحجرة الأسود وراءه .

نهض عيسى من السلم وهرع إلى حجرة أهله وأغلق الباب وراءه .

عودة صغيرة للمراهقة

في مراهقته كانت مشكلته تتركز في أنفه ، لم يكن أنفه خافتاً ومعتدلاً مثل أقرانه إنما كان فخماً خيالياً متجبراً . كان ببساطة شديدة دكتاتوراً ولذلك أقلقه كثيراً ، كان يرى والده الذي أنجبه ، وأمه ، وشقيقاته كلهن ، كل المنزل أكثر حظاً ؛ لأن

الجميع له أنف غير محدد بالمرة ، وعاطفي ، كل شيء فيه يمس الحياة الحقيقية ويقترب منها إلا هو . لذلك شعر بأن مراهقته غير السعيدة كانت سجناً كبيراً يقف على بابه دكتاتور عملاق هو أنفه ، ولم يكن يشعر بقوة وضخامة وعنف وتسلط هذا الأنف إلا أمام بانو زوجة خورشيد وجمالها الذي لا يصدق على الإطلاق .

*

كان المنزل في صبابيغ الآل عتيقاً جداً . أمامه حديقة كبيرة ، وهنالك بالكونات تطل على الشارع ، ويقطنه الكثير من الأكراد الفيلية .

تدخل بانو إلى الباحة . تواجهه بوجهها البيضوي . بياضها الناصع ، شعرها الأشقر الذي تلفه وراء عنقها بربطة وردية تهاجمه . فيخفض وجهه مباشرة إلى الأرض . لم يكن قادراً على رفع وجهه أمامها ، لم يكن قادراً على النظر في عينيها العميقتين اللتين تومضان بلمعة .

كان ينظر إلى الأرض أمامها ، في حين أن حمرة وجهه وضربات قلبه التي توجعه لا شفاء لها .

يرفع عينيه قليلاً فتنكسران بالسواد الشفاف الذي يبرق ، في النسيج الناعم الذي يلف صدرها النافر .

كان يقف محمر الخدين ، يقف متوقداً ، متعرقاً ، مرتجفاً ، بينما تتلبث بلحظة واحدة وهي تشعر باهتزازه وارتجافه وتلجلجه ، تشعر بشفتيه الجافتين وأنفاسه المتدافعة وهو ينشق

عطرها ، وحرارة جسدها اليقظ ، وتسأله عن دروسه .

لحظة يرفع رأسه قليلاً فيشعر بصدمة الصفعة الأولى في أنفه ، يشعر بضخامة أنفه وهو يرتفع أمامها إلى أعلى . يشعر بوقع الإهانة وسخونتها فيهبط وجهه إلى الأرض مرة أخرى ، وكانت لا تتركه هكذا ، بل تلح عليه في السؤال كي يرفع وجهه بوجهها ، فيشعر بأنها تريده أن يواجهها بأنفه لكنه لا يستطيع . يهرب منها ويتوارى عن الأنظار .

*

إن هذه اللحظات التي مرت بمراهقته صنعت منه شاعرا بالتأكيد ، فكان الأنف الكبير واحداً من أعنف المخلوقات التي جعلت منه شاعراً متدفقاً ، ومن نداءاته العاطفية البسيطة نداءات محرقة ، من بهجته المكتومة قصائد بارعة . إنه الأنف الكبير الذي جعله سيرانو دو برجارك سبباً لشاعر كبير ، الآذان المنحنية التي خلقت شاعرا كبيراً مثل السياب ، الدمامة التي خلقت كل العبقريات في التاريخ ، لا بد أنها كانت سبباً معقولاً في صناعة شاعر كبير ، شعر أن الكلمات يمكنها أن تحقق له ما لا يمكن تحقيقه في الواقع ، شعر بهذا الأمر أول مرة أمام بانو ، وآخر مرة أمام نازك .

III
تعرف عيسى على نازك التركمانية

حين تعرف عيسى على نازك شعر بهذه اللذة وقد تفجرت سريعاً ، تفجرت على رؤيته لنازك الشبيهة بزوجة خورشيد جيرانهم في صبابيغ الآل والتي كان عشقها وهو طفل ، وسيطرت على عقلة بصورة متسلطة . في البداية كانت لذة المراقبة أو التلصص تستبنى على نوع من أخلاق السعادة ، على شكل من أشكال الرفاه ، على صورة طبيعية من الأمل بالمراقب وفرح بوجوده ، كانت تأتيه من كونه يرد على من يراقبه بمراقبة آخرين حتى ينشغل بالمراقب وينسى أنه مراقب مثله .

ولكن بعد مدة ، وحين بدأت روح عيسى الخلافية ونزعته النقضية تشتد مع نازك ، تحولت هذه الروح إلى شكل من أشكال الانتقام والعداوة .

سقطت هذه اللذة الطفلية ، وحلت محلها روح عيسى العدوانية فجأة .

روح البصاص الأبدي بدأت تتحول من شكلها الأول كما كانت إلى لذة أخرى ، أعظم بكثير من اللذات الأخرى والسابقة ، ولا سيما مع نازك .

نظرة

نهضت نازك من مكانها وتوجهت نحو الحمام . دخلت وأطبقت الباب .

نهض عيسى من مكانه ، وتسلل على أصابعه ، وقف وأخذ ينظر من ثقب الباب . وقفت نازك ، انتظرت قليلاً ثم رفعت تنورتها إلى أعلى ، خلعت كالسونها فوصل حتى ركبتيها ، وجلست .

نظرة أفقية من عيسى ، أظهرت وجهها المحايد دون تعبير ، ويديها اللتين تحضنان تنورتها من عند الخصر . ركز عيسى تماماً على وجهها ، صفنت أول الأمر ثم تركت عينيها تغمضان قليلاً ، وتلوى فمها ثم عاد إلى مكانه الطبيعي وقد سمع صوت شختها .

شعر عيسى تلك اللحظة أنه في قمة لذته ، هذا الوجه ، وجه نازك وهي تبول رسمه عيسى في ذهنه بقوة ، حفره حفراً ، جعله مثل خط من التيزاب على راحة اليد لا يمحى ولا يزول أبداً ، رسمه ليتذكره دائماً وأبداً ، رسمه في ذهنه ليستعيده كلما يتشاجر معها ، فيشعر بأنه انتقم منها .

عيسى الشاعر

عيسى الشاعر هكذا كان يصف نفسه ، ولكن ما هي صفاته؟

كان من المستحيل على عيسى مثلاً أن يجعل الآخرين

ينظرون إليه وهو يبول أو يتغوط . .

شاعر يبول . . شاعر يتغوط . . . ؟ هكذا كان يقول لي .

كان هذا الشيء مستحيلاً عليه ، لم يكن يريد أن يستسلم لفكرة أن الجسد أي جسد يمكنه أن يبول أو يتغوط .

في البداية حين كان يرى امرأة جميلة جمالاً رائعاً وأنيقة جداً ، وتضع عطراً خفيفاً يضوع في الهواء ، وتسير بهدوء كان يتصورها بمنأى عن كلّ قذارة ، ولا سيما قذارة البول والبراز ، ولكن لو دخلت هذه المرأة إلى التواليت أمامه فإنه سيصعق بقوة ، سيشعر برائحة بولها وبرازها وهي تدخل إلى أنفه بقوة ، ويدرك بأنه يريد أن يصرخ عالياً أن الجمال الذي نغالي بتقديره لا يساوي شيئا في الحقيقة ، إنه امتداد للأعضاء الجنسية التي تبول وتتغوط .

نظرية عيسى

هذه المشاعر لم تتوقف أبداً ، كانت تنمو ، تتطور ، تصعد ، تتحول من شكل إلى شكل آخر ، تغير نفسها من وقت إلى وقت ، وقد شعر بها وهي تغلي في جسده ، لا لأنها مختلفة كلياً عما هي عند غيره فقط ، إنما لأنها مختلفة عن الآخرين باختلافه هو ، واختلافه هذا ناتج بصورة طبيعية عن الفن ، وهكذا لم يرغب بإخفائها إنما رغب بإعلانها ، وتظاهر بها بين أصدقائه .

لقد شعر بها ذلك الوقت أنها قادمة من الفن أولاً .

ثانياً تمنحه هذا الشعور المريح بتطابقه مع الشعر ، أي تطابق الشاعر مع الشعر .

لقد شعر عيسى ذلك الوقت أنه مثل الشعر غير مرئي ومتسام وأثيري ، إنه استعارة أكثر مما هو حقيقة ، وبالتالي سيتطابق وجوده الكلي مع وجود الشعر ، ويشعر بأنه الاتحاد الذي لا انفصال فيه معه .

ثم جعلته هذه النظرة التي تستفز وتجذب مكتشفاً خطيراً لسر من أسرار وجودنا ، شيء نفعله ولكننا نخفيه ، ما هو؟

إنه التواليت بطبيعة الحال . .

التواليت قائم على الخفاء ، على التعتيم ، على السر ، ذلك أنه توحد أولاً ، وأنه صغير الحجم ، ومعتم قليلاً يشبه السجن ، وهو متوار عن الأنظار ، ولكنه مهم ويقع في صلب حياتنا ، كما أن الناس شيدوه هكذا ليلووا بوجوههم كما يحلو لهم ، ولا أحد ينظر إليهم ، وإن كان تلصص وبصبص فقد عرف السر بقوة وأدركه ، وتمكن منه .

ولكن مثلما كانت هذه النظرة قوية ومهمة في حياة عيسى ، إلا أنها مدمرة أيضاً . كيف؟

لقد كان عيسى يشعر بأنه مراقب بنظرة حاضرة في كل مكان ، كان يقول في نفسه إذا تلصصت على الآخرين ما الذي يمنع الآخرين أن يتلصصوا علي . .

هذه الفكرة جعلت عيسى لا يجرؤ على دخول حمام أو تواليت أو حجرة نوم دون أن تعذبه فكرة أن هناك نظرة من ثقب

موجود في المكان تلاحقه ، نظرة شخص حاضر وموجود ولكنه متخفٍ ومتلاش وغير مرئي ، نظرة عليه أن يتحملها طوال حياته ، نظرة قاسية ساخرة أصبح التبول معها والتغوط والأكل والنوم أشياء غير ممكنة البتة .

نظرة متبادلة

لقد تحولت هذه التجربة إلى هاجس لحوح يعذب عيسى ، كما أنه عاد إلى هذه الفكرة مرة بعد مرة ، حتى تسلطت عليه ، وأصبحت وسواسه كله .

كلما شعر عيسى بأنه غير منظور ، وأنه غير مرئي أبداً ، وهو شفاف ومتطاير ومتسام ، مثل الشعر ، مثل الفن ، أثناء لحظة المراقبة ، شعر بالراحة الكبيرة ، إلا أن هذه الراحة ستتبدد سريعاً ، ففي الوقت الذي لا يرقب فيها أحداً ، تتحول حياته إلى وسواس ، من كونه منظوراً ومراقباً من قبل الآخرين .

لحظات لصلصته على الآخرين قليلة ؛ ولذا فإن لحظات تساميه وتطايره قليلة أيضاً ، فبعد اللصلصة التي لا تدوم طويلاً هنالك حياته التي تدوم طويلاً ، هناك جلوسه ونومه ومشيته وحياته الطبيعية التي لم تعد طبيعية ، كان يقول في نفسه طالما أن الآخرين يستفزونه بمراقبته لهم ، فإن جسده أيضاً سيستفز الآخرين ليراقبوه وينظروه ويتلصصوا عليه .

وإذا تلصصوا عليه هذا يعني أن العلاقة بين جسده وقذارته ستنكشف للآخرين ، وسيتوقف أن يكون شاعراً متسامياً . فهذه

العلاقة بين الجسد وقذارته ، هذه العلاقة الطبيعية عند الآخرين هي علاقة مريبة ومشكوك فيها عند عيسى ، فحين ينظر إلى الناس يكشف هذه القذارة فيهم ، وهذه النظرة التي تبعده قليلاً عن جسده والتفكير في علاقاته أصبحت هاجسه ، أصبحت هذه النظرة التي تبعده قليلاً عن جسده هي ذاتها التي ترده إلى جسده ، من كونه هو الآخر مرئياً ومراقباً ، وإن كانت في البداية تتحدد وبشكل كامل مع دمامة خلقه ، وشكله ، إلا أنها أخذت تكبر شيئاً فشيئاً .

IV
تلصص سياسي

في دولة المراقبة ، لا يمكن لعيسى أن ينفلت من عيون الآخرين ولصلصتهم . وبالتالي فهو مثل الآخرين مراقب ومشهود ، ومحدود ، ومعرف بجسده وبقذارته ، ولا سيما البراز والبول والأكل والنوم والشخير وكل الأشياء الأخرى التي تخجله ، أما التطور الحاسم في وساوس عيسى فقد كان شعوره بأنه مراقب من قبل مخبرين سريين ، من قبل مخبرين دفعتهم السلطات السياسية لمراقبته والتجسس عليه .

مرة التقيناه صدفة ، منير وأنا ، في حفل موسيقي في قاعة الرباط ، أقامته الفرقة السمفونية الوطنية .

وصلنا المكان ، قطعنا التذاكر ، ثم جلسنا في مكان قريب من الأوركسترا ، كانوا يعزفون البوليرو لفيردي ، وقد اشتهرت تلك الأيام . بعد مرور خمس دقائق تقريباً طلب منا أن نغير موقعنا ، وقال إنه مراقب من قبل المخابرات .

في البداية صدقناه . أنا أيضاً خفت . منير ارتعب هو الآخر .

بعد دقائق غير مكانه وابتعد عنا . ثم جلس في الخلف .

ثم عاد وجلس بالقرب منا . وفي جلسته بدا متضايقاً جداً ، وهو يتلفت يميناً وشمالاً طوال الوقت . لقد شعرنا أن حركاته قد شلتنا تماماً ، ومنعتننا من متابعة الموسيقى أو الاندماج بها . وحين خرجنا في الاستراحة إلى الباحة الداخلية للقاعة ، كان هنالك عدد كبير من الناس الذين يرتدون ملابس رسمية ، نساء بتسريحات وملابس راقية ، وكنت نعرف العديد منهم ، ولكن كلما وقفنا مع أحدهم تركنا وذهب بعيداً عنا ، مما يضطرنا أن نترك محدثنا والاعتذار منه ومتابعته . وحين توقفنا في الزاوية أدار عيسى رأسه دورة أو دورتين ثم لكزني بكوعه ، وأشار لشخص يرتدي بذلة كحلية يقف مع امرأة كبيرة في السن . قال هامساً إن هذا هو رجل المخابرات الذي كان يراقبه في القاعة .

قال له منير : مستحيل . . . هذا الشخص أعرفه ، اسمه صلاح وهو عازف سكسفون ، أعرفه من أيام المدرسة .

فأدركنا ذلك اليوم أنه واقع تحت وسواس خطير ولا سيما بعد أن أصبح يلتقي بجماعة بهية ، وكان ذلك قبل أن يهرب من الجيش .

*

لم يكن عيسى سياسياً أبداً ، ولم تهمه السياسة على الإطلاق ، لم يهتم بما يحدث في الخارج أبداً ، إنه يعيش حياته برمتها في الداخل ، ما يهمه حقيقة وواقعاً ، هو ما يحس ويشعر به بشكل آني ، وما يشعر به هو حاجاته الخاصة ، لا

حاجات الناس ، لا أمور الفقراء وحياتهم ، ولا البرجوازيون وأملاكهم ، ولا الأحزاب ولا الدين ولا أي شيء من هذا القبيل .

ما كان يهمه هي تلك الأشياء التي كان ينظر نحوها المثقفون على أنها تفاهات ، طالما هي لا ترتقي للفعل في التاريخ ، بينما كان عيسى يسخر من كل فعل في التاريخ . .

عيسى شاعر.. وكفى

ما كان يهمه ، هو ما يخص الشعر والشاعر .

لقد كرس عيسى نفسه للشعر بوصفه الحقيقة الوحيدة على هذه الأرض . وبالتالي لم ينشغل على الإطلاق بما كان يدور حوله من إيديولوجيات ، وحركات إسلامية أو شيوعية أو قومية ، وإن كانت السلطة تشتبك بعلاقات معقدة مع الناس ، وكان الأخيرون يشعرون شعور الكراهية إزاءها ، وهو موقف عام ومشترك محركه الحرية لا السياسة ، مع ذلك كان عيسى متحرراً تماماً من هذا الموقف ، كان متحرراً حتى من مشاعر الكراهية إزاء السلطة التي تمارس الإرهاب ضده ليل نهار ، كما أنه لم يكن في داخله نوع من الندم ، أو عذاب الضمير ، أو الشعور بالإثم ، بسبب أنويته وكرهه للجماعات ، وللهويات الجماعية .

كان عيسى فرداً بامتياز ، وفرديته تمنعه من ممارسة أي نشاط سياسي ، بل كان يسخر من أولئك الذين نطلق عليهم

بالملتزمين بموقف سياسي ، ويسخر من أولئك الذين يمتدحون السياسة أو الذين يتبعون الجماعية السياسية ، والذين يؤمنون بالعقائد أو يدعون إليها ، كان يجد نفسه جزءاً من الأفراد المسلوخين عن المجتمع ، وقد هدم في نفسه أي نوع من التبعية المتبادلة بين الأنا والعالم المحيط به .

V

عودة إلى نازك

دخل الميدان الدائري الذي تتلاقى فيه عدة شوارع جانبية في الوزيرية ، كان الشارع الرئيس مظللاً بالأشجار وقد ألقت الشمس بأشعتها في الفضاء ، فاشتعلت الخضرة بوهج يقظ ومرح .

شعر عيسى هذا لا في الأشجار أو حركة السيارات أو النساء اللواتي يسرن في الصباح إلى أعمالهن ، إنما في زقزقة العصافير وهي تتطاير بخفة مندفعة بين الأشجار التي تظلل الشارع .

وقف في هذا الصباح الشتائي المشمس أمام جذع شجرة متلو ، وقد شعر بوحشة تضغط عليه ، شعر بشيء لا يمكن أن يرده . بشيء ملح ، قديم ، يصحبه على الدوام .

لقد كانت صورة نازك هي التي تلح عليه تلك الساعة . هل هذا هو الحب؟

هذا الحب وحده الذي يلح عليه ، لقد شعر بأنه يموت ولا شيء آخر ؛ لأنه بعيد عنها ، ولكنه كان يعرف أيضاً بأنه لو التقاها الآن لكرهها ، وتمنى أن يبتعد عنها ، ولم يكن هذا الأمر

مسلياً بطبيعة الأمر ، وهو يرى نفسه بهذا القدر من المراهقة ، والمراهقة وحدها التي يمكنها أن تفسر مشاعره ، تفسر كل هذه الخيالات ، والآلام والحديث الذي لا ينقطع في حلم يقظته ، تفسير عاطفيته وصبيانيته وحقيقته المراهقة . .

هذا الشيء وإن كان غير محدد ، وغير عاطفي بالمرة ، ويقترب من الحلم ، ومن النداء المكتوم ، ومن العاطفة اللاذعة ، مع ذلك يجعله خفيف الوزن ، يجعله خفيفاً يطفو على كل ما هو غائب في حياته . . .

*

ليس عبثا أن تقع امرأة أية امرأة في غرام شاعر ، ولا سيما عيسى ؛ إذ لا بد أن تكون هذه المرأة مميزة .

لو أردنا الحديث بشكل واقعي عن حياة نازك بالمقارنة مع حياة الشاعر نجد أن حياتها كانت أكثر غنى وتفوقاً بكثير من حياته ، فقد عاشت في منزل خالها جوار منزل جدها وأولاده وبناته ، وفي المنزل المسور بسياج من الحجر في منطقة المصلى ، وهو حي التركمان في كركوك . عاشت نازك وهي تلعب مع أطفال صغار من الأكراد والعرب تحت تعريشة العنب التي تغطي الطرمة كلها ، التعريشة المورقة والتي تظلل الباحة من الشمس ، من الأولاد الذين يلعبون معها عرفت بعض أسرار الجنس .

*

كان بارام ابن جيرانهم أكبر منها قليلاً ، وكان يأخذها وراء

السور ، فيحيط بجسدها من الخلف ، فتحس بانتصابه وتحمر قليلاً . كانت تريده . تلبث هادئة أمامه . تتحسسه ، تتحسس جسده . صلابته ، تقرب وجهها منه وتتنشق رائحته الذكورية . تشتهيها ولكنها تبتعد عنه .

*

حي المصلى ، حي التركمان في كركوك هو جذوة ذاكرتها المتوهجة على الدوام . لقد عاشت بين منزل خالها ومنزل جدها . في الشارع ١٥ الذي يموج بحركة النساء والرجال معاً ، بالثرثرة العالية ، بضحك المراهقات في الطريق ، بعراك الصبيان فيما بينهم ، بحديث الطبيخ بين الجارات ، بزيارات الأقارب والضيوف ومعاكسات المراهقات والحكايات من ألف نوع ونوع .

في مراهقتها أصبح لديها الكثير من الصديقات خارج المحلة : كرديات ، أثوريات ، عربيات . كن يذهبن إلى سوق البنات في تقاطع شارع تسعين ، فيشترون الدوندرمة من عمو أورخان الأشيب ، بشواربه المصفرة من التدخين ، وهو يرتدي شرواله الداكن المربوط بحزام عريض على الوسط . وكانت تشتري البرتقال من الفلاحين الذين يضعونه في السلال الخوص المجدول ويحملونه على رؤوسهم ، وكانت تقف هناك أمام بوتيكات الملابس ، تتغامز وتضحك مع الشباب الذين يرتدون البنطلونات الجينز والقمصان الأنيقة ويصففون شعورهم على الموضة .

*

بعد طلاق والدتها من والدها ، عاشت نازك مع أمها في منزل خالها .

كانت تستيقظ أحياناً مبكرة من نومها على السرير الحديدي الذي تنام عليه أمها في الحجرة الفوقانية وتجري إلى باب حجرة خالها وزوجته .

تطرق الباب بخفة ، ثم تفتحه ، تجد خالها قد غير ثيابه وارتدى ملابسه العسكرية ، بينما زوجته في المطبخ تعد فطوره . يبتسم لها . يحملها بيديه ، فتلعب بأصابعها الناعمة بالنجمات الذهبية على كتفه . ينزلها إلى الأرض . يقف أمام الدولاب الذي يحمل المرآة الطولية الكبيرة ليضبط قيافته .

حجرة خالها أكثر ما يشغل نازك في طفولتها . إن كانت ضيقة ومحصورة ، إلا أنها واسعة في ذاكرتها . تشعر إلى الآن برائحة الجنس في السرير المفروش بالساتان اللماع ، وفي الوسادة القطنية العالية واللحاف الأحمر الداكن .

وحين يهبط خالها من الحجرة الفوقانية تهبط معه إلى الصالة . تلعب على السجادة الخضراء ، قرب الطاولة الخشبية الموضوعة في الزاوية ، والتي تحمل المصباح المغطى بالشيد الأبيض .

*

تدخل زوجة خالها السمراء بوجهها المدور ، وبشفتيها المكتنزتين وعينيها الشهوانيتين ، وهي ترتدي قميص النوم الأبيض وفتحته الواسعة عند الصدر . أفخاذها الناعمة ،

كالسونها الأسود يتراءى من وراء الثوب الأبيض الشفاف .
ثوب العروس .

تدخل وهي تحمل الصينية ، فتقبلها وتعطيها بيضة مسلوقة ، وكوب حليب .

تجلسها في حضنها فتشم فيها رائحة العروس الأنثوية الدبقة ، رائحة الجنس اليقظ ، رائحة الصابون المعطر مختلطة برائحة الأسبرتو والدملوغ المنبعثة من الأثاث .

*

عرفت أشياء كثيرة من صديقاتها الأكبر منها في السن ، وقرأت روايات عديدة ، واستعارت مجلات نسائية ، وصحفاً . وحصلت من صديقة لها على مجلات خلاعية تركية ، كانت تخبأها في دولابها . وتتفرج عليها في الليل ، حين ينام الجميع في المنزل .

*

في منزل قرياقوس الآثوري وبناته أكلت في عيد رأس السنة الميلادية الديك الرومي المحمر ، وشربت النبيذ المسكر ، ورقصت حتى الصباح . وفي تلك الفترة حين كانت تذهب إلى زيارة والدها في شركة نفط الشمال تعرفت على إحسان الشاب التركماني من آلتون كوبري ، كان يعمل في الصباح في محل للتصوير في شارع تسعين ، وفي المساء في مسرح المدينة .

أخذت تذهب معه للمرة الأولى في حياتها إلى المسرح :

كان فسيحاً ومعتماً ورطباً . أرضه مبلطة ببلاط داكن . أعمدته حجرية وعالية .

وعرفت الممثلين المسرحيين ، وهم أناس غامضون يتحدثون كثيراً ، ويرتدون ملابس غريبة ، ويجلسون على الأرض دون أن يهتموا كثيراً لهذا الأمر ، وكانوا يتحدثون بأشياء غير مفهومة ، ويحملون الكتب تحت آباطهم .

*

هكذا عاشت في منزل الخال الضابط الحنون ، والجد الذي كان يعمل نجاراً في شارع محلة المصلى في كركوك .

في دكانه المزدحم بالأخشاب والكراسي والدواليب والأسرة والطاولات والمناشير والمسامير ، دخلت نازك مرة وهي صغيرة ، كان جدها على الرغم من كبر سنه يحمل المنشار بيده ويشق لوحة الخشب الكبيرة الموضوعة على مسند خشبي أمامه ، إلى اليوم لا تفارقها صورته ، ووجهه الأبيض الشاحب ، وجه تركماني عجوز ، أذناه الطويلتان ، جراويته الموضوعة بثبات على رأسه ، بنطلونه الأسود المرفوع إلى الخصر ، قميصه الأبيض الذي كف كميه إلى الكوع ، وقلم الرصاص الموضوع خلف أذنه .

ما تتذكره ولا تنساه أن جدها هو الذي صنع لها مكتبة وضعتها في زاوية حجرتها ، مكتبة وضعت بها المسرحيات العربية والأجنبية التي أحبتها . وخبأت فيها المجلات الخلاعية التي كانت تستعيرها من صديقاتها في المدرسة ، تتفرج عليها

في الليل بعد أن ينام الجميع . ولم يدرك أحد في المنزل خطورة هذه الكتب والمجلات ، إلا حينما دخلت نازك المعتقل أول مرة بتهمة شيوعية ، فأحرق خالها كتبها في التنور ، وبعد أن خرجت من المعتقل ، طردها من المنزل ، قال لها أنت تريدين تضيعين مستقبلي . ورحلت إلى بغداد .

*

في عمر الثامنة عشر عملت في الأورزدي باك . أصبحت فيما بعد مسئولة عن بعض العمال . أخذت تديرهم وتحسب أجورهم . أخذت تستيقظ من النوم في الساعة السابعة صباحاً ، وتذهب إلى الأورزدي في الساعة التاسعة ، تخرج على صوت العصافير الهادئ وتأخذ الباص إلى العمل ثم تعود في الساعة الثانية بعد الظهر .

*

كانت تسير مع إحسان بعد الظهر في شارع السوق المظلل بالشجر الكثيف . يحكي لها عن الشيوعية . عن لذاته السرية ، عن لهفته ، عن العمال والمسرح . مرة ذهبت معه سفرة إلى السليمانية ، رفاق عرب ، أكراد ، تركمان يعزفون على العود ويغنون أغاني ثورية .

صورة

مجموعة من الشباب والصبايا الشيوعيين في سفرة إلى آنشكي ، بعضهم يرتدي ملابس كردية ، وآخرون يرتدون

ملابس حديثة كما كانت الموضة في العام ١٩٧٨ ، أما نازك بتنورتها القصيرة كانت تقف إلى جانب إحسان . شاب أبيض الوجه ووسيم ، شعره طويل جداً ، زلفاه هابطان إلى الحنك . حليق الشارب ، قميصه مشجر ، بنطلونه جارلس عريض من الأسفل ، وحذاء دبابة!

*

في يوم أخذها إلى منزله . كانت حجرته فسيحة ومزدحمة . فيها دولاب كبير للملابس ، وسرير عال (تشورباية حديدية) ، طاولة صغيرة ، وكراسي فوق بعضها البعض ، قرب النافذة مكتبة كبيرة فيها كتب حمر مطبوعة في دار التقدم في موسكو : الماركسية والفن ، لينين خطوة إلى الأمام خطوتان إلى الوراء ، مؤلفات غوركي . . . وهنالك مسرحيات مطبوعة في بغداد والقاهرة ودمشق كثيرة . في الزاوية الأخرى مجموعة من الأطباق والملاعق والشوكات . هنالك طباخ نفطي صغير موضوع على قائمة خشبية ، وفي الأسفل حصيرة على أرض مبلطة بالكاشي الأصفر .

حين دخلت شمت رائحة ثقيلة في الحجرة ، هي خليط من رائحة التدخين ورائحة البيض المقلي . كانت أعقاب السجائر في كل مكان تقريباً ، ليس في المنفضة وحسب ، إنما في سلة المهملات ، في الزاوية وفوق الطاولة . كتبه الكثيرة غير مرتبة ، مسرحيات ، كتب نقد ، أوراق مكتوب عليها بقلم الحبر ، صحيفة الشيوعيين طريق الشعب بأعداد كثيرة على

السرير ، وهنالك مجلات متنوعة أيضاً بعضها كردية ، أخرى تركية ، وبعضها بالعربية .

أخذت نازك كتاباً من المكتبة وانزلقت بهدوء ونامت على السرير . فتحت الكتاب وأخذت تقرأ . تجاهلت إحسان الذي أخذ يخلع بنطلونه الجارلس بهدوء ، ثم خلع قميصه الأحمر ، وعلقه على مسمار مدقوق في الحائط ، وبقي بالكالسون .

لقد شعرت بما كان يفعله دون أن تنظر إليه . لم تضطرب ، لم تمانع أبداً .

اقترب منها . دفع الكتاب من يديها برقة ، وأخذ يقبلها من عنقها ويصعد نحو وجهها . صوته الخشن همس بأذنها بأن تدعه يخلع لها ملابسها . مانعت أول الأمر غير أن صوته جاء ملحاً ثابتاً هذه المرة ، وقد شعرت بالأغطية والملاءات تتحرك تحتها . تمردت عليه بنبرة حارة حلوة لا . . . لا . . .

غير أنه رفع تنورتها بهدوء ، وسحب كالسونها . فأصبح لحمها الحي على لحمه مباشرة . شعرت أن لهفتها لا تقاوم ، مد يديه وخلع لها قميصها . فجأة شعر بعاطفة محبوسة قديمة في التطلب والاقتحام .

تكور صدرها وتصلب في يديه . باعدت بين ساقيها والتهمته بشهقات متلاحقة ، لقد عرفت ذلك اليوم هذا الارتطام الحي الطري ، والذي ترافقه أنفاس متسارعة وأنين أبح مكتوم وأرادته ، ذهبت معه إلى النهاية . ثم هدأت تحته نصف غافية ، نصف متعرقة ، وراجفة من اللذة والانتشاء .

VI
تناقض

في بهو مسرح الستين كرسي تعرفت نازك على عيسى ، وقف أمامها بمعطفه الأسود المجعلق .

- عيسى . . . شاعر . . . قال لها بكبرياء .

تعرفت عليه على الأرجح عن طريق أحد أصدقائه الذين كانوا معه في جماعة بهية ، وكان يعمل في المسرح أيضاً ، بعد المسرحية أخذا يتنزهان في شارع السعدون ليلاً ، كانت قد غادرت كركوك ، وأخذت تعمل في المسرح في بغداد كممثلة ، حياتها تغيرت تماماً ، لم يعد لها أحد في كركوك بعد اعتقالها ، خالها طردها من المنزل :

- تريد تخربين بيتي . . . هالمرة شيوعية .

إحسان هرب بعد خروجه من المعتقل إلى الجبال ، هنالك التحق بقوات الأنصار ، بالشيوعيين الذين كانوا يقاومون البعثيين ، وذهبت نازك إلى بغداد لتعمل في المسرح .

*

لم يكن الجنس وحده ما كان يهم نازك حين أخذ عيسى يدعوها إلى حجرته ، إنما عاودتها تلك اللحظات المنصرمة مع

إحسان واشتاقت إليها كثيراً . لقد كانت تريد أن تشعر بالإحساس نفسه الذي كانت تشعر به عندما كان إحسان يقترب منها أو يطرحها على السرير .

وما إن دخلت مع عيسى أول مرة في الحجرة ، حتى رمت حقيبتها على السرير . استأذنته ودخلت إلى الحمام .

جلس عيسى على الكرسي وأخذ يقاوم رغبته في الاشمئزاز . حاول في البداية أن يصم أذنيه بقوة إلا أنه لم يقو على ذلك ، مطلقاً ، كان صوت شختها المنفرد والحاد قد اخترق أذنيه وأبعده عنها تماماً .

*

في اليوم التالي فكر عيسى ملياً في هذا الأمر ، ما كان يشغله هو أن يصمم لنفسه مخططاً حقيقياً يبعده عن هذه المعاناة ، أراد أن يصنع مخططاً عن الحب والفن معاً :

- الحب مثل الفن كلاهما تأمل . أليس كذلك؟ هكذا قال في نفسه ، وهو يضع سبابته على شفتيه .

لقد صفن كثيراً ذلك اليوم . توصل إلى مسألة في غاية الأهمية ، وهي تحقيق نظام روحي عال ، نظام وثيق الصلة بالنظرية الشعرية ، بالارتفاع ، بالسمو ، بالتعالي ، ولا يختص هذا الارتفاع بالأشياء الطارئة على الحياة الحقيقية فقط ، إنما يحقق هذا النظام ارتفاعاً عن الجسد وإفرازاته أيضاً : ارتفاعاً عن العرق ، والبول ، والخراء ، والمني ، والمخاط . وسيكون هذا الارتفاع عن كل ما هو لين ومعتم ولزج ، تحقيقاً للإنسان النقي نقاء البلور .

- إنه حلم . هكذا قال عيسى وهو جالس على الكرسي أمام التواليت .

كان يفكر بالأمر على أنه حلم ملائكة أكثر رهافة وأقرب إلى الروح النقية من أولئك الذين يختضون فوق المرأة وهم غائبون في لزوجتها وعتمتها . فكر بالأمر على أنه تأمل نقي ينقض المشاعر الناتجة عن الجسد والدم واللحم ، وكل هذه الأشياء الموجودة في الحياة ، والتي من شأنها أن تضعه في تناقض مباشر وحاد مع كراهية المعنى ، وعبادة الشكل المجمد البلوري في الشعر .

- إنه النقاء الذي يمكنك أن تستخلصه من النظائر المتوازية والتي تضم في داخلها كل شيء . هكذا قال عيسى وهو يركز نظارته على عينيه .

*

ما فكر فيه عيسى ذلك اليوم هو التقابل بين هذا الحب الباثيولوجي وبين الحنين إلى النقاء الجسدي ، النقاء الجسدي الذي يمكن استلهامه من الشعر ، والذي يعني نقض الجسدانية الليلية ، والإحساس الرطوبي ، والقذارة الإفرازية للوجود .

كان عيسى يفكر بالشكل البلوري للشعر ، بينما كانت نازك تنفض آخر قطرات بولتها في الحمام ، وتتهيأ للالتحام الجسدي مع عيسى .

*

نهض عيسى من مكانه ، وأخذ يتمشى في الحجرة .

شعر أنه وضع يده على أعظم اكتشاف في تلك اللحظة ، هذا الاكتشاف كان بالتأكيد نتيجة حتمية لشخصية نازك الفائرة ، ولكنه أنساه الاشمئزاز المريع من هذا الصوت المنفر ، ووضعه مباشرة في تحقيق شيء تكاملي ؛ أي رفض العالم العضوي والصعود إلى عالم الموسيقى والتجريد والهندسة .

*

تحرك مباشرة صوب الطاولة القريبة من الشباك ، كانت هنالك منفضة سجائر ، علبة بسكويت فارغة ، جهاز ريكوردر ، وعدة أشرطة أخذ يقلبها واحداً بعد آخر . وضع أغنية في الريكورد وأخذ يستمع لها ، للأغنية كلمات تصدح . غير أن للكلمات معان ، تفسد فكرة الموسيقى . الموسيقى تجريد ، رموز تحلق فوق المعنى ، فوق الحب ، هذا ما كان يريده :

ما كان يريده هو رسالة تجاوزية للمعنى ، للمضمون . شيء من المحسوس غير ملموس ، بعيد عن المعنى الواضح ؛ لأن المعنى ينبت على الدوام وسط القتامة والقبح . عيسى يريد أن ينأى بنفسه من السكن القذر وسط المعاني ، والمضامين ، الكلمات تحيل إلى الإيديولوجيا ، إلى الأفكار ، إلى الإيمان ، بينما هو ينزع مثل الشعر إلى التجريد ، إلى الهندسة ، إلى الفراغ ، إلى البياض ، إلى الموسيقى ، يريد رموزاً لا تفسير لها ، إشارات ترتد دوماً إلى عالم خالد ومطلق .

ولكن كيف يمكنه إقناع نازك الخارجة على عجل من

التواليت ، وهي تحمل كالسونها بيدها .

*

خرجت من التواليت سعيدة وهي تمسك كالسونها الأحمر بيدها . وضعته على الكرسي أمامه بالضبط إشارة غير منطوقة منها على أنها جاهزة . نظر إليها ، ثم حول نظراته مباشرة إلى الكالسون . ذكره هذا الكالسون الموضوع على يد الكرسي بمثال الدخان والنار الذي يضربه اللسانيون مثالاً على القرينة (أفكار شائعة عند المثقفين ذلك الوقت بعد ترجمة كتاب فيردوناند دو سوسور إلى العربية في بغداد) فوجود الدخان هو دليل على أن هنالك ناراً ما قد نشبت ، وقد أدرك في تلك اللحظة أن هذه النار تشب الآن بين فخذي نازك ، وأن الكالسون المنزوع المرمي على كتف السرير هو القرينة التي أرادت نازك منها أن تقول للشاعر :

- هل تريد جنة مؤقتة؟

*

أين هي الجنة ، ما هو الفردوس؟

كانت أفكار عيسى ذلك الوقت غائمة ، متناقضة في هذا الأمر ، من جهة جاء إلى الشعر ، من الوزن ، من التجريد ، أراده أن يكون في الموسيقى ، في الرياضيات ، في الشعر المتسامي العالي ، في الصوت الخالد للموسيقى ، في الأشكال الهندسية ، في تجريد اللفظ من المعنى ، وفي الحياة الابتعاد عن تفاهات اللغة ، وفي الجنس الابتعاد عن اللزوجة ، والرطوبة ،

والدم ، والسائل ، والشهوة . . . هل يمكن هذا . . .

قبل قصيدة النثر كان الأمر نسبة له نعم . . . بعد تعرفه على جماعة بهية واكتشافه للمحسوس والملموس والنثري والعامي تغير . . .

ولكن ما هو مهم هو وجود نازك في هذا الأمر . . . هل يمكن أن تجلس بجمال بلوري جامد ، وبنظرتها الخارقة القادرة تحول كل شيء يتحرك إلى حجر .

ليست ميدوزا . . . قال في نفسه .

لم تكن كذلك ، كانت نازك كتلة من الأحاسيس ، والعواطف المتجسدة في بدنها ، كانت بعيدة تماماً عن أفكاره الغيبية عن الصوت والشعر والشكل والموسيقى ، لم تكن جمالاً منشغلاً بنفسه ، جمالاً بارداً ثلجياً بعيداً عن الشهقات والحركات والميوعات والتظاهر .

*

شعرت بالخجل أول الأمر ، إلا أنها سرعان ما تجاوزت هذا الحاجز وتقدمت نحوه ، وضعت يدها على كتفه ، وجذبته . شعر بارتباك . أراد أن يتخلص منها أول الأمر فتحرك إلى المسجلة ، غير أن هذا لم يردعها ، ذهبت وراءه ، أرادت أن تتقدم خطوة أخرى تتجاوز بها برودة أعصابه ، فأخذت تفك أزرار قميصها . قالت له :

– حارة مو صحيح؟

– . . .

- مو . . . ؟

بعد لحظات أدرك بأن هذا المكان سيتحول إلى صراع بين شعور حر وآخر مقيد ، وسيسعى كل وعي من هذين الوعيين إلى السيطرة على الآخر .

حسن قال لها . . . وفك أزرار بنطلونه .

VII
خروج

خرجت نازك من حجرته في الحيدر خانة ذلك اليوم دون كالسون ، كانت قد نسيته على كتف الأريكة ، خرجت سعيدة ، لم تشعر بأنها فاقدة لقطعة من ملابسها إلا حينما صعدت في الباص ، فما إن رفعت ساقها حتى شعرت باندفاع هواء بارد بين ساقيها ، حين ذاك أدركت أنها نسيت شيئاً مهماً ما كان عليها أن تنساه وهو كالسونها .

فهو شيء يجب التمسك به مثلما يتمسك الشخص بأنفه أو بعينه أو بيده ، كما أنه دليل على سترها ، هذه القطعة من القماش التي لا تصد شيئا هي أكبر واق لجسدها ، ومع ذلك فهو الخطاف الذي يجذب شخصاً مثل عيسى .

حادث ومعنى

لقد حدث تلك اللحظة تقاطع وعيين ، وعيين متباعدين تقاطعا في نقطة واحدة . نقطة الكالسون الشفاف . الكالسون الشفاف الموضوع على كتف الأريكة ، بدلاً من أن يكون موضوعاً على عضو نازك .

لقد ذهب وعي نازك تلك اللحظة إلى مكان آخر ، ذلك أن الكالسون الذي تضعه ليسترها هو ذاته نقطة الجذب الذي وضعته لتقهر به صدود عيسى وترفعه عليها . بينما ذهب وعي عيسى ذلك اليوم إلى الكالسون ذاته ، ولكن من جانب آخر :

هل يمكن تحويل الكالسون من قرينة على أنه إيذان بالجنس ، إلى إيذان بتبدل دلالة الجنس .

قال عيسى في نفسه إن الجملة الشعرية تكتسب معناها من خلال العلاقة الأفقية على المحور بين الكلمات ، أما تدمير المعنى سيكون من خلال تدمير هذه العلاقة ، فجملة شعر قرمزية تتنامى كالورود بين الثلوج ، هي جملة ذات معنى ، أما تدميرها سيكون قرمزية تتنامى شعر بين الورودو كالثلوج ، هنالك معنى ولكنه معنى غير تقليدي .

هذا ما يبحث الشاعر عنه في الشعر ، إذن هناك كالسون مخلوع على الأريكة ، وفرج عار ، فرج يتجول وحده في الشارع .

أليست هذه الجملة ذات معنى ، ولكنه معنى غير تقليدي بالمرة؟

هكذا أدرك عيسى أن خروج نازك هذا اليوم وقد نسيت كالسونها على كتف الأريكة هو خروج ذو معنى شعري حقيقي . لقد أنتج لحظة شعرية عظيمة ، فدخولها الذي ولد لديه تقززاً واشمئزازاً وتندراً ، تحول إلى شيء عظيم ، نادر ، حافل ، وشعري أيضا .

لقاء مع نازك

مرة كنت في ساحة الميدان في الصيف ، انتظر الباص رقم ٤ للذهاب إلى ساحة الأندلس .

رأيت نازك واقفة هناك تحت المظلة . التقت عيناي بعينيها ، سلمت عليها ووقفت . هنالك شخص واقف تحت مظلة الباص يحدجها بنظرة ثابتة ، نظرة وقحة . شعرت أنها تضايقت ، ربما شعرت بخوف .

بعد ذلك جاء الباص وهبط منه راكبون كثيرون ، بينما الوجه ، الوجه الرجالي القاسي ، صامت ، مغلف بالعنف ، يحدجها بنظرة ثابتة .

صعدت نازك وهي تصارع زحام الهابطين والطالعين ، هبطت خصلة نافرة من شعرها إلى جبينها وهي تصعد . بينما تركت صدرها ومؤخرتها إلى هذا الحشد الرجالي العاصف فشعرت بالاشمئزاز .

الجزء الخامس

فرار من الحرب عيسى في البتاوين

سيدي الرئيس
أرسل لك رسالة
قد تقرأها
إذا كان لديك وقت .
تلقيت للتو
أوراقي العسكرية
للذهاب إلى الحرب
قبل ليلة الاربعاء .
سيدي الرئيس
لا أريد الذهاب إلى الحرب
انا لا أعيش على الأرض
لقتل الفقراء .
لا تغضب ،
لا بد لي أن أقول لك ،
بأني اتخذت قراري أن أكون فرارا من الجيش ،

Boris Vian

I

عيسى فرار من الحرب

اختفى عيسى فترة من الزمن عقب آخر لقاء لنا به ، كان ذلك بعد أن أصبح فراراً . ثم غير فجأة مكان إقامته ؛ إذ لم يعد يقطن في حجرته القديمة القريبة من جامع الحيدرخانة حيث كنا نزوره هناك . ولم نعد نراه كما كنا في ساحة الميدان أو في ساحة باب المعظم ، أو في سوق السراي ، إنما تحول فجأة إلى الجزء الثاني من بغداد ، أي في المنطقة الجنوبية من الباب الشرقي . وقد كان هذا الانتقال معقولاً بطبيعة الأمر ، ذلك لأن عنوانه القديم كان معروفاً بالنسبة للجميع ولا سيما للأمن ، وسيكون هدفاً سهلاً لإلقاء القبض عليه .

سألنا عنه كثيراً ؛ إذ كان اختفاؤه المفاجئ مقلقاً بالنسبة لنا . وفي يوم عرف منير عن طريق أحد أصدقائه ، أن عيسى قد انتقل من حجرته القديمة في الحيدرخانة ، وأخذ يقطن هذه الأيام حجرة أخرى ، في نزل تملكه امرأة اسمها أم جوني ، في البتاوين ، الحي الذي يقطنه فقراء المسيحيين في بغداد ، بهوية مزورة .

كانت الهوية الجديدة والسكن الجديد ، على الأرجح ،

بتسهيل اثنين من جماعة بهية ، هما سالم خيون وكاظم سلمان ، حيث كانا يقطنان ذلك الوقت في البتاوين ، بل كانا يقطنان في النزل ذاته الذي حلّ فيه عيسى .

*

ذهبنا مرة ، منير وأنا ، للبحث عنه هناك . كان ذلك في ظهيرة يوم قائظ ، وهو ثاني يوم من إجازتنا . دخلنا حارة صغيرة تقع بعد عمارة الدامرجي مباشرة ، ومررنا بها من خلال الشارع الذي يقع في ركنه مطعم تاجران . عبرنا ثلاثة أزقة ضيقة جداً على جانبيها عمارات قديمة ، ومنازل رطبة شبه مهدمة تستخدم كخانات وفنادق رخيصة . قال منير وهو يعبر مستنقعاً للماء الآسن :

- هنا تتجدّد روح عيسى الشعريّة في أكثر من إطار . . . !

كان يستخدم تعبيرات جادة موظفة لأسلوب ساخر .

دخلنا زقاقاً ضيقاً ، كان الماء الآسن يتدفق من وسطه ، قادماً من سوق البتاوين ، مياه سوداء قذرة تطفو عليها قشور البيض ، في نهاية الزقاق تجمعت بضع عربات للسحب تبيع خضاراً ، وأسماكاً ، وفواكه متنوعة . وقد جلس الباعة أمامها على قواطي من الصفيح . حين وصلنا هناك كانت روائح البرتقال تملأ الفضاء ، مختلطة برائحة الزفر التي تنبعث من عربة سحب أخرى تبيع السمك .

سألنا امرأة واقفة عند عربة تبيع التفاح :

- هل نزل أم جوني من هنا؟

كان الزبائن يتزاحمون عند مدخل شارع برطلا ، وصناديق الخضرة المرشوشة بالماء تتجمع على الرصيف .

أشارت بيدها :

- من هذا الطريق بعد مقهى عوديشو بمئة متر .

مررنا من عمارة أبو جورج المطلية باللون القرمزي ، حيث يقف أمامها باعة مصريون وسودانيون طرحوا بضائعهم على الأرض ، وفي نهاية الشارع مقهى عوديشو ، ومتجر لبيع الصنادل والقباقيب ، وفي الشارع أكثر من نزل يخرج منه نزلاء نظراتهم خامدة ، ينظرون بصبر إلى سيارتين واحدة فيات وأخرى مسكوفيج تقلان بعض الراقصات القاطنات في فندق من طابقين ، وتقلهن إلى الملاهي ، وعلى مقربة من هذا الفندق أكثر من بار ومتجر للخمور .

*

وصلنا المكان الذي يقطن فيه عيسى ، كان عبارة عن نزل رخيص تملكه امرأة آثورية اسمها وداد ، يطلق عليها القاطنون أم جوني . يقع هذا النزل في تقاطع زقاقين ضيقين يشكلان حارة صغيرة تسمى حارة الصليب . لدى الباب الخشبي الكبير المرصع بالحديد واجهتنا صاحبة النزل ، امرأة شقراء بدينة لكنها مرحة ، لم تكن كريهة أو فظة أبداً ، كانت تتحدث مع رجل وامرأة شابة ترتدي فستاناً مقوراً ، مفتوحاً من الأعلى ، وبين كرتي الصدر المكشوفتين يتدلى صليب ذهبيٌّ صغير :

- لديّ غرفة فارغة والأجرة معقولة ، عندي الغرف أرخص

من أرخص فندق في البتاوين ، وأحسن لكم من نزل عقد الدامرجي .

التفتت لنا والابتسامة تعلو وجهها :

- أنتم هم جايين على غرفة . . .

ابتسمنا لها ، وقلنا لها نحن نسأل عن صديقنا عيسى . . .

- عيسى طلع . . . نظرت إلى ساعتها في يدها ، وأكملت :

- ما يبقى بالنزل لهذا الوقت . . . مروا عليه بعد ساعة . . . ومن يجي . . . راح اقول له انتم جيتوا . . . وإذا تتفضلون عندي تنتظرونه هم أهلاً وسهلاً بيكم . . .

شكرنا هذه المرأة المسيحية الطيبة التي تؤجر نزلها بسعر رخيص والابتسامة على وجهها ، وخرجنا في الحال . خلفنا وراءنا هذا النزل المشيّد على الطراز البغدادي في الثلاثينات ، بباحته الصغيرة الكائنة في الوسط ، وبحجره الخمسة عشر التي تؤلف حولية سفلى ، وحولية عليا ، وطابقاً أرضياً ، يقطنها عزاب شباب وكبار السن ، وعائلات محشورة في بعض هذه الحجر ، متجمعة بعضها على بعض .

*

سرنا في الزقاق ذاته الذي يؤلف تقاطع حارة الصليب ، في نهاية الشارع هنالك فنادق حقيرة ، خانات ونزل فقيرة جداً ، أسواق ومتاجر صغيرة ، بينما تلتف الشوارع الضيقة لفات دائرية على بعضها حتى تصل إلى شارع السعدون من الغرب ، وشارع القصر الأبيض من الغرب .

كان هذا المكان هو مركز بغداد الحيوي في الثلاثينيات والأربعينيات، حيث قطنته الطبقة البرجوازية اليهودية والتي كانت تعمل بالصيرفة ذلك الوقت، وفي الخمسينيات، أصبح المركز الحيوي والسكني للطبقة البرجوازية المسيحية، وفي الستينيات زحفت عليه الطبقة السياسية الجديدة، أي الطبقة العسكرية التي أحكمت قبضتها بعد الثورة، وأكثرها من المسلمين، غير أنها ومنذ السبعينيات والثمانينيات أصبحت مكاناً مميزاً ومركزياً للمسيحيين الفقراء، وأكثرهم من المهاجرين إلى بغداد من الريف المسيحي في الشمال: برطلة، بطنايا، ألقوش، تلكيف، تلسقف... فهؤلاء يفضلون السكن بالقرب من بعضهم، متجمعين في هذا الأحياء ومتكدسين كعائلات بعضها فوق بعض، ولا يقطنون في الأحياء الإسلامية الفقيرة أبداً.

لكن وعلى الرغم من سيادة فقراء المسيحيين لهذه المناطق التي تقع وسط بغداد، حيث تشكل هذه الأحياء المتداخلة المركز الحيوي للمدينة Down town: بارات، ملاه، مراقص، سينمات، مسارح، مقاه، مطاعم، فنادق، شوارع فخمة، محلات تجارية كبيرة ومصارف، إلا أن الثمانينات هي إيذان بتفتيت وحدتهم، واختراقهم من قبل مهاجرين مسلمين من كل مكان.

حيث أخذ يزاحمهم من كل مكان عمال الخدمة: زبالون، كناسون، خادمات ولا سيما من المصريين

والسودانيين ، كما جاءهم زحف العاهرات الهاربات ، أو القادمات من المحافظات ، وطبقة غريبة من الرجال الهاربين من منازلهم ، والقادمين من القرى القريبة كباحثين عن عمل .

*

أثناء الحرب ظهر ساكنون جدد ، وهم الجنود الذين تقع وحداتهم العسكرية على مقربة من بغداد ، أو على أطراف العاصمة ، وهم من المحافظات على أغلب تقدير ، فيؤجرون حجرة واحدة أو حجرتين بشكل جماعي ويقطنون بها لفترة طويلة ، وهؤلاء يتغيرون ويتبادلون مواقعهم بصورة يصعب ضبطها .

وهناك أيضاً طبقة أخرى وهم طلاب الجامعات القادمون من الأرياف ، أو المعممون الشباب الذين يدرسون الشريعة ، وهؤلاء يستمرون في السكن على الأقل أربع سنوات ، وأحياناً يستمرون حينما يلتحقون بالخدمة العسكرية ، فحجرة الطلاب سرعان ما تتحول بعد أربعة أعوام إلى حجرة للجنود .

وعدا هؤلاء نجد الكثير من أصحاب السوابق ، والمجرمين ، والسجناء السابقين ؛ لذا تكثر في هذه المناطق عصابات النهار ، أو سلابة الشوارع المظلمة ، وقطاع الطرق بالموسى والخناجر في الليل ، والعصابات التي تنظم لعب القمار ، وبيع المخدرات ، والدعارة بكل أنواعها .

*

بعد منتصف الثمانيات ظهرت في هذه الأحياء طبقتان جديدتان هم الفرارية (الهاربون من الخدمة العسكرية) والمطاردون سياسياً . وهو أمر طبيعي ، ذلك أن عشوائية السكن هناك تسهل للهاربين التخفي ، وأمر العثور عليهم أو تمييزهم وسط هذا الخليط المتغير على الدوام ضرب من المستحيل . وعلى الرغم من أن الحكومة قد زرعت في كل زقاق ، أو عقد ، مخبراً سرياً ، أو شرطياً متخفياً ، أو أحد وكلاء الأمن ، إلا أن بعض حجر هذه المنازل أصبحت أوكاراً للأحزاب السياسية المحظورة ، ولا سيما حركات الشيوعيين والإسلاميين .

*

أما السكان الأصليون في المحلة فهم فقراء مسيحيون بشكل عام ، مهاجرون ريفيون في واقع الأمر ، يعيشون على هامش المجتمع وأكثرهم : حلاقون شباب ، نادلون ونادلات في البارات أو الملاهي ، باعة في محلات الخمور ، موظفون صغار عند الحكومة ، جنود ، باعة متجولون ، عمال مطابع ومعامل صغيرة ، حرفيون ، صباغو أحذية أطفال ، عمال مطاعم ، قاطعو تذاكر في السينمات ، باعة على البسطة ، وهنالك عاهرات مغمورات وقوادات شهيرات .

II
حجرة الشاعر

ذهبنا إلى مقهى عوديشو لننتظر عيسى هناك . فجلسنا على قنفة أمام باب المقهى وطلبنا الشاي بالهيل . كان الراديو على أعلى صوته ، ناظم الغزالي يغني ، ثم نشرة الأخبار المفصلة عن الحرب ، وعلى مقربة منا جلس الزبائن ، وأكثرهم من بوابي العيادات الطبية القريبة ، أو حراس العمارات ، أو عمال سوق الخضرة .

كان المقهى عبارة عن حجرة مربعة صغيرة ، مبيّضة بالجصّ ، وتمتد على طول جدرانها قنفات منخفضة مفروشة بالبسط والحصران الصوفية الملونة ، وقد علقت على أحد جدرانها مرآة صغيرة ، ووضعت تحتها مغسلة ، وهنالك مسند من الإسمنت صفت عليه شيش النارجيلة المصنوعة من الزجاج ، بأنابيبها الطويلة الملتوية مثل الأفاعي ، وفي الركن البعيد موقد صغير ، يقف عنده عوديشو صاحب المقهى ، والسيجارة على الدوام في فمه .

كان عوديشو فارع الطول ، في الخمسين من عمره ، بلحية بيضاء لم يحلقها منذ أيام ، وشفة مشرومة يغطيها بالشوارب

البيض الثخينة التي تتهدل على فمه ، يضع على رأسه طاقية ملونة ، عادة يرتديها الفلاحون المسيحيون شمال العراق . طوال جلستنا كان عوديشو يقف قرب الموقد ، سيجارته بين شفتيه ، لا تفارق فمه أبداً ، يصب الشاي من قواري الفرفوري في استكانات مذهبة ، يضعها في الصينية مع قدح الماء ، فيهرع بها إلى الزبائن صبي آثوري صغير يعمل في المقهى .

*

بعد قليل جاء الشاب الذي كان يقف هو والمرأة الشابة أمام أم جوني ، وجلس على مقربة منا ، كان وجهه سميناً ومدوراً ، وشعره أسود ينسرح على جبينه ، التفت إلينا وقال :

- اسمي مرقس . . أسكن مع عيسى في نزل أم جوني ، والمرأة اللي كانت معي من أقاربي تريد تسكن بالطابق الفوقاني . .

- زين . . قلنا له . . . يعني أنت تعرف عيسى . .

- ايه اعرفه ، قال بصوت واثق ، خوش ولد . . . بس مخبل . . .

الملاحظة الأخيرة جعلت منير يشرق في الضحك .

- شلون؟ سأله مستفسراً . .

لم يرد أن يشرح لنا التفاصيل أول الأمر ، ولكنه بعد قليل ، وبعد أن أكمل شرب شايه ، أخذ يتكلم عن النزل بصورة عامة ، وشيئاً فشيئاً وصل به الأمر أن يشرح لنا بعض التفاصيل عن عيسى ، وعن صديقيه سالم وكاظم اللذين

يقطنان معه في النزل ذاته ، وهما من جماعة بهية ، كنا نعرف عنهما الكثير من عيسى بطبيعة الأمر ، كان يحدثنا عنهما ولكن من دون أن نلتقي بهما أو نتعرف إليهما شخصياً .

وقد روى لنا مرقس قصة طريفة عن الأيام الأولى لوصول عيسى إلى النزل ، والكيفية التي عاش فيها هناك ، قال حين جاء صور لنا نفسه بأنه إله كان في السماء وسقط على الأرض ، لم يعجبه المكان أبداً ، واحتقر جميع الساكنين فيه ، ورفض التكلّم مع أي شخص ، وحين يخرج من النزل فإنه يحمل معه كتباً إنكليزية ودستة أوراق ، ويسير وأنفه إلى أعلى ، لا يسلم على أحد ، ولا يرد على سلام أحد .

ثم قال «ولكنه تغير» ، فسأله منير مستغرباً «كيف تغير؟» قال بطريقة جديدة «أفلس! . . وكان عليه أن يدفع أجرة الحجرة ، فعرض عليه صديقاه سالم وكاظم أن يعمل في السوق بضعة أيام لكي يؤمن الإيجار!»

- ماذا يعمل عيسى؟

- مع بعض أصحاب بسطة الخضروات في سوق البتاوين . . .

في هذه اللحظة انفجر منير ضاحكاً . . . قال له : يعني عيسى يبيع كرفس وكراث وطماطمة . . . ؟ الف لا بأس عليك يا خوية عيسى ، يعني الشاعر الإلهي صار شاعر طماطة . . . ؟

وأقسم مرقس لمنير إنه رأى عيسى يوماً خارجاً من النزل ، وهو يحمل على رأسه قفصاً من الخوص المجدول ، وذهب ليبيع

الخضرة في السوق ، وهنا لم يتمالك منير نفسه ، فقد أخذ يضحك بصوت عالٍ ، وصاح : والقبعة ، والمعطف ، والغليون ، والكتب الإنكليزية وين صارت؟ رد عليه مرقس أن عيسى تلك الأيام أصبح بسيطاً جداً ، وأخذ يسلم على الجميع ، ولكنه ما إن قبض راتب الشهر ، حتى تمرد على الباعة ، نظر إليهم نظرة احتقار واشمئزاز ، صرخ بهم يا حمير ، ورمى عليهم القفص ، وقال لهم إنه شاعر عظيم وهم عمال تافهون لا يساوون بالنسبة له بيزة!

ثم عاد عيسى مرة أخرى إلى تكبره وغطرسته ، وهو يسير بقبعته ، وكتبه ، التي يحملها .

*

بعد ساعتين عدنا إلى النزل ، كانت الشمس ترمي أشعتها الذهبية على السطوح ، حيث الملاءات البيض منشورة على حبال الغسيل . شقق العمارات متراصة ، ومحاجرها الحديدية صدئة وقد تقشّر طلاؤها ، وأكثر شبابيكها محطّمة الزجاج ، وقد سدّت بورق الكارتون .

كان عيسى بقبعته الغريبة ومعطفه المجعلك واقفاً بالباب ، سيجارته بيده ، وكتابان بالإنكليزية تحت إبطه ، ويدير بوجهه يميناً وشمالاً كمن يبحث عن أحد . أول ما رآنا صرخ بصوته الخشن مبتهجاً بنا :

- أهلا بكم في حجرة الشاعر بودلير العراقي . . . ها . . . ها . . .

كان سعيداً برؤيتنا جداً ، ونحن أيضاً ، كنا افتقدناه بصدق ، وعلى الرغم من زعله ذلك اليوم من منير لأنه أوقف الترجمات الروسية عليه ، والتي كان يعول عليها كثيراً في إتقانه لأسلوب جديد ، والتأثر بها في كتابة قصائده الأخيرة ، إلا أنه نسي فجأة كل شيء . وأخذ يعانقني ، ويعانق منير وهو يضحك من الفرح ، ثم قال بصوت مبتهج إن أم جوني قالت له إن أصدقاء سألوا عنه ، فشك أن نكون من رجال الأمن فارتعب وخاف جداً ، ولكنها أكدت له أن وجوههم ليست من هؤلاء ، وقال لنا إنها لما وصفتنا له عرفنا على الفور ، فوقف بالباب بانتظارنا ، وقال إنه على الرغم من خطورة وجوده لفترة طويلة في باب النزل ، لئلا يثير شكوكاً بوجوده هنا ، أو يلفت انتباه أحد المخبرين ، إلا أنه لم يحتمل أن يبقى في حجرته من فرط شوقه ، فهبط يبحث عنا .

*

دخلنا المنزل ، وصعدنا الدرج معه ، متجهين إلى حجرته في الطابق الثالث . تبعناه حتى وصلنا ثاني حجرة على اليمين . وقف أمام الباب وأخذ يجرب مفتاحين قديمين وطويلين واحداً بعد آخر ، ثم فتح الباب الخشبي العتيق ، ودخلنا حجرة صغيرة رطبة ، تطل نافذتها الكبيرة على الزقاق ، حيث تقابل عمارة كبيرة لشقق سكنية عائلية ، ويشكل الطابق السفلي فيها ثلاثة دكاكين : مطعم صغير للفلافل ، ودكان للملابس الرياضية ، وميني ماركت صغير تديره امرأة كردية اسمها آشتي

(اسمها مكتوب على اليافطة) .

أزاح منير الستارة القديفة الثقيلة ، وأخذ يتطلع من النافذة إلى السابلة في الشارع ، أو إلى الزبائن الذين يخرجون ويدخلون إلى الدكاكين .

بينما تحركت أنا أمام مكتبته الصغيرة المنقورة في الحائط ، وبدورة واحدة مسحت عناوين دواوين الشعر الموضوعة على الرفوف ، وهي باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والعربية ، أما الأسماء العربية فكانت قليلة :

السياب بمجلدين ، أصدرتهما دار العودة في بيروت ، بعض دواوين آدونيس ، والجزء الأول من شعر سعدي يوسف المطبوع في بغداد ، وديوان سيدة التفاحات الأربع ليوسف الصايغ ، وجميع دواوين حسب الشيخ جعفر ، وديوان واحد لسركون بولص . . .

وهنالك أيضا دواوين مترجمة إلى العربية : ريلكة بترجمة فؤاد رفقة ، بودلير بترجمة خليل الخوري ، وأنا أخماتوف ، ومايكوفسي بترجمة حسب الشيخ جعفر ، جاك بريفير وهنري ميشو بترجمة سامي مهدي ، والت ويتمان بترجمة سعدي يوسف . . .

أما الكتب الأجنبية فهي ثرية حقاً ، ولشعراء مختلفين ، ومن كل أنحاء العالم ، من جويس منصور إلى بول تسيلان ، وهنالك ما هو أهم نسبة لعيسى وهي سير حياة هؤلاء الشعراء والكتاب الأوربيين باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية ، وألبومات صورهم المكدسة بعضها على بعض .

*

لم تكن الحجرة رديئة أبداً ، قلت له إنها أحسن من حجرته في الحيدر خانة . وافقني منير على ذلك .

- فيها على الأقل سرير حديدي أفضل مما كان عنده في تلك الحجرة الحقيرة . . . قال منير . .

نبرة منير الساخرة لا تجعل عيسى ساكناً ، فمنير يرميه على الدوام بكلمات-دبابيس . . .

في الحجرة أيضاً طاولة صغيرة ، وكرسي ، ومكتب خشبي أسفله جارور ، يضع عليه بعض كتبه ، وأوراق يكتب عليها أشعاره ، وهنالك المقلمة والمسجلة وأشرطة كثيرة لمطربين إنكليز كان قد استعارها من مكتبة القنصلية البريطانية في الوزيرية ، ولم يعدها إليهم ، وهذا ينطبق على الكتب ، فالكثير منها مختوم بختم المكتبة ، وقد أجهد نفسه في إزالة الختم ، ولكن المظهر الخارجي لكتب مكتبة القنصلية البريطانية لا يمكن إخفاؤه أبداً ، ومن الواضح أنه كان يسرق الكثير من الكتب من المكتبات الأجنبية ذلك الوقت .

وكان على الطاولة أيضاً نسخة مستنسخة من ديوان أناشيد للدكتور إبراهيم ، والديوان المترجم المزعوم ، الديوان الذي كان من المفترض أن منير قد ترجمه لنا من الروسية .

نهض عيسى إلى الطاولة وقال لمنير :

- انظر لقد جلدت المختارات الشعرية للشعراء الروس التي ترجمتها أنت . .

لقد صنع منه عيسى كتاباً ، جلده بجلاد سميك ، وكتب

في أعلاه بخط جميل بالحبر الصيني مختارات من الشعر الروسي ترجمة منير السماك، وفي الأسفل مراجعة الشاعر عيسى.

تصنع منير عدم اكتراثه ولا أباليته إزاء ما صنع عيسى، وأراد التخلص بسؤال عيسى عن ماذا يكتب هذه الأيام، لم يجب عيسى بشيء، ولكنه هرع نحو جارور الطاولة القريب منه، وتناول حزمة أوراق كان قد قصها على شكل مربعات، جلبها وجلس على الكرسي أمامنا، نظر إلينا بثقة عالية وكبرياء واضح، وقال بصوت مملوء بالعاطفة إنه كتب قصيدة نثر طويلة. فجلسنا منير وأنا للإصغاء إليه، وضع قبعته على رأسه كأنه يهم بالانطلاق، أخرج سيجارة من علبته وأشعلها بالقداحة، نفخ الدخان في الهواء، ثم وضع ساقاً على ساق أمامنا، رفع رأسه قليلاً كما لو كان يقرأ لجمهور عام وأخذ يقرأ، لقد صدح صوته لحظتها عالياً، أردت أن أنبهه أن يخفض صوته، ولكنه لم يترك لي فرصة، كما شعرت بأني سأكسر حماسته لو كنت نبهته، فقد كان مندمجاً بما يقرأ بصورة لم أشهدها له من قبل.

ولكن ما إن مرت دقائق حتى طرق القاطن في الحجرة المجاورة الباب، وبما أني كنت قريباً من الباب فقد فتحت له، وإذا بشخص معمم بمواجهتي...

- صوتكم يا جماعة... عيسى وينه؟

- ها سيد آسفين احنا أزعجناك...

- ما يهم والله بس تره أريد أنام . . .

وقد عرفنا عليه ، أشار عيسى بيده نحوه وقال :

- سيد هادي . . . يقطن في الحجرة المجاورة ويدرس في كلية الشريعة . . .

- تشرفنا مولانا . . .

- أصدقائي شعراء . . .

- . . . .

*

حين عدت إلى الكرسي لأجلس أمامه سألته عن قاطني العمارة ، أي عن جيرانه في السكن ، فقال لي بشكل غير مكترث :

- كثيرون لا يمر شهر دون أن يغادر واحد أو اثنان ويأتي محلهما جدد .

ولكنه أشار إلى أن هنالك نزلاء أبديين ، منهم رشيد ، وهو مدمن خمرة ولاعب قمار ، كان موظفاً كبيراً في التأمين قبل أن يهرب من عائلته ويسكن في البتاوين ، وقد رأيناه ونحن طالعون السلم ، حيث يلوح مظهره ويشي بهذه المكانة التي كان يتمتع بها ، له شوارب بيضاء بينما شعره المائل إلى اللون الحنائي قد منحه مسحة ذات تموجات رومانسية ، وإن ترهلت بشرته ولكنه ما زال يحتفظ بوسامة أرستقراطية ، وبذلته الكحلية وإن بليت من الغسل والكي إلا أنها كانت نظيفة .

أما سيد هادي المعمم ، فهو قادم من الكوت لدراسة

الشريعة ، بعد أن باعت أمه بقرتين لتتكفل بذهابه إلى بغداد ، ولدراسة الشريعة ، ولكن عيسى لا يعتقد أن السيد هادي يعير أي اهتمام إلى الدين بمعناه التعبدي ؛ لأنه في المساء يسكر مع رشيد ، ويذهب إلى بيت دعارة ، ويتشاجر مع جنديين في الحجرة التحتانية ، ويتشاجر مع دنخا الذي يقطن مع عائلته في الطابق الأعلى ، بعد أن اشتروا قبل شهر ماطوراً لتصعيد الماء ، ووضعوه في الفسحة المقابلة للمراحيض ، ويقول السيد هادي إن صوته يزعجه ولا يدعه ينام .

- ولكنه ينظر إلى الدين نظرة فلسفية . . . !

وقد سأله منير عن مرقس ، دون أن يذكر له ما حكاه لنا عنه في مقهى عوديشو .

فقال إنه شاب جاء من القرى المسيحية شمال الموصل ليدرس في الجامعة ، كان والده مشلولاً ، وعليه أن يعيش الشهر كله على مال يجيئه من إحدى قريباته اسمها وحيدة ، وهي تقطن في بغداد ، وقد عرف عيسى فيما بعد أنها تعمل خياطة ، ولديها ماكنة صنجر تفصل وتخيط فيها بعض الثياب ، ولكنها في الليل تعمل في منزل دعارة . وبعد وفاة والده ترك الدراسة وأخذ يعمل في محل للخمور ، والآن وضعه مهدد إذ عليه أن يلتحق بالخدمة العسكرية .

ففاجأه منير ذاكراً له أننا رأيناه اليوم مع فتاة .

«أين؟» قال منير وقد بدا مندهشاً جداً ومهتماً بالأمر ، «في النزل . . . مع امرأة من أقربائه . . . جاءت معه كي تؤجر

حجرة هنا» قال له منير ، ثم أردف له «ربما هي ذاتها؟» ، فقفز عيسى من مكانه مبتهجاً ، «صحيح؟» ثم كررها ملتفتاً إلي ، قلت له : «نعم ، رأيناه مع شابة ترتدي فستاناً مقوراً وعلى صدرها صليب صغير» ثم سألته «هل أنت تعرفها؟» ، قال : «نعم» . . . وسكت . .

*

هكذا أمضى عيسى أيامه الأخيرة في البتاوين ، هذا ما كتبته إلى ليلى فيما بعد ، كتبت لها عن الحياة التي عاشها ذلك الوقت ولا سيما أننا ، منير وأنا ، أخذنا نقضي أكثر أيام الإجازة عنده في النزل . وقد شهدنا في واقع الأمر تطور أدواته الشعرية واهتمامه الكبير بقصيدة النثر لأسباب عديدة منها الحرية التي أخذ يتمتع بها ، وقد منحها هو لنفسه ، كما أن حياته الجديدة مع سالم وكاظم من جماعة بهية قد أثرت عليه بصورة واضحة ، ذلك أن حياته أخذت أبعاداً أخرى ، بسبب المكان بطبيعة الأمر وبسبب الفضاء ، وبسبب وحيدة ، قريبة مرقس ، والتي انتقلت وقطنت في النزل ذاته ، وقد سقط مغرماً بها كعادته ، وتراجعت علاقته بنازك تماماً .

III
عيسى في البتاوين

في الصباح حين تتسلل أشعة الشمس من النافذة ينهض عيسى من الأريكة متوجهاً صوب الستائر ، يزيحها فينتفض قلبه مثل عصفور . ينظر إلى الغلالة الذهبية وهي تهبط بهدوء على الأشجار .

كان الضوء يتقطر خافتاً من وراء غلالة بيضاء تلف عمارة «أبو جورج» المنخفضة قليلاً ، وقد رسمت على جدرانها البيض بعض الأشكال . كانت وقدة الشمس تترك على خشب النوافذ نقاطاً حمراً صغيرة غائرة ، أما خشب الأبواب فقد كان مشققاً .

ينظر عيسى إلى السوق المزدحم ، إلى كنيسة البتاوين بسورها الصلب وطوبها الداكن ممحوة بضباب الصباح الخفيف . فيسمع دوي ألعاب نارية ترتفع من عند الجسر : صعادات النصر في المعركة . . .

أمر جيد أن يبقى في منزله بعيداً عن الحرب!

عاد إلى الروزنامة الموضوعة على الحائط ، كان اليوم هو الثالث من شهر تموز من العام ١٩٨٧ .

حك شعره ،.ثم عاد إلى خزانة الملابس ، عليه أن يرتدي

قبعته ويهبط من العمارة ويذهب إلى مقهى عوديشو ، صمونة ، بيضة مسلوقة واستكان الشاي . . . يحب امتزاج البيض المالح والشاي الحلو في فمه في الفطور .

عاد مرة أخرى إلى النافذة ونظر إلى رذاذ الضوء . كأنه مسبحة من نار يتوهج ثم ينطفئ ، قال في نفسه أريد أن أكتب شعراً بهذا المعنى . . . معنى يصعد ، يتوهج ثم ينطفئ . لقد شعر براحة كبيرة تتدفق في روحه هذا الصباح ، راحة شاهقة كأنها مصنوعة من الضوء والصمت . شعر بأن الطريق هذا الصباح أمامه فسيحة ، غامضة ، عالية ، خالية ، مفتوحة .

*

خرج من نزله في البتاوين . سار في الزقاق حتى وصل الشارع المشجر الذي يزدحم بعيادات الأطباء . كان الشارع ذلك اليوم مخططاً بالأصفر والأبيض ونظيفاً جداً . قبل الوصول إلى مكتبة الأورفلي شاهد الشعارات تملأ الجدران ، كانت اللافتات السياسية في كل مكان ، تزاحم إعلانات الأطباء الموضوعة على أكثر من بناية عالية . لم تترك اللافتات مكاناً فارغاً سوى واجهات العمارات الزجاجية .

هبط من الرصيف وعبر الشارع . على دكة نظيفة مغسولة وضع حذاءه البني وشد قيطانه . ثم تحرك باتجاه المكتبة . هبت نسائم عذبة على وجهه ، أدرك في تلك اللحظة معنى أن لا يكون للشعار السياسي أي معنى .

*

كان يريد أن يغير ما ينظر إليه في بغداد .

- لا بأس أن لا يكون للشعر معنى فهو قائم على هذا ، ولكن من المضحك أن الشعار السياسي لا معنى له أيضاً .

بعد أن ذهب إلى مكتبة الأورفلي عثر على النسخة الإنكليزية من كتاب وليام أمبسون (سبعة أسباب للغموض) ، وكان قد قرأه بالعربية ، وكعادته قال إنه يريد أن يقرأه بلغته الأصلية ؛ لأن الترجمة لا تنقل المعنى بدقة كاملة ، هو يقلد في هذا القراء الأصليين باللغات الأجنبية ، كما يقول له منير ، إلا أنه يصر على أن فهمه للكتب بلغاتها الأصلية أفضل من قراءتها مترجمة إلى العربية ، فيرد عليه منير أن من لا يفهم بالعربية لا يفهم بأية لغة أخرى ، وهكذا يكون الجدل بينهم على الدوام . . .

*

فرح عيسى بالكتاب ، ابتهج به جداً . نظر إلى السعر المكتوب على الغلاف الخلفي ١٠ دينار ، انزعج ، مال برأسه ، حاول أن يمحوه بأظافره إلا أنه فشل . السعر باهظ بشكل لا يصدق ، أعاده إلى مكانه ، سار خطوتين ثم تراجع ، حمله مرة أخرى بيده . قرأ ملخص الكتاب ، نظر إلى السعر حزيناً ، ثم تحرك نحو صاحب المكتبة متجاهلاً السعر المكتوب :

- بيش هذا الكتاب الإنكليزي . . . وقصد من الكلمة الأخيرة أنه كتاب لا يشتريه كل الناس . . .

- السعر مكتوب على الكتاب . .

- ماكو سعر . . . وهو يقلب الكتاب يميناً وشمالاً . .

- جيبه . . . قال له البائع ، قلبه قرأ السعر بصوت عال . . .

- عشرة دنانير . . . ووضع الكتاب على الطاولة . .

- اشدعوة . . . غالي . . . يمعود . . .

لو كان عنده ثمن الكتاب لاشتراه ، ولكن كل ما في جيب عيسى هو ديناران ، عشرة من أين؟ نهض البائع وأعاد الكتاب إلى مكانه ، وهو يدمدم «والله هي الكتب الإنكليزية غالية علينا» ، وذهب إلى زبون آخر ، وجد عيسى الفرصة سانحة ، تقدم خطوتين مال بجسده كمن يجلب شيئاً ساقطاً منه ، وبلمح البصر خطف الكتاب ووضعه تحت معطفه ، وخرج . في الطريق تلفت مرتين ، أخرج سيجارة من جيبه ، وضعها في فمه أشعلها ، وانطلق إلى المنزل .

*

كان توتره لا حدود له . شعر برجفة فرح وهو يخرج الكتاب براحة متعرقة من تحت معطفه ، ينظر إلى العنوان ثم يعيده ، كأنه يريد أن يتأكد أن الكتاب أصبح في حوزته .

وضع الكتاب تحت إبطه ودخل إلى الباحة . كانت النخلة بسعفها الكثيف تهتز ، فتتساقط منها حبات التمر بغضارته المدورة ، وكانت الدجاجات تجري . ثم تقف لتنقر التمرة من الأرض وتجري مرة أخرى . شعر بجسمه النحيل مشدوداً بعد سرقته للكتاب ، مزيج من البهجة والخوف ، وعضلات أرجله

الصغيرة أصبحت أكثر تصلباً . وصل إلى حافة الممر ، كانت وحيدة في حجرتها ، تفصل بالمقص وتخيط على ماكنتها الصنجر ، لم يكلمها .

صعد إلى حجرته ، في الطريق قابل السيد هادي خارجاً من حجرة رشيد وهو يخبئ مجلة خلاعية تحت عباءته . محادثة صغيرة حول موضوع ما . . . ثم دخل حجرته . جلس على الكرسي ، وضع الكتاب بين يديه ، وأخذ يقرأ ، قرأ بعضاً من المقدمة ، شيئاً من الفصل الأول ، بعض الأبيات الشعرية المتناثرة في الكتاب . . . وقلبه يخفق . . . تحسس الكتاب بيديه . . . مطبوع في مطبعة في لندن ، تسمرت عيناه على الحروف اللاتينية ، شكلها ورسمها يؤثر فيه أكثر من رسم أي حرف آخر وبأية لغة أخرى . . . تخيل أن ديوانه مترجم للإنكليزية ، ومن هذه المطبعة ذاتها التي طبعت كتاب وليام أمبسون ، وبدلاً من هذا الاسم رسم بخياله Issa على غلاف الكتاب ثم سرح بأفكاره . . .

IV
أفكار وهوامش الشاعر

هبط عيسى من النزل في الظهيرة كي يشتري لنفسه ساندويش فلافل ويعود إلى حجرته . في نزوله صادف وحيدة لكنه لم يشأ أن يسلم عليها أو يكلمها ، مازال كتاب امبسون مؤثراً فيه ، في تلك اللحظة كان يريد الهروب من أي شيء محلي ، كان يريد أن يتماهى في أحلامه لتكون جزءاً مما كان يتصوره . كان عيسى يفكر بمدينة عظيمة مثل المدينة التي عاش فيها بودلير أو إليوت . يفكر بجسر لندن وقت الصباح ، كما ظهر في قصيدة الأرض الخراب ، أو بباريس كما هي في ديوان ضجر باريس . . .

لقطة مما مضى

في يوم كنا جالسين في المقهى . بعد أن شرب قهوته ، قال عيسى : آخ لو كانت لي طاقة سحرية ، آه لو كان عندي بساط الريح لرحلت اليوم إلى لندن ، إلى موسكو أو باريس . . .

سرعان ما هزأ به منير ، قال له أنت تفكر بأحلام غربية بعقل شرقي ، ذلك أنك تريد أن تعيش أحلامك عن طريق قوة

غيبية أو سحرية؟ فأجابه عيسى ماذا بيده ليعمل، إنه عاجز، لا يمكنه أن يعيد الخلق ليولد في مكان آخر، ولا يمكنه أن يطير للمكان الآخر بسبب هذا... وأشار إلى صورة صدام المعلقة على جدار المقهى.. إنه لا يتركني أذهب وأعيش في المكان الذي أجد نفسي فيه...

عودة

عاد عيسى إلى النزل بعد أن لف الساندويش بورق جرائد. دخل من الباب الكبير. نظر إلى واجهة النزل القديمة، كان الباب باهت اللون، ومفتوحاً، وفيه قفل من حديد كبير وصدئ.

دخل الباحة. على الأرض ورق عنب جاف، وجذاذات مختلطة مع التراب المكنوس. كان الهواء يهب مترقرقاً ومهتزاً بين الظلال.

دخل إلى حجرته. التفت إلى الجدران التي أكلتها الرطوبة. جلس ليلتهم الساندويش، شعر أن نفسه مسدودة، غالباً ما يحدث هذا حينما يريد أن يكتب قصيدة، فوضع الساندويش على الطاولة، وجلس إلى مكتبه. تناول القلم ووضع أمامه ورقة بيضاء. كانت كتب سير الشعراء أمامه، تمر بها عيناه واحداً بعد آخر، بوشكين رامبو بودلير هولدرن. غير أنه لم يستطع كتابة أي شيء.

ماذا يصنع؟ نهض من مكانه. فتح النافذة. كان الشارع

الجانبي مهدم الرصيف ، تطس السيارات بمائه الآسن ووحوله . الوجوه التي تسير في الشارع ضارية ، موحشة ، وخاوية . البيوت قديمة معتمة . واجهات بيوتها الطابوقية حزينة . ومن بعيد كانت محطة البانزين مزدحمة . وحتى الكنيسة البعيدة لم تكن تشبه الأديرة القوطية ذات القباء والأحجار والمداخل المرمرية التي يراها في الكتب ، فقد كانت جدرانها البيض كالحة . ونمت الأعشاب بين بلاطاتها المخلعة ، وحتى الناقوس الذي يعلو الباب الحديدية ذات المسامير فلم يكن مثل نواقيس الكنائس الكبيرة التي يتدلى منها حبل غليظ . فقد كان ساكناً لا يتحرك . يشبه أجراس محطات المطافئ ، أو محطات السكك الحديد .

وما إن عاد ، وقبل أن يضع القلم على الورقة ، اندق الباب دقات متعاقبة . رمى القلم . تأفف . نهض من مكانه . فتح الباب . كانت أم جوني في الباب وفي يدها مكنسة .

كانت تكلمه وهو ينظر إلى الحجرة التي تقابله ، بابها مفتوح . هنالك سرير واحد مفروش ، عليه دنخا نائم وأنفاسه تعلو بشخير مجهد وأنين حبيس . في الأسفل حجرة وحيدة ما زالت مضاءة بمصباح كهربائي متدلٍّ بسلك . امرأة ياقو وهي تكنس في الطارمة ورق النستلة ، برطمانات المربى ، بثل اللبن والشاي ، وعند الحنفية قواري ، وكسرولات ، وصحون فرفوري ، وصواني النيكل ، واستكانات ، وأكواب غير مغسولة .

*

عاد إلى مكتبه . شخط بالقلم على الورقة . قال في نفسه حتى لو بايرون هنا في البتاوين حتى لو شيلي ، لما كتب بيتاً من الشعر واحداً . هذه المدينة . . . وهؤلاء الناس . . . لا يلهمونني أي شيء : شوارع موحلة ، ومنازل لا تصلح إلا أن يرفع الكلب قدمه عليها ويبول .

*

هل سيمتلك يوماً تلك القوة السحرية التي تحول المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة . مثل الخيمياء عند العرب أو اليونانيين؟ هكذا بضربة واحدة تصبح بائعة الخضرة كونتيسة؟ وبائعة البطيخ بارونة . . وأن تتحول هذه النساء ، البائعات ، والخدامات ، والمنظفات شبيهات بالأميرات الجميلات اللواتي يصورهن الشعر الغربي؟

حتى عيسى ذاته ، الجندي الفرار ، سيتحول في الغرب إلى شاعر عظيم ، إلى شاعر على الطراز الغربي (ما ناقصه أي شي ليكون غربي)؟

سيصدم الغربيين بمظهره الساحر ، بشحوبه ، بأناقته الفذة ، بطابعه الأرستقراطي ، بفكره الفنطازي المتوحش ، بأطواره العجيبة الخارقة . أن يروه شبيهاً بأبطال الروايات الفنطازية ، وغرباء القصص الخيالية والعجائبية .

*

إنه الغرب . . . الذي سيحوله إلى شاعر غامض قادم من الأبراج القوطية لا من سراديب البتاوين ، يجعل منه شاعراً

مرعباً مثل الكائنات الخرافية لا خائفاً من خيون الذي يعمل مخبراً للأمن . أن يكون شاعراً رهيباً يقف بملابسه الشاذة الغريبة أمام مدينة ملأى بصور الأدباء والممثلين وصور الجنود والمغامرين ، لا أن يقف أمام دكان الفلافل بالعنبة ، فيمر أمامه سلمان المكاري مع حماره الذي يحمل الخس والكراث والرشاد ، أو يمر جاسم الجابي في مصلحة نقل الركاب على دراجته الهوائية وقد وضع خرج الصمونة والبصل وراءه .

من أين ، وكيف- صرخ عيسى- أحصل على هذه الثيمات التي طبعت الشعر الغربي؟

*

كان عيسى يشعر بالعجز ، فمن جهة يريد أن يتأثر بهذا التيار الذي فلق الثقافة وشقها شقاً ، هذا الذي خربها وكومها في الزاوية ، ومن جهة أخرى يبحث عن تجارب جديدة غير موجودة هنا وعليه أن يبتعثها من نفسه . . . فتساءل هل يمكنه أن يخترع كل هذه الصور وهو في البتاوين؟

فهنا بلاد الفقر الحقيقي ، لا أبراج ، ولا كنائس قوطية ، ولا حانات فرنسية ، ولا صور فنطازية ، ولا أجواء بيتورسكية ، مثل تلك الموجودة في شعر بودلير ورامبو ومالارمية . . . كيف يصبح مثل سان جون بيرس ، أو ت س إليوت ، من دون المدن التي صنعتهم؟

كان عيسى مدفوعاً بهذا الشعور الغامض الذي يهزه ، بهذا القرف من البتاوين الملأى بالمنازل القذرة ، والمكتظة بالناس ،

وبسوقها المزبلة التي يعج بمخلوقات خاوية مكتئبة . كيف يحول هؤلاء الناس الفظيعين إلى أرستقراطيين ، كيف يحول المقامرين إلى لوردات ، والمرتزقة إلى أمراء ، والخفراء إلى وسيمين ، والباعة إلى بحارة ، والسوقة إلى ضباط ، والمكارية إلى فرسان . . . ؟

كيف يتجاوز وجوههم الكريهة المبتذلة وأمزجتهم السيئة وحياتهم التي قلما تنجو من السخرية؟

*

لقد حاول أن يكتب عن أجواء البتاوين فلم يفلح ، حاول أن يكتب بلغة شبيهة بلغة الدواوين المترجمة ففشل . أراد أن يحصل على لغة لم تكن لغة معاصريه ، أراد أن يجد نوعاً من المطابقة بين لغة شعره وبين الأجواء التي كان معنياً بتصويرها ، لقد افتتن بالشعر المديني للشعراء الأوربيين السرياليين خاصة ، ولكنه لم يجد مدينة تطابق هذه المدينة التي عليه أن يكتب عنها .

*

سار من النزل الصغير القريب من نزله ، سار حزيناً ، مهموماً ، متعباً ، يبحث عن شيء يلهمه : لا شيء . . . أبداً .

حسان أبو العنبة يقف بوجهه الأبله أمام باب دكانه كما يفعل كل يوم . عند مقهى عوديشو يجلس مرقس وسيد هادي على القنفة الأمامية يشربان الشاي ويثرثران . في شارع المخفر كان رشيد واقفاً مع امرأة يعمل ابنها في مخفر شرطة البتاوين .

بوابة بيتهم العالية إحدى ضلفتيها مكسورة . كانت الرطوبة ثقيلة ذلك اليوم ورائحة التراب عالية ، فقد مطرت السماء بالأمس وانبعثت من الأرض رائحة قوية .

أما أم جوني فتقف على الدوام في شباكها وتنظر إلى الشارع . تحني جسدها إلى الأمام . صدرها ثقيل نصف مكشوف في قميص النوم الناصع المشغول من الأعلى بالدانتيلا السوداء ، ذراعاها مكشوفتان سمينتان وربلتان وشعر أبطها محلوق . تقف وهي تضغط صدرها على قاعدة النافذة وتنظر بعينيها الثقيلتين وهي تدخن سيجارتها .

في الشارع مجرى صغير حيث يبول السكارى وهم خارجون من الخمارة القريبة من فندق أبو جورج ، وتبقى الرائحة النفاذة ثقيلة وحادة حتى الصباح .

*

لم يجد عيسى ذلك اليوم في الشارع ما يلهمه ، لم يجد شيئاً مهماً كي يكتبه ، لم يجد علاجاً لمرضه . وحين شاهد سالم أمام الباب ، وقف معه ، كانت باب النزل مفتوحة ، تكشف عن مشهد الباحة الداخلية وهي مملوءة بالنساء .

*

سار عيسى داخل النزل ، في الحوش كانت رائحة التواليت مختلطة برائحة مياه الغسيل وبقايا الأطعمة ، وكان ماء الطارمة يجري ، وهو يحمل ريش الدجاج وصدف السمك ، ويصب في المجرى .

رأى رشيد وهو يصعد بالبيجامة القطنية المخططة السلالم القديمة ، أما رجينا فكانت جالسة أمام حجرتها . تنتظر زوجها الذي يعمل في الخمارة ، وابنها وردة الذي يعمل في سوق البتاوين ، يضع الخضرة المرشوشة على عربة ويقف أمام المخفر .

*

نساء النزل وهن منهمكات بالحديث . عند التنور تقف أم جوني بابتسامتها الدائمة ، ونار التنور تلفح وجهها . عند الدكة تجلس وحيدة أمام طشت كبير تدعك ملابسها الداخلية . بضع نساء أخريات يجلسن على العتبة يثرثرن وهن يحفرن الكوسة بالمحفار ، ويضعنها في الصواني . ألوان الحائط ما زالت قديمة ، والتراب يتصاعد تحت أقدام الأطفال .

V
التعرف على جماعة بهية

•

لا أعــرف من أثر على من؟ عــيــسى هو الذي أثر على جماعة بهيـة ، أم جماعة بهية هم الذين أثروا على عيسى ، حيث وجدت الكثير من أفكارهم متطابقة .

المهم أن عيسى عرفنا مرة ، حين زرناه- منير وأنا- إلى سالم خيون ، أو «سالم رواية» كما كانوا يطلقون عليه ذلك الوقت ، وعلى كاظم سلمان .

وأتذكر ذلك اليوم جيداً ، حيث وصلت البتاوين ، وجلست في مقهى عوديشو بانتظار منير .

كان السيد هادي جالساً على القنفة الخارجية يشرب الشاي ، فجلست إلى جانبه ، وكان في يدي كتاب أخذت أقلب صفحاته ، أمام المقهى نزل واسع اسمه نزل جورجيت الكلدانية ، سلالمه الخارجية رخامية ، ولكن طلاؤه الرصاصي يتساقط على الأرض بسبب الرطوبة ، وخشب شناشيله قد بهتت ألوانه ، يقطن فيه عمال مصريون وسودانيون وعائلة من البصرة جاءت إلى بغداد بسبب القصف الإيراني الذي كان يطاول المدينة ذلك الوقت ، وكانت ابنتهم سمراء مراهقة ترتدي

دشداشة بيتوتية زرقتها خفيفة ، تطل من النافذة بين حين وآخر ، وكان السيد هادي قد سمر عينيه عليها طوال الوقت .

بعد حوالي نصف ساعة من جلوسي في المقهى جاء منير ، وانطلقنا إلى نزل أم جوني .

أمام النزل التقينا عيسى في الباحة ، قال تعالوا لنصعد إلى حجرة سالم وهو من جماعة بهية ، فصعدنا إلى الحجرة غير أننا لم نجده ، قال ربما صعد وراء دينا ، فسألناه من تكون ، قال ساكنة جديدة ، كلما تصعد السطح لتنشر هدوم الغسيل يصعد وراءها وقد سمع كل من في المنزل لهاثهما على السطح . بقينا واقفين خمس دقائق تحت شجرة السدر في الباحة . حتى فاجأنا سالم قادماً من خارج النزل ، صاح له عيسى ظلمتك ظننتك فوق السطح . فلم يجب سالم بشيء .

*

يتميز سالم بشكله الشيطاني . بسبب يديه النحيلتين الشبيهتين بعظمتين ، وبسبب هيئته الماكرة . وهو شبيه بعيسى من نواح عديدة ، فقد كان مثله يرتدي معطفاً رثاً شبيهاً بمعطف شارلوك هولمز . وقد امتدت أزراره حتى العنق . ويمسك بيده غليوناً معقوفاً ، ويدخن تبغاً رخيصاً ، قد وضعه بكيس نايلون . وعلى رأسه قبعة معوجة اشتراها من البالات ليخفي بها صلعته . وقد تمزقت حوافها من القدم والوسخ .

سألت منير مرة «من ألهم من برأيك؟ عيسى ألهم سالم أم سالم هو الذي ألهم عيسى؟» ، فقال لي «إن الأمر يعتمد على

من قام بهذه الأشياء في الأول» وهو محق ، وعلى الأرجح أن سالم كان قد سبق عيسى بهذه الأفكار . لا أعرف بالضبط ، ولكن من الواضح أن عيسى قلد سالم كثيراً ، على الرغم من أني وجدت عيسى أكثر موهبة من سالم ، في الكتابة وفي اللغة ، ولكن الأخير كان أكثر ثقافة ، أكثر معرفة ، وبالضرورة أكثر تصلباً ، قال منير إنه أكثر جذرية من عيسى ، ولكني وجدت جذريته عقائدية ، يعني ذات طابع إيديولوجي ، مجموعة أفكار قادرة على تفسير أي شيء ، والأمر ليس مستبعداً فقد كان سالم شيوعياً فيما مضى ، والشيوعية مثل الدين فيها الكثير من العقائد المتصلبة ؛ وقد حولها سالم إلى الشعر ، وقد احتج منير على فكرتي هذه ، ذلك أن إعجاب سالم بالغرب بالطريقة هذه ، وحتى أكثر مما لدى عيسى- بل اكتشف أن عيسى يقلده بهذا الأمر- قد قطع كل علاقة له مع الشيوعية ، مع ذلك لم أجد القضية تتعلق بالمضمون قدر تعلقها بالشكل ، من يذهب بعيداً في العقائد المتصلبة فله القابلية على حرفها نحو كل اتجاه ، حتى بعبادته الجديدة للغرب ، هي نوع من العقائدية المتصلبة التي جلبها عن طريقة إيمانه السابقة .

*

كنا جلسنا في حجرته على كرسيين يقابلان سريراً غير مرتب ، رائحة الجوارب هي الرائحة السائدة في الغرفة ، أعقاب السجائر في كل مكان حتى على البطانيات . الحجرة عبارة عن

فوضى قائمة : الطاولة الوسخة ، أدوات الكتابة المرمية في كل اتجاه ، الأحذية العتيقة بعضها ما زال عليها طين الشتاء ، الكتب (كلها بالعربية ، لا يقرأ سالم بلغة أخرى كما هو عليه عيسى) مكدسة بطريقة تثير الغثيان ، وفي الزاوية طباخ نفطي ، مقلاة سوداء ، صينية من النيكل رخيصة ، وكتلي محترق الجوانب ، وعلى الأرضية قشور بيض مسلوق ، لب صمون ، بقايا سكر ، بقع شاي ، أما الجدران فكانت ملأى بصور الأدباء والكتاب الغربيين ، وهنالك ثلاث صور فقط لكتاب عراقيين هم : فؤاد التكرلي ، وغائب طعمة فرمان قد انتزع الصورتين من صحيفة ووضعهما بإطار ، وصورة لمحمد خضير عبارة عن تخطيط بقلم الفحم لفنان محترف .

رفع سالم يده بصورة استعراضية مشيراً إلى الصور ، وهو ينفض معطفه أمامنا ، وصاح :

- هؤلاء هم فرسان السرد العراقي .

كان صوته أجش ، ويتحدث بطريقة مسرحية لا تخلو من افتعال ، وكان يحاول التأثير على سامعيه بالحركة وبالصوت بغرابة الأفكار ، قال إنه يؤمن باللون الأحمر الذي يولد الفن . والفن هو بحث متواصل عن صراع مستديم بين العواطف ، وهو أمر داخل الفنان لا خارجه .

بعد قليل سمعنا طرقات على الباب ، قام عيسى وفتح الباب .

جاء كاظم .. قال سالم .

وقف كاظم وسط الحجرة بملابسه العتيقة ، بحذائه الضخم ولونه الحائل ، فقد علته طبقة سميكة من الغبار ، وقف أمامنا بلحيته التي لم يحلقها منذ أسبوع ، وينظرنا بعينيه المتعبتين من سكرة الأمس ، بينما قدمنا عيسى له على أن منير شاعر ومترجم عن الروسية ، وشدد على الكلمة الأخيرة ، وقدمني كشاعر وكنت أتقبل هذا الأمر بفرح عارم وبخجل شديد ، بينما قدم كاظم بصورة إعلانية :

- كاظم سيصبح أعظم روائي في العالم . . . وهو يكتب رواية الآن . . .

كان طويلاً نحيلاً ، وله لهجة جنوبية محببة ، وكان أقل ادعاء ، ووجهه أكثر هدوءاً .

ولا أخفي أني انبهرت بوجوده في واقع الأمر ، لأني لم أتعرف على أي شخص في حياتي كتب أو يكتب رواية ، كانت المرة الأولى التي أقابل فيها شخصاً من لحم ودم يكتب رواية ، وكنت أتساءل على الدوام من هذا الذي يستطيع كتابة رواية؟

الشعر كنت أكتبه ، وأرى شعراء آخرين كثيرين أيضاً ، ولكني لم أقابل في حياتي شخصاً يقول لي إنه يعكف الآن على كتابة رواية ، وسؤالي الدائم من هذا الشخص وما شكله؟

ذلك أن عمل الرواية نسبة لي ذلك الوقت أمر رهيب حقاً . شخص يكتب رواية ، بمعنى أن له الإمكانية على صناعة مدينة ببناياتها ومؤسساتها من خياله هو . يعني أن يصنع إدارة

كاملة من لا شيء! الرواية ليست حبكة وشخصيات فقط، ولكن هي إنتاج عالم إداري من خيال. بمعنى آخر من هذا الشخص الذي يمكنه أن يصنع مؤسسات، وأفراداً، ومركز شرطة، وعائلات، وشوارع، وبيوتاً وكلها من محض الخيال؟!

جلست أمامه متلعثماً مثل تلميذ. «تكتب رواية؟» ... قلت له مندهشاً ومرتبكاً، إلا أنه لم يجبني مباشرة، رمقني بنظرة لم أفهمها، وذهب إلى الطاولة ليتناول غليون عيسى، فتح الكيس ودس فيه مقداراً من التبغ الرخيص، أشعله وأخذ يدخن، ثم التفت إلي، «أكتب رواية بوليسية .. أكتب عن جريمة .. تحدث في مكان قريب من هذا المكان فتشتبه الشرطة بأحد الأشخاص .. طبعاً الحبكة بحاجة إلى تأخير، والأحداث بحاجة إلى تعليق، فعلي أن أجعل الشرطة تبحث عن الأدلة، فكلما تكتشف دليلاً أحاول أنا أحبطه بعد صفحات ... وفي النهاية طبعاً سأكشف الدليل الذي يكشف الجريمة ..» انبرى سالم مباشرة ليحطم له حبكته، قال بصوت خفيض «ولكن على أرض الواقع الأمر مختلف»، سألته مندهشاً: «كيف؟»، وكنت أظنه يتكلم عن أمر يتعلق بصناعة الرواية ذاتها، وكان هذا أكثر ما يهمني، إلا أنه بطريقته المسرحية قال له: «ياعزيزي»، صمت وأخرج سيجارة من علبة منير دون أن يستأذنه، ووضعها في فمه، «يا عزيزي الأمر هنا مختلف»، نفث الدخان في الهواء «هنا ... لا يمكن كتابة رواية بوليسية في مجتمعات دكتاتورية، لو شكت الشرطة

بأحد الأشخاص سوف يأخذونه للتحقيق مباشرة ، إذا قاوم سيقتلونه ، ويقولون كنا متأكدين من أنه هو المجرم ، وإذا لم يقاوم وأخذوه إلى التحقيق ، فإنهم سيضربونه حتى يقر بأنه المجرم ، سواء ارتكب الجريمة أم لم يرتكبها . . . فهل يمكن كتابة رواية بوليسية في البتاوين ، أو في أي من البلدان العربية؟»

انفجرنا لحظتها ضاحكين .

ثم عقب على الموضوع « الجريمة في الغرب يتم كشفها عن طريق الدليل ، في العالم العربي بالإقرار والإكراه . . . وبالتالي هذا هو سبب فشلنا في كتابة رواية بوليسية» . . . عيسى وجدها فرصة ، فالتفت إليهما وقال الرواية البوليسية بحاجة إلى مجتمع غربي ، تعامل الشرطة الناس كبشر ، هنا الرواية البوليسية تنتهي بيوم واحد ، يوم تتدخل السلطة وتنهي الموضوع ، بعدين لا مجرمين أذكياء لدينا ، الغرب مجتمعات مركبة يمكنه إنتاج رواية بوليسية ، مجتمعاتنا سطحية يصعب إنتاج رواية بوليسية فيها ، نحن مجتمعات بلا مضمون وبلا أشكال . . .

المضمون وعرفناه ، قال له سالم ولكن ما هي الأشكال ، فرد عيسى وهو يفتح النافذة ، ويدمدم مع نفسه «خنقتنا رائحة جواريبكم» ما إن فتح الشباك قال :

الرواية البوليسية يكتبها واحد اسمه شارلوك هولمز ، تكتبها واحدة اسمها أغاثا كريستي . . . فقاطعه سالم قائلاً ، ديستيوفسكي أيضاً . . . الجريمة والعقاب رواية بوليسية . . .

فأكمل له عيسى إذن عليكما أن تغيرا اسميكما إلى الروسية ، أنت تصبح كاظموف سلمانوفسكي . . . وأنت تصير سالموف خيونفسكي . . .

*

حلول عيسى الثقافية تبدأ بالشكل وتنتهي به .

من السهل علي أن أعرف أفكار عيسى ، ولكن من الصعب معرفة تناقضات كاتب الروايات البوليسية!

مع ذلك كان الأمر نسبة لهما أن على كاتب الرواية البوليسية أن يعيش في عالم يحيطه الغموض ، وأن يبقى لغزاً نسبة إلى كل من يعرفه .

بالنسبة لعيسى عليه أن يعيش في مدينة كبيرة ، كبيرة جداً . فيها قدر كبير من الغرباء ، قدر كبير من الجرائم ، وستكون مهمته هي تبديد الغموض عن هذه الجرائم ، بينما يبقى هو أسيراً للغز وغموضه .

ماذا على كاتب الروايات البوليسية أن يفعل بالنسبة لعيسى . . . عليه أولاً أن يغير اسمه . . . ثانياً أن يقلد كاتباً غربياً بكل شيء .

*

متى فكر عيسى بكتابة رواية بوليسية؟

أظنه منذ ذلك اليوم الذي عرفنا فيه إلى سالم وكاظم ، فكر بكتابة رواية بوليسية ، وفي اليوم ذاته ، ونحن نهم بالخروج من حجرة سالم ، حيث ذهبنا نحن الخمسة إلى خمارة في رأس

الجادة وشربنا البيرة ، استعار عيسى من كاظم رواية الجريمة والعقاب لدستيوفسكي . (على العموم كان الشباب يتعاملون مع رواية دستيوفسكي على أنها رواية بوليسية حتى وإن لم تكن كذلك) ، وأخذ عيسى بعدها يقلد دستيوفسكي في كل شيء .

*

ومن جانبي فهمت عيسى مباشرة ، كانت صورته نسبة لي واضحة دون تعديلات أو رتوش ، وهو من جانبه لا يخفي أي شيء يؤمن به أو يرغب به ، ولا يدعي أية قيمة أخلاقية لا يملكها مطلقاً ، بل قال لنا ذلك اليوم إنه يبحث عن نجاح مفاجئ ، مثل هذه النجاحات المفاجئة التي تحدث في الغرب ، ويريد زواجاً ارتجالياً من نجمة سينمائية . وقال إنه يحلم بشهرة كبيرة ، يحلم بالمال ، والإدمان على الكحول والمخدرات ومن ثم يحلم بموت مأساوي ليكسب شهرة كبيرة .

*

من الطرف الآخر ، أقصد طرف سالم وكاظم كان الأمر معكوساً تقريباً . . . أو على الأقل فيه الكثير من السياسة ، وفيه الكثير من الادعاء ، قال سالم مخاطباً عيسى وكاظم :

«لا تتهربا ، علينا كتابة رواية جماعية باسم بهية تدين الحرب والدكتاتورية ، وهذا أفضل بكثير من كتابة رواية بوليسية» .

وقد وافقه كاظم على ذلك ، وهو يعدل قبعته العتيقة على رأسه ، ويهز كتفيه النحيلتين تحت معطفه المدعوك ، كأنه شحاذ في شوارع لندن .

طلب كاظم من عيسى سيجارة . أخرج عيسى من جيبه علبة روثمان وقدم لسالم واحدة . رفعها إلى عينيه وسأله بامتعاض ما هذا . . . هذه سيجارة من نوع بغداد . . . لا من نوع روثمان . . .

قال له عيسى «نعم وجدت علبة سجائر روثمان مرمية على الأرض ، أخذتها ووضعت فيه سجائر بغداد ؛ لأن العلبة الأجنبية أحلى وأرقى . . .»

أجاب كاظم ، ولم لا ، إن لم نستطع كتابة رواية ، فلنكتب عن عجزنا عن كتابة رواية في زمن الدكتاتورية ، نستوحي فيها حياة العاهرة بهية ، ندين بها الحرب والمجتمع . .ندين الجميع . . .

عيسى لم يكن موافقاً ، لقد دافع عن خيارته . . . الفن يعني الفن . . . ولا علاقة له بأي شيء آخر . . .

قال عيسى وهو شبه سكران إن على الفنان أن يسير في شوارع البتاوين بصدره النحيف ، بقبعته العتيقة ، بلحيته الخفيفة التي لم يلامسها الموس لمدة يومين أو ثلاثة ، بعينيه المنتفختين ، بمعطفه الأسود الذي يرتديه صيفاً وشتاءً ، بأحذيته الجلدية الضخمة التي تشبه بسطار الشرطي ، ببنطلونه الجوخ الذي اشتراه من البالة ، والذي يذكر بسيرة أرلندي غريب الأطوار يسير في الأربعينيات أو الخمسينيات في دبلن أو لندن!

كان صوته يرن في الخمارة ، ونحن نشرب وندخن ونأكل اللبلبي . .

VI

جماعة بهية وكتابة رواية بوليسية

في الواقع كنت قرأت فصولاً من رواية بهيـة ، وهي رواية شاعت بيننا ذلك الوقت وقد كتبتها الجماعة بشكل جماعي ، لا أعرف كيف تمت كتابتها ، ولكنهم وقعوها باسم جماعة بهية ، وكانوا استنسخوا منها نسخاً عديدة ، بل أقول إنهم باعوا منها الكثير ، وحتى النسخة التي كانت بحوزتي كنت اشتريتها من شخص يعرفه منير في الجيش ، وكان يبيعها للجنود الشعراء بشكل سرّي جداً .

وكنت أتساءل هل كان عيسى قد اشترك بكتابة هذه الرواية . أشك بذلك ، لم يكن تعنيه هذه اللغة السياسية بالمرة . ولكن منير هو الذي حاول أن يقنعني أن لغة الرواية الشعرية كانت بتأثير حتمي من عيسى .

أما عيسى في واقع الأمر فكان بعيداً بشكل كلي عن كل ما هو سياسي ، ولكني أعرف جيداً أنه حاول في أيامه الأخيرة أن يتحول إلى دستيوفسكي ، وحاول أن يحول البتاوين إلى بطرسبورغ ، وحاول أن يكتب رواية شبيهة برواية الجريمة والعقاب .

*

- سالم . . . صاح عيسى وقد فز من نومه . . . سالم أريد أعيش في بطرسبورغ مثلما كانت أيام دستيوفسكي . . . لا في البتاوين التي يعيش فيها سيد هادي أو إحسان أبو العنبة . .

في الحجرة المعتمة قليلاً ، كان عيسى مضطجعاً في سريره . الشباك القديم مفتوح نصف فتحة ، ويهب تيار من الهواء المنعش إلى الحجرة . المصباح الكهربائي يتدلى من السقف ، يسكب ضوءاً أصفر شاحباً ، وعلى الرفوف تصطف عشرات الكتب الأجنبية ، أغلفتها جميلة ، ملونة ، ولامعة .

قبل أن ينام كان يقرأ برواية الجريمة والعقاب . منتصف الليل وضعها إلى جانبه ونام . استيقظ بعد ذلك وأخذ يتحسسها بيده . توقف قليلاً وحدق بسقف الحجرة ، نقل نظره إلى الجدران المتقابلة التي تغطيها مساحة داكنة من الرطوبة ، ومن خطوط الأرضة الصاعدة إلى أعلى ، خطوط متموجة وفيها رائحة ثقيلة .

فكر قليلاً . رفع الكتاب إلى عينيه ثم وضعه جانباً . نهض وجلس إلى الطاولة المجاورة . كانت تحوي بقايا عشائه ، كسراً من الخبز . قشور البيض المسلوق . واستكان الشاي الفارغ الذي بقي بداخله السكر فأخذ الذباب يحوم عليه .

- لماذا لا تتكرر أحداث الجريمة والعقاب في بغداد . . . ؟
هكذا تساءل عيسى .

هل لأن بغداد لا تشبه بطرسبورغ ، ماذا لو لم يملك دفع إيجار الشقة ، ماذا لو كانت أم جوني بخيلة ، كريهة ، وكان

يخشاها ، يتحاشاها كلما خرج في الصباح من حجرته . بعد ذلك يقرر قتلها . وسيخفي الجريمة . وتتحقق هذه الأحداث مرة أخرى : العاهرة التي يتعرف عليها ويحاول إنقاذها . شقيقته التي تتزوج شخصاً تكرهه . السكير الذي يتعرف عليه في البار ويكتشف أنه والد سونيا .

*

شعر بالراحة في تلك اللحظة . شعر وكأنه اكتشف شيئاً عظيماً في حياته ، توصل إلى الحل . احتضن رواية الجريمة والعقاب ونام .

*

في الصباح . تسلل نور الشمس من فتحة في الستارة . نهض عيسى متثاقلاً ، تحسس بيده لحيته التي لم يحلقها منذ يومين ، عيناه منتفختان من قلة النوم ، وجهه ناحل ، شاحب ، شبيه بوجوه الرومانتيكيين في القرن التاسع عشر . كان يحاول أن يصم سمعه عن الحوش الذي يتقلب في ضجيجه وروائحه ، حمل المنشفة ومعجون الأسنان «عنبر» ، (معجون صنع محلي لم يكن يحبه ، ولكنه الوحيد القادر على شرائه) . فتح باب الحجرة نصف فتحة ، كان السلم الذي يقود إلى التواليت وسخاً ، في داخل الحوش شعر بحركة الصباح في المنزل ، وشيش الماء في المغسلة . دربكة الأقدام على السلم . سمع اصطفاق باب التواليت وشم رائحة البول المنبعثة من المجرى . من حجرة السيد هادي كانت رائحة الشاي المهيل تنبعث

بقوة ، وهو يجلس عند البريمز ويقلي بيضاً بالدهن في المقلاة .

دنخا كان واقفاً أمام التواليت وهو يحمل منشفته . تحت النخل جلست سليمة بدشداشتها السوداء الطويلة المقفلة وبأكمامها القصيرة ، كانت جالسة لتضع النفط بالبريمز عن طريق القمع . خرج مرقس من الحمام الفوقاني باللباس الطويل . قرب الزاوية جلست أم جوني أمام طشت معدني وأخذت تغسل ملابسها . عبرت شونة الكردية الممر وهي تحمل صينية وضعت فيها رزاً غير مطبوخ وصاحت :

ولج مكموعة هاي وين صرتي . .؟

سمع حركة السيارات مختلطة بصوت الباعة ، وأصوات العمال ، والطلاب ، هي تزحف إليه بالقوة ، بينما هو لا يريد إلا أن يسمع صوتاً آخر ، صوت بطرسبورغ في القرن التسع عشر . . .

قال في نفسه عليه أن يتحاشى صاحبة المنزل . أن لا يواجهها على السلم ؛ لأنه لم يدفع لها الإيجار هذا الشهر . ارتدى قبعته المبعجة ، نظر في المرآة إلى وجهه الناحل ، إلى عظم خديه الناتئين . لقد ارتدى ملابسه كاملة : المعطف والبنطلون والحذاء ، وضع الكتاب تحت إبطه ، فتح الباب نصف فتحة مثل لص ، وحين رأى الحوش قد خلا تماماً من النزلاء هرول إلى الباب الخارجي ، فتحه وانطلق في الشارع المؤدي إلى السوق .

تنفس الصعداء وشعر براحة كبيرة لأن صاحبة المنزل لم

تلحظه . سار في شارع حارة الصليب نحو شارع المشجر ، فتقدمت رائحة سوق البتاوين النفاذة . تجاوز محلات القصابة ، وقد علقت لشش الخراف المذبوحة ، وأضلاعها المهشمة بالساطور .

رحلة إلى ماخور البتاوين

سار في الزقاق ، كانت النفايات مرمية في طرف الشارع . توقف وهو يدخن سيجارة ، وينظر إلى الجنود ذوي الشوارب الغليظة ، وهم يرتدون الملابس العسكرية ، ويتجهون إلى الباب الشرقي . كان هنالك بضعة مشردين ، مدمنين ينامون على الرصيف . وهنالك أيضاً فلاحون قادمون من القرى أمام أبواب العيادات التي ستفتح في المساء . سار خطوات عند مظلة باص الليلاند الأحمر ، وهو يفكر بالعاهرة النحيفة التي تشبه سونيا في رواية الجريمة والعقاب ، كانت تقطن في نزل للعاهرات يقع قرب حديقة صغيرة تتوسط محلات الموبيليات . في ذلك المكان قد لحظ أكثر من ماخور ، ومحل لبيع الخمور ، وثلاث بارات في الجوار .

دخل البار ، جلس وطلب ربع عرق ، أخذ يشرب وهو يتخيل شخصاً غريباً أبيض الشعر يجلس إلى طاولته ، ويكتشف بالصدفة أنه والد العاهرة التي يحبها!

*

تقـدم بخطوات من الماخـور . طرق البـاب ، فـتح العـامل المصري ودعاه إلى الدخـول . سار ، سيجارته في فـمه وكتـابه بيده . فواجهته في الممر عاهرة مصرية ، قالت له بدعابة وهي تشير له على كتابه :

- مش مدرسة دي يا بيه . . . أنت جاي تمتحن . . .

شعر بالحرج بينما أطلقت هي ضحكة في وجهه .

بضعة رجال جالسين على قنفة مركونة على الحائط ، وهم يرتدون مـلابسـهم كـاملة ، كـأنهم في دائرة التـقـاعـد . هنالك حجرة فيها سرير بملاءاته ، ووسائده . امرأة تستخدم الهاتف ، وأخرى تقرض أظافر أقدامها . وكان المرح يعم المكان .

لا وجود لأحزان روسيا القرن التاسع عشر . . . قال عيسى في نفسه .

كان هنالك نوع من السخرية ، وشيء من اللامبالاة ، وسط الصـيـاح والدردشـة العـاليـة . كـان الجـو أقـرب الى العـبث والممازحة .

أصبح أمام باب موارب ، وكان يرى رجلاً يرتدي بنطلونه ، وعلى مقربة منه امرأة ترتدي دشداشتها فيسقط شعرها الأسود على كـتـفيـها ، وقد شـاهد أثر مدية على ظهرها العـاري . عند الدرج جلست امرأة سمينة تحت مصباح يتدلى من السقف . صاحت على المصري الذي يخدم هناك أن يسد الباب .

نظر إلى الجالسات ، فوجد شابة نحيفة ، شعرها مصبوغ بلون أشـقـر يشبـه البـراز ، لها سن ذهبيـة ، جسـدها ممصوص ،

سيقانها بشعة . قال ربما هذه التي يبحث عنها ، ليس متأكداً ، نظر إليها . . . سار خطوتين نحوها وهو ينظر إلى الخصلات الملونة المصبوغة ، فنهضت ووقفت أمامه وهي تنفخ دخان السيجارة في وجهه . سكت . لا يعرف ماذا يقول لها . نظر إليها مبتسماً . وقال «اسمي عيسى» .

«عاشت الأسامي . . . يا لللله . . . ادفع هناك» ألقت سيجارتها على الأرض وسحقتها بقدمها . ثم أشارت بيدها إلى المرأة السمينة بعينيها القاسيتين وصوتها المزعج ، والتي كانت جالسة على الكرسي وسيجارتها أمامها في المنفضة .

كان بقبعته ومعطفه وكتابه الذي بيده مختلفاً عن هذا الحشد ، وجوه مطلية بالمساحيق ، واحدة تجذب الزبائن ، وأخرى تدخن . مصري يقف عند الباب . أذرع مغطاة بأساور ذهبية ، نهود رخوة ، سيقان معراة ، ملابس منزوعة ومرمية على الأرض ، فتيات داخلات الى التواليت ، فتيات خارجات من الغرف ، فرقعة النعالات على الدرج ، ماذا يصنع لهذا الحشد المنشغل بنفسه ، هل يصرخ أريد أن أحرركن من هذه العبودية . . . وقبل أن ينطق أي شيء صاحت به الجالسة على المنبر :

«الدفع هناه أنت أبو شفقة الدفع هنا . . .»

خلع قبعته قبل أن يتحول إلى مزحة مضحكة . نظرت إليه سونيتته بسنها الذهبية ولكنتها الغجرية :

«شبيك أبو شفقة ، صاير لي مستر . . . ونسيت

العربي . . . الدفع هناك روح ادفع وتعال وراي»

تحسس جيبه بيده وابتسم لها ابتسامة ذاهلة وقد اقترب من المدخل ، قال لها بصوت هادئ :

«بس آني ما عندي فلوس»

«شلون»

«ما عندي فلوس» قال وقد تحشرج صوته من الخجل . .

«لعد اشعندك جاي . .؟»

«أريد أحررك من هذه المأساة اللي انت عايشه بيها»

انفجرت ضاحكة ، وصاحت على المرأة السمينة :

«عمة شوفي هذا اللي مسويلي نفسه مستر . . . يقول يريد يحررني من المأساة . . . ويريد يركب ببلاش . .»

«بلاش . .؟ شعدنا عدس الجمعية؟» قالت المرأة السمينة وجعلت القاعة تفطس بالضحك . .

ثم التفتت له وقالت بصورة ساخرة :

«روح حباب . . . جيب فلوس من امك وحرر اللي تريدها على كيفك . . .»

ثم التفتت إلى المصري وصاحت : «تعال يا عوض . . . اخذ المستر ودليه على الباب . .»

جاءه عوض وقال له : «تعال يا بيه فيه مدرسة قوريبة من هنا . . . روح عشان ما يفوتكش الامتحان . . . والله اقول لك في هنا سفارة قوريبة . . . يمكن السفير محتاج لك بشي حاجة ولا اثنين . . .» .

النهاية
قُتلوا ... ولا شيء آخر

موت عيسى

تلك الأيام من العام ١٩٨٧ ، كنت أراه على طول شاطئ نهر دجلة ، ليلاً . كان هارباً من الجيش ذلك الوقت ، وهنالك حكم بالإعدام يلاحقه ، وكنا نتساءل -منير وأنا- مرتعبين ، إلى متى يمكنه أن يصمد هكذا ، وإلى متى سينفلت من هذا الحكم .

كان الأمر برمته ينتهي بالنسبة لعيسى إلى الأحلام ، ينتهي إلى الخيالات والرؤى الملفقة ، يحلم مثلاً : أن الحرب تنتهي فجأة ، وتسقط جميع الأحكام بالإعدام ضد المدانين بالهروب من الحرب .

يأتينا مسرعاً ، بوجه صارم ومهتم ، يحمل معه خبراً في صحيفة ، أو ورقة على هيئة منشور ، أو شيئاً من هذا القبيل . خبر ، ربما ، لا صحة له ، خبر مفبرك أو مصنوع لأمر ما ، ثم يبدأ عيسى ذلك اليوم بالتحليلات السياسية والعسكرية والاجتماعية ، يرهق نفسه بتحليلات طويلة عريضة ليصل بالنهاية أن الحرب ستنتهي خلال أيام ؛ أو أن السلطة في

العراق أو في إيران سوف تسقط ، وأن الأمر مقضي تماماً ، وأنه سيتسرح بأقرب وقت ممكن . . يضرب يداً بيد ، يخرج من جيبه سيجارة ، يشعلها ويرمي عود الثقاب في المنفضة ، وينظر نحونا باستقامة تامة ، ينتظر منا جواباً أي جواب . .

طبعاً لم يكن ممكناً أبداً معاندته ، ذلك يعني أننا نقضي على أنفسنا في واقع الأمر ، فما إن نبدأ بتفنيد أسانيده حتى يتغير وجهه ، يشحب ، يضرب الطاولة بعصبية ، يغضب ، يتنرفز ، ثم ينخرط بخطاب طويل لا في الدفاع عن فكرته فقط ، إنما بتسفيهنا أيضاً . . . ويتهمنا شتى الاتهامات ، بل يدلنا كيف أننا جبناء ، وجهلة ، وأن تخوفاتنا الزائدة في الحياة هي التي ستبعدنا عن أية تجربة حية ، بل هي التي ستجعلنا كتاباً ثانويين ومغمورين ؛ لأننا غير جريئين ، ولا نحب المخاطرة ، ولذلك سنبقى على الدوام امتثاليين وتابعين .

نتركه لمدة يوم أو يومين ليتأكد من سراب ما فكر به ، ثم يعود إلينا وقد خاب أمله بهذه الفكرة .

قصص وهروبات متعددة

مرة التقيناه في مقهى البرازيلية ، وكانوا قد وضعوا مظلة خضراء على الباب فمر عيسى من المكان ، ولم يتعرف على المقهى ، اندفع قليلاً ثم عاد ليدفع الباب ويدخل ، كنا نجلس على الطاولة القريبة من الباب . كانت المقهى مزدهرة في الصيف ، أما في الداخل فكانت المصابيح مضاءة في عز

النهار ، وهنالك موسيقى تنبعث من داخل المقهى . جلس عيسى على مبعدة منا ، بعد أن خلع قبعته ، ووضع نظارته ذات الإطار المعدني على الطاولة ، تناول الصحيفة المخصصة للزبائن وأخذ يقرأ . بعد ذلك افتعل مشهد أنه تفاجأ برؤيتنا وهرع وجلس إلى طاولتنا ، لم يتكلم بشيء أول الأمر إنما انشغل بإكمال قراءة الجريدة ؛ إذ عبر من صفحة الأخبار الثقافية إلى الأخبار السياسية ، بعدها توقف ليشرب قدحاً من الماء ويطلب من جان نادل المقهى كوب قهوة .

تناول القهوة دون سكر ، وبرشفات بطيئة ، ثم وضع الفنجان مقلوباً في الصحن كي يتيح الوقت لبقايا القهوة أن تكتب مستقبله بعد هذه الأشهر من الهروب من الحرب .

عيسى افتعل اهتماماً بالفنجان غير أنه لم يسأل منير الذي كان بارعاً في قراءة الفناجين ، وقراءة الكف ، والإيمان بكل هذه القوى الفوطبيعية ، أن يقرأه له . إنما اكتفى أن نظر في الفنجان ، رفع رأسه إلى منير الذي تأهب كي يقرأ له طالعه ، غير أن عيسى أدار رأسه بخبث وأطفأ فيها عقب سيجارته كي يفسد على منير متعة أن يقرأها .

ثم افتعل أن الساعة قد حانت . فلم نسأله أين يذهب .

قال إنه مشغول جداً ، وانتظر منا أن نسأله عن سبب انشغاله . إلا أننا لم نفعل . كان يقف عند الطاولة ويكرر علينا أنه مشغول ولا بد له أن يذهب .

قلنا له : حسن إذا أنت مشغول اذهب .

وقد تصرف معه منير بفظاظة أيضاً ، قال له :

عيسى قبل أن تذهب أرجوك ادفع ثمن قهوتك .

- هل في يوم أنا ذهبت ولم أدفع؟ قال بعصبية .

- لا ولكن أحببت أن أنبهك . .

- تنبهني على ماذا يا حيوان ألا تتذكر كم دفعت عنك . . .

- أعرف ولماذا أنت عصبي قلت لك ادفع حسابك واذهب . . ولا تطولها . . . !

- راح ادفع يا حمار . . . يا شاعر فاشل . . . !

- يا ابن العاهرة! قال له منير وهو يضحك .

- اسكت يا ابن القحبة الروسية . . .

*

الأيام التالية كان كل يوم يأتينا بقصة جديدة ، وبفكرة خيالية جديدة ، لا تقل خيالاً عن قصته الأولى ، وكان ينشبك بحوارات عقيمة ومن النوع الثقيل مع منير ، ما كان مهماً نسبة له ذلك الوقت هو أن لا يعود إلى الجيش ، ولا يذهب إلى الحرب ، وأن يعود منير إلى ترجمة الشعراء الروس ، ويستمر هو في كتابته للشعر العجائبي ، وشرب البيرة التي يحبها ، وجلوس في مقاهي الأدباء ، ولعبة الهويات المزورة ، وقراءة سير الشعراء ، ونسيان الحرب . . . وليحدث ما يحدث . . .

مرة كنت رأيته في شارع أبي نواس ، كان الوقت ليلاً ، وهو لم يكن سكراناً فقط إنما كان في ثمل تام . كان متعباً تماماً ،

يخط بأقدامه خطاً ، ولا يقوى على حمل رأسه فيتدلى على صدره ، بعد أن تجول في شوارع بغداد الليل كله ، قال لي إن الأمر يكاد أن يُصيبه بالجنون!

عماذا يتحدث لم أكن أفهم؟

تصورت في البدء أنه يتحدث عن مصيره بعد أن أصبح فراراً من الحرب ، غير أنه أشار بيده بأن هذا الأمر لا يهتم به مطلقاً ، إنما تفكيره يتركز هذه الأيام على القصائد التي ترجمها منير من الشعر الروسي . جلسنا هنالك ساعة أو ساعتين . كان شعوره بالطبيعة ، في هذه اللحظات من الحرية ، عظيماً يشكل لا يضاهى . الأشجار المنحنية على ضفة نهر دجلة ، صور الأضواء المتكسّرة على صفحة الماء ، اندفاع التيار تحت أنوار الجسور الكونكريتية .

كانت المناظر قد أثملتنا تماماً ونحن ندخن السيجارة تلو السيجارة ، بحرٌ من الظلام الدامس الذي يخفي عالماً سرياً وخفياً عنا في النهار ، شرطة تتحرك بأسلحتها وعدتها خفيةً في الشوارع .

بداية النهاية

قبل الهجوم الإيراني العاصف نهاية في العام ١٩٨٧ ، سمعت بإلقاء القبض على جماعة بهية ، كنت يومها جريحاً ، أصبت بيدي اليسرى على أثر الهجوم ، وفي المستشفى العسكري التقيت بأحد الأصدقاء وأكد لي الخبر ، ولكنه لم

يؤكد لي وقتها إلقاء القبض على عيسى ، وحينها اتصلت بمنير فكثف اتصالاته وعرف أن عيسى نجا ، انفلت من قبضة الشرطة ، وغير سكنه ولم يعد يعيش في البتاوين إنما هرب خارج بغداد ، غير أن من نقل له الخبر لم يذكر له مكانه الجديد . ثم أخبرني بخبر سيء آخر ، قال إن الدكتور إبراهيم أدين بتهمة تجاوز حدود ، وتم إلقاء القبض عليه على الحدود التركية وهو يحاول الهرب إلى تركيا .

*

بعد فترة وجيزة استطاع منير العثور عليه ، وكان ذلك عن طريق سليمة شقيقته ، حيث اصطحبته معها له ، وذهبا خارج بغداد في منطقة نائية تسمى منطقة المعامل ، وتتكون من منازل صفيح عشوائية لعمال معامل للطابوق ، وأخبرني منير أن عيسى في فترة إقامته في علبة الصفيح هذه ، وفي هذا المكان الساخن والنائي ، قرأ مذكرات غاندي ، ثم قرأ رسائل نهرو إلى ابنته ، وتأثر بهذين الكتابين جداً ، وطلب منه أن يجلب له كتب طاغور ، أو أياً من الكتاب الذين يحملون في كتاباتهم الروح الهندية ، فقلت له إنه تحول كامل ، إلا أن منير رفض فكرتي رفضاً تاماً ، قلت له كيف تقول ذلك ، إنه لا يعترف بالروح الشرقية أبداً ، بل لا يعترف أن للشرق روحاً أصلاً ، قال نعم ، من هذه الناحية نعم ولكنه في الحقيقة لم يخطُ خطوة واحدة . فسألته كيف ، قال لقد وصل إلى الروح الهندية عن طريق الشعراء الإنكليز الذين تأثروا بها ، أي أنه وقع في حمى

التقليد مرة أخرى ، ومن جهة أخرى أنه اتبع طريقته في التقليد ذاتها وربما أكثر :

لم أفهم قلت له متعجباً . .

فقال لي وهو يضحك ، إن عيسى لف رأسه بلفة قريبة من اللفة الهندوسية وتأزر بوزرة غاندوية ، وقد طلب من شقيقته سليمة أن تشتري له معزة ، طالما هي لا تستطيع أن تجلب له الطعام يومياً فيمكنها أن تشتري له معزة ، حيث يأكل مما تدره من ضرعها كما كان يفعل غاندي ، فانفجرتُ ضحكاً ، ثم أكمل لي منير ، قال إنه يطلق على نفسه هذه الأيام «المهاتما عيسى»!

النهاية

إلى اليوم تحيرني نهاية عيسى ، إنها فنطازية ومأساوية مثل بدايته .

نهاية العام ١٩٨٧ ظهر عفو عام وشامل عن جميع الهاربين ، فسرعان ما التحق عيسى بوحدة الانضباط العسكري في بغداد ، وبدلاً من إطلاق سراحه وترحيله إلى وحدته في الجبهة ، تم ترحيله إلى شعبة الاستخبارات العسكرية ، بتهمة الانتماء إلى منظمة محظورة .

كانت آخر وحدة عسكرية خدم بها عيسى متمركزة في القاطع الجنوبي ، في منطقة السيبة جنوب مدينة البصرة ، أي في الوحدة ذاتها التي كان يخدم فيها منير (أما أنا فانتقلت قبل

هذا الوقت إلى القاطع الشمالي) ، وكان منير ينتظر قدومه ، فكان على صلة بشقيقته سليمة ، ويعلم بالتحاقه وتسليم نفسه .

أما أنا فلم أكن أعلم أي شيء عن الأمر ، إنما كنت عدت في إجازة ، وقد جاءني منير مهدماً تقريباً ، أول ما رآني بكى وقال حكم على عيسى بالإعدام ، وطلبوا من أهله زيارته ، فذهبت شقيقته سلمية ورأته يرتدي البذلة البرتقالية بذلة المحكومين بالإعدام . ثم انهار باكياً وقال إنه طلب منها أن تجلب له الكتاب الذي ترجمه عن الروسية ليقرأ به قبل تنفيذ الحكم .

*

بدا لي الأمر كله بعيداً عن التصديق ، ربما حدث خطأ ما ، لا يمكن أن يحدث هذا الأمر بهذه السرعة وبهذه الصورة ، أليس كذلك ، بدوت متلعثماً أمام منير مرتبكاً لا أعرف ماذا أقول له . . . بدا الأمر غائماً غامضاً . . . وشيئاً فشيئاً بدأت أستوعب الحدث ، ولاسيما بعد أن ذهب منير . . .

بقيت وحدي ساعة أو ساعتين ، ثم خرجت إلى الشارع ، شعرت بأني تائه وسط هذا التدافع . شعرت بأني غارق في العدم ، كما لو كنت أجري في حلم مبهم ، أسير في عالم مشوش ، أحاذي الواجهات الملونة الصارخة لمحلات بيع المواد المستعملة خلف فندق صحاري : أزياء شتوية ، بنطلونات ، أحذية ، سترات ، سراويل نسائية ، بيجامات ، مطريات ،

أثاث ، ثرايا من الكريستال ، جواريب ، فوتيات جلدية لامعة ، شمعدانات فضية ، إسورة ذهبية ، كل شيء للبيع . بينما عيسى سيقتل ، سيسقط الآن في الوحل ، جسده القلق ، وجهه الساخر سيمشي وحيداً وسط الموتى ، سيرمونه بالرصاص ويصطدم جسده بالحديد والخشب والمسامير ، وتتحول جثته إلى خرقة تتلاعب بها الرياح .

لم أكن مصدقاً ، كان شيئاً مستبعداً بالنسبة لي ، شيئاً أبعد من الضحك والبكاء وجميع هذه العواطف ، عيسى يقتل بأسلوب إداري بارد ، يموت تحت يافطة الخيانة العظمى ، وهذا العالم المحيط بنا لا يهتم ، إنه نوع من الفوضى التي كانت تحيط بي تلك الساعة .

*

ليلة مقتله حلمت به وهو يسير على الجسر بملابس جميلة ، كان لوجهه نبرة ذكاء تصفع بعدائية وجوه قاتليه الأغبياء ، لحظة صمت ، كما لو كان الزمن قد توقف ، وفجأة ، سقط كمسمار كبير الرأس . فنهض الجنود تملؤهم الإثارة والرعب ومضوا في كل صوب . كان له وجه متأمل ، لقد انغلقت عيناه إلى الأبد ، أما تعبيره الأخير فقد انطبع كما لو كان محفوراً في الفضاء .

في مساء موته أخذت السماء تمطر . طوال الليل كانت تمطر . وفي المنزل كنت جالساً على الأريكة ، أسمع طقطقة المطر على السقف في حجرة النوم ، شعرت به وهو يبلل الساعة

الداخلية للمنزل ، والأشجار ذات السيقان الضخمة ، بينما يشعل الآن عيسى آخر سيجارة له ويعب نفساً عميقاً بانتظار موته المحتم .

الأسطورة تلاحق عيسى بعد موته

لم ينته عيسى بعد موته . كان أسطورة في حياته ولا بد أن يكون أسطورة في مماته .

في يوم اتصل بي منير مستغرباً :

– ما عرفت؟

– شنو؟

– عيسى خرج من قبره . . .

– اشبيك منير انت اتجننت . .

– والله احكي حقيقة . . . عيسى شق القبر وخرج منه وهسه بغداد كلها عرفت بالأمر . .

– منير أنت شارب شي . . .

– أرجوك لا تعاند على عادتك . . . أقول لك الدنيا قائمة على حيلها ولم تقعد من هذا الخبر . . . عيسى شق القبر وخرج . . .

لقد شاعت في واقع الأمر تلك الأعوام في بغداد آلاف الحكايات من هذا النوع ، إنه زمن الحرب يظهر فيه الموتى للأحياء ، ويظهر الأحياء كآلهة مهزومة ، ظهور العذراء ، ظهور صاحب الزمان ، حتى الشهيد الذي تدفنه عائلته بيديها تنكر

موته ، تقول ببساطة من دفناه لم يكون هو ، وسيظهر لهم فيما بعد رجل أو امرأة لتقول لهم إنها رأته في مدينة ما ، وستصدق العائلة ، كان كل شيء يحضر فجأة ، يحضر في غمرة الموت ، ليشكل استيهامات الناس عن الذين لا يودون أن يروهم قد قضوا هذا كل ما في الأمر ، ففي الحرب بدلاً من أن يدفن الأبناء آباءهم ، يدفن الآباء أبناءهم ، إنه قلب للطبيعة ، قلب حقيقي للزمن ، وطالما يحضر هذا الفعل المقطوع عن كل منطق ، والخالي من الحقيقة ، فماذا تفعل الناس وهم يرون داء الحرب الذي لا شفاء له سوى الاستيهامات الروحية والفنطازية؟

من جهة أخرى كان منير مؤمناً بكل هذه الأشياء الغيبية . كان يسيطر عليه هاجس العالم المترابط عبر قوة لا مرئية ، وإن كانت هذه الأشياء قد تعززت في الحرب بصورة مريعة لدى الناس بشكل عام : سحر ، عرافات ، تحضير أرواح ، قراءة طالع . .الخ ، إلا أنها كانت واضحة لدى منير بصورة أخرى . وقد كان يريد أن يكتب الشعر بهذه الصورة أيضاً . كان يريده نوعاً من الإحالات إلى رؤى سحرية ، كونية ، تجريدية تظهر له بصورة غير محددة إلا أنها متجسدة بشيء ما . كانت شيئاً واضحاً ومنفصلاً عنه ، شيئاً موجوداً أو لها وجود كامل في الحياة ولم تكن نوعاً من إحالات ذاكرته بالذات . فلم يكن الأمر مفاجئاً نسبة لي وهو يؤمن بهذه الواقعة ، بل بدت لي بانسجام طبيعي تماماً مع شخصيته . ولكنها محض خيال بطبيعة الأمر .

*

كنت تصورت الأمر كله محض خيال ، محض قصة من هذه القصص التي تتداولها العجائز ، ولكن في الصباح أصبح الأمر أكثر خطورة وأكثر جدية .

كانت لي سيدة من أقربائي هي التي اتصلت بي وقالت ألم تسمع بالخبر هنالك جندي شق القبر وخرج منه . . . والناس تقول اسمه عيسى على اسم النبي عيسى . . . حين سمعتها تتكلم بهذه الطريقة لم أتمالك أعصابي ، لم أكن أعرف ماذا أفعل أضحك أم أبكي . . .

إنه النشور يا عيسى ، قبره ينشق وروحه تصعد إلى السماء . . .

لم يكن الأمر مجرد مزحة ، ولم يكن منير على قدر كبير من الجهل أيضاً ، بل أخذت القصة تتفاقم شيئاً فشيئاً ، وتصبح لها ذيول ونهايات وبدايات ، بدأ التحبيك على قدم وساق ، وأعداد كبيرة من الناس بدأت تغادر ذاهبة إلى المقبرة . . . وحتى منير فقد ذهب بنفسه للمقبرة ، وأكد لي أنه وجد شرطة قريبة من القبر ، وأخبرني أن كل الحاضرين هناك أيدوا له أن الجثة ليست في القبر . . .

أين ذهب عيسى؟

صعد إلى السماء قال لي أحد أصدقائه المسرحيين . . . إنه يوم النشور وهذا الشهر هو شهر آذار . . . يا للمفارقة موته مثل موت المسيح ، ونشوره في آذار أيضاً . .يا لقصيدة إليوت . . . قال منير الأرض الخراب هو العراق دون شك!

يعني حتى موت عيسى -قلت لمنير- بدلاً من أن يثير البكاء أخذ يثير الضحك . . . يا إلهي في أي بلاد نحن ، أي بلد حكمت على هذا الخفيف الظل بتهمة الخيانة العظمى ، حكمت على هذا الساحر بتهديد الأمن القومي ، أي تهديد وأي أمن كان يمكن أن يهدده شخص مثل عيسى؟

*

بقيت قصة عيسى مجهولة زمناً طويلاً ، بقيت مجهولة أكثر مما كنت توقعت . بل قتل منير دون أن يتمكن من معرفة هذا اللغز ، وبقي محتاراً فترة طويلة وهو يبحث عن حل أي حل معقول للأمر . ذلك أن هذا اللغز ، وإن ضاع بآلاف القصص والألغاز المشابهة له أيام الحرب ، إلا أنه لم يكشف إلا في العام ١٩٩٢ .

بالمصادفة كنت قرأت في المجلة العراقية المحلية ألف باء ، خبراً غريباً ، خبر إلقاء السلطات العراقية القبض على امرأة بتهمة حيازتها لجثة شقيقها . . .

ألقت السلطات العراقية القبض على المدعوة سليمة ارويد بتهمة حيازتها لجثة شقيقها ، وهو المجرم عيسى إرويد الذي حكم بالإعدام في العام ١٩٨٧ ، حيث قامت المدعوة بنقل جثة شقيقها من المقبرة ودفنه في حديقة منزلها بمساعدة اثنين من أقربائها ، أحدهما يملك سيارة تاكسي ، وهذا وقد ألقت السلطات القبض على المشاركين في الجريمة ، وقد اعترفا بأنهما ساعداها على إخراج الجثة من القبر ونقلها ليلاً ودفنها في

حديقة المنزل . . ولازال البحث جارياً من قبل السلطات لمعرفة أسباب قيام المدعوة بهذا العمل ، والجهات التي وراءه . . . .

موت منير

لم يكن منير حزيناً . إلا أنه كان يشعر أيضاً أن بعض الأحداث المعزولة والمفصولة تختلط فيما بينها ، تدلل أن حياته قصيرة ، استدل أن موته قريب . ومع أن هذه الأحداث المتفردة تبدو كأنها خالية من تجانسها ، إلا أنها من اللافت أنها تراكمت هناك أيضا بصورة مفاجئة . كانت كما لو أن مجموعة عناصر مشتتة أخذت تتجمع من كل مكان حتى أصبحت واضحة الملامح ، في البدء كانت أشياء غير لافتة تماماً ، عناصر مبعثرة ومفككة ، ولكن منير أحالها إلى رؤية من رؤى موته .

*

في الواقع كانت فكرة الموت تحاصرنا جميعاً ، لم يكن منير وحده .

نعم بالتأكيد كانت تحاصرنا ، وإلا ما معنى الحرب؟

الحرب هي أن تلتقط أنفاسك في ظل موت محقق ، لكنك لا تعرف وقته بالضبط . بيد أنك تشعر أنك ميت لا محالة . فكرة الميت-الحي هي التي كانت تقتلنا بصورة إدارية باردة . فالموت هنا هو أشبه بالموت بالإعدام ، نوع من الموت الإداري ، تأخذ الأمر الإداري وتذهب هكذا إلى حتفك دون أن تعترض تماماً .

ألهذا هرب عيسى من الحرب؟

لا أعرف ، ولكن بعد موته ، سيطر علينا منير وأنا هذا الهاجس ، ولم نكن قادرين أبداً على تخطيه إلا من خلال شغفنا بالشعر ، والشعر لا يكون إلا في أسبوع الإجازة ، لذلك لم نكن ننام خلال هذه الأيام السبعة أبداً ، كنا نحاول أن نعيش الشعر في كل دقيقة فيها ، كل ثانية مهما صغرت ، كان علينا عن طريق الشعر أن نشعر أجسادنا بكونها حية ، وهذا التمزق بين الموت والحياة هو نوع من التوتر المستمر ، نوع من الاندحار العنيد والهمجي ، والمفزع أيضاً .

*

اعترف لي منير مرة أن لعبته المفضلة هذه الأيام هي أن يتخيل نفسه ميتاً ، يأكله الدود . كان يشعر بكم هائل من الدود ينهش لحمه ، دود الأرض وهو يقيم في محجر عينيه ويفترس وجهه بشراهة ، وبعد مقتله كنت كل يوم أحلم هذا الحلم ، أن منير منتزع من اللحم ، مثخن بالدود الذي يولم فوق عظامه ، كنت أرى صوراً عجيبة بدقتها ووعورتها لكم هائل من الدود وهو يهاجمه ، ويجعل جثته مثل كعكة اسفنجية ، كنت أراه يحتشد فوقه حتى يجرد عظامه تماماً بينما هو يتنفس ببطء ، يطلق زفراته ، ويبكي مثل عجوز ، صورة ميت ينقبض فجأة محتشداً بحياة استثنائية .

ومن الغريب أن هذا الموت قد احتشد في داخله حتى تفجر بصورة حياة لا مثيل لها ، لقد أصبح سعيداً جداً تلك

الأيام ، لقد جعلته فكرة التنبؤ بموته وتحديدها لا بالأيام فقط إنما بالساعات أيضاً ، يعيش حياة جديدة مختلفة كلياً ، جعلته يعيش حياة استثنائية ، لقد أصبح أشبه بالطفل وقد وجد نفسه ممتلئاً بعاطفة ناضجة . وقد أخذ يكتب تلك الأيام بسيولة وثقة أذهلتني .

هكذا فكر : طالما أن الموت قد تم تحديده إذن سيكون أمراً معزولاً واستثنائياً في حياته ، ذلك أن حياته طبقاً إلى هذا الأمر هي سلسلة طويلة من حيوات متقطعة ، حياة واحدة متصلة مع ميتات متقطعة وهي إذن لن تنتهي ، ستظل في امتدادها الطويل ، هكذا كان يفكر ، شيء من التصور الدرزي قد سيطر عليه ذلك الوقت ، دفعه أن يفكر عملياً بتناسخ الأرواح :

– من هو يا ربي أنا ، شاعر من أتباع الحشاشين ، من أتباع الإسماعيلي الحسن الصباح مقتول على يد ثلة من أتباع الحكم ، من أنا يا ربي؟ هكذا كان يخاطب نفسه .

قال لي ذلك الوقت إن عليه أن ينجز ديوان شعر أو رواية ، لا يعرف بالضبط ، ولكن خلال فترة قصيرة جداً ، أي في الفترة التي تسبق موته . غير أن مشكلة منير تكمن في اعتقاده أن على تلك الكتابة أن تأتي دفعة واحدة . كان أشبه بممسوس بضرورة مجنونة ، هي أن تأتي الكتابة دفعة واحدة أو لا تأتي أبداً . كان يريد أن يكتب ولا يتوقف أبداً إلا عند الانتهاء . وقد أخبرني أنه شرع بكتابة قصيدة طويلة ، ولكنه وبعد أن كتب منها ثلاث صفحات توقف .

أما أنا فقد شرعت بكتابة رواية طويلة أيضاً ذلك الوقت، وبالإضافة إلى القصائد التي كنت أكتبها بشكل متواصل، كنت أكتب مقطوعات نثرية طويلة، حيث كنت أحاول تجربة نوع جديد من اللغة، نوع جديد من الكلمات التي أبحث عنها في المعاجم، وفي الكتب القديمة، وفي القواميس، وكنت أبحث عن اشتقاق الكلمات في اللغات السامية، وفي ذلك الوقت اكتشفنا، منير وأنا، المستشرقين وكتاباتهم في اللسانيات السامية، وقد شاركني منير هذا البحث أيضاً، وأقول إنه فضلاً عن ذلك، كان قد جرني جراً إلى العالم الروحاني الذي يعتمد هو الآخر على التعزيم من خلال اللغة، حتى أصبح هذا البحث لكلينا هاجساً، وربما هو هاجس الهرب من الموت الذي كنا نشعر به قريباً منا.

هاجس تركز ذلك الوقت بالابتعاد عن كل ما هو سائد وموجود ولا سيما في اللغة، ذلك أن اللغة الشائعة ذلك الوقت هي اللغة التي تستخدم في الإعلام. لقد كانت hyper langage، لغة متضخمة، خطاباً مفصولاً كلياً عن الحياة ولا يلامسها أبداً، وهكذا كنا نبحث عن لغة جديدة، عن كلمات غير مستخدمة، عن استخدامات لغوية لم يفسدها الإعلام ولا لغة الحرب أيضاً.

الموت وموت اللغة

كان منير ذلك الوقت محركاً حقيقياً على مستوى التنظير،

لم يكن مؤمناً بأية تجربة يمكنها أن تؤسس الشعر أو تصنع القصيدة ولا أي شيء من ذلك ، كان يعتقد أن الشعر شيء متعال ، سام ، بعيد ، والوصول إليه عن طريق الحس والنظر العقلي وليس بالتجربة الفعلية الحية مطلقاً ، وهذا هو افتراقه عن عيسى ، كان يحلم بالشعر كنظام مؤسس للكون أيضاً ، لم يكن بحلم بكتابته فقط إنما كان يريد الوصول إلى أسراره ، مثل الصوفي الذي يريد أن يبلغ حقيقة الله ، كان منير يريد الوصول إلى سر الكتابة الملغز .

بمعنى آخر ، كان فكره ذا طابع تجريدي فيما يخص الكتابة الشعرية ، ولم يكن يعتقد مطلقاً بأن الحياة لها علاقة بالكاتب ، كان يعتقد بالاستعارة ولكن من خلال ما تضفي على الحياة صفة مجازية .

ومع أنه لم يكن يضفي على الشاعر صفة أسطورية من حقيقة كونه إنساناً ، مثلما كان يفعل عيسى ، ولكن كان يريد من الشاعر أن يكون ناظراً في العالم اللامرئي ، هو ساحر ، غيبي ، متعال وميزته الوحيدة هي أنه الوحيد القادر على أن يسمع صمته من خلال هذا الكلام الميت ، الكلام الذي استخدم مرات ومرات حتى فقد المعنى .

في الواقع في الثمانينات كانت هذه معضلتنا :

كنا نقول ماذا تبقى من اللغة طالما استخدمت في الحرب ، وفي الصحافة ، وفي التلفزيون هذه الاستخدامات المقززة ، إذ لم يبق منها غير صمت عميق على الشاعر أن يستخدمه .

هذا ما كنا نقوله بصورة متواصلة ذلك الوقت ، وكنا نشعر أن فكراً ما كان يتبدد ، وصمتاً يتبدى ، وهو على العكس من عيسى الذي يردد دائماً إن الشعر يرتبط ، بطريقة ما ، بضجة يجب اختراعها .

*

وبقينا بعد مقتل أصدقائنا نلتقي ، بالنسبة لي على الأقل كنت أشعر بأن منير سينجو ، وكانت الحرب على أيامها الأخيرة ، لأنه حدث شيء لم يكن متوقعاً ولا بالحسبان ، أن القوات الإيرانية بدأت تنهار انهيارات سريعة ومتلاحقة ، وبدت نهاية الحرب على الأبواب ، وعدنا مرة أخرى منير وأنا في وحدة واحدة ، وهي وحدتنا العسكرية ذاتها التي عرفنا فيها أصدقاء عديدين ، بعضهم قتل وبعضهم تنقل في وحدات حربية أخرى ، ولكن بقينا أنا ومنير أمينين على وحدتنا ومخلصين لها ، وكنا نعود لها من وقت إلى وقت .

*

في يوم تم استدعائي إلى المقر الخلفي وذهبت ، وكان من المفترض أن أعود صباحاً ، ولكني التقيت ضابطا كان صديقي في الجامعة ، بقيت معه حتى المساء ، وهو الذي أخبرني أن قصفاً إيرانياً طال بعض مقدمات وحدتنا ، فأردت الاتصال بالوحدة من وحدة المخابرة في المقر الخلفي ، وكان صديقي الضابط معي ، وأول ما جاءني صوت المخابر في وحدتنا حتى طلب مني البقاء ؛ لأن آمر الوحدة أراد التكلم معي ، فجاءني

صوت النقيب حزيناً ، قال إن منير قتل . لم تخرج مني كلمة واحدة ، لم أنطق أبداً ، ولم تكن لي وقتها أية مشاعر ، شيء حتى الآن لا يمكنني تفسيره .

عودة أخيرة إلى رسالة ليلى السماك

حسن . . . هذه هي رسالة ليلى السماك . . . لقد انشغلت بها انشغالاً كلياً ، إلى الدرجة التي أعدت فقراتها في ذهني مرة بعد مرة ، وحين تخبو فقرة ما في ذاكرتي أعود إلى الرسالة لأقرأها مرة أخرى ، وأتخيل بطبيعة الأمر عالماً كاملاً كان يختفي وراءها ، أو يبرز في مخيلتي بسببها . فقد دارت الذكريات ذلك اليوم في جمجمتي مثل صوتٍ نافرٍ وواخزٍ ، مثل خلية نحل انتصبت فجأة بين جدران جمجمتي . وشعرت بالذكريات وهي تتعاظم أكثر فأكثر في حركة حلزونية متتالية ، وتهبط مثل الصور بانتظام متوازن من وعيي ، لم تكن صوراً فقط ، إنما أصوات أيضاً .

شعرت كما لو كانت هنالك أصوات متعددة تضرب من الداخل ضربات متوالية ، ضربات فظة قاسية ، لتنبجس فجأة كل الأحاسيس التي تتعلق بتلك الأعوام ، لتنبجس الصور ، ومن بينها صورة ليلى أيضاً ، لم يكن من الممكن أن أنسى صورة ليلى ، ليست الصورة الفيزيولوجية فقط ، إنما السايكولوجية أيضاً ؛ لأنها كانت تجسيداً للأختية ؛ وهي صورة عامة يمكنك أن تراها في العراق بوضوح ذلك الوقت :

كانت ليلى سمراء نحيفة أقرب إلى الطول منها إلى القِصَر ، لا بالجميلة ولا بالقبيحة . . ولكن لا يمكنك أن تتجاهل وجهها أبداً ، وفضلاً عن ذلك كانت تجسيداً للأخت التي تتحصن بأخيها بنوع من العاطفة الأمومية ، وهي ما أسميها بالأختية .

فقد برزت في العراق أثناء الحرب ظاهرة جديدة هي ظاهرة الأخت أو الأختية ، فالإخوان كانوا يقتلون في الحرب ، والأخت تدفع بعواطفها السخية وبنوع من قداسة مضمرة هذا الموت ، قدر تراجيدي يصيب الأخت ، حتى أكثر من قدر الأم ، ذلك أن الأخت هي التي تحاول عبر طهارتها ونقائها أن تدفع عن أخيها قدراً مؤلماً وتعيساً .

*

قلت لليلى قبل أن ننتهي أريد أن أحكي لك عن الأختية .

عن ماذا ؟ قالت بالتلفون . . .

عن الأختية . . . قلت لها هل تسمعينني . . .

ماذا تعني؟

أعني حزن الأخت ، إنه حزن من نوع آخر . . . إنه لحن بالأحرى . . . ميلودي خاص ، هو الحزن مقطراً ومركزاً ، وربما لا يضارعه حزن آخر في العائلة أبداً ، ولا حتى حزن الأم!

إن نحن قصدنا بالحزن هنا الحزن الإيجابي الوثاب ، لا ذلك الحزن المستسلم المريض الذي نجده عند الأم!

قلت لها إن الأخت تغامر بشبابها من أجل الأخ ؛ لتبعد موته ، وتمهر حياتها الفتية بالدفاع عنه كما لو أنها تصارع قوة شريرة . ذلك لأن من النادر أن تجد في العائلة شخصاً يمثّل هذا التعدد والتوكيد للذاتية العائلية مثلما تحملها الأخت . فهي بمستوى الأخ وبرتبته ، لا بالدرجة الأعلى منه كما هي الأم ، وبالرغم من أن هنالك قناعة نهائية تكاد أن تبدو سافرة ؛ عند الناس بحزن الأم ، ولكن من وجهة نظري حزن الأخت غير المعترف به هو الذي يقف وحيدا ، لا يحمل غير ذكرى وجوده وأبديته ، وهو وحده الذي يتحول أحياناً إلى نوع من النزوع نحو الموت الكلي .

*

لم تختف الأم أو العاطفة الأمومية في حروب العراق أبداً ، ولكن برزت الأخت العذراء ، بواجبها المتضخم والمتطلب ، برزت الأخت القوية وهي حزينة ذلك الحزن المتعجرف الصارم ، الحزن الحديدي الذي يوصلها أحياناً إلى الموت على أنقاض حب الأخ المقتول . هذا ما كنت أراه ذلك الوقت في بلادي ، بروز الأخت بروزاً واضحاً ، وهذه ظاهرة ربما غريبة على مجتمعات عديدة . ويمكنني القول إن ليلى وسليمة مثلتاها لي في هذا الموضع .

*

كنت أنا الذي تسلمت جثة منير . وقد لف التابوت بعلم . أخذناه بسيارة عسكرية أنا ، وضابط ركن الوحدة ، وثلاثة جنود

آخرين من وحدتنا ، وتوجهنا به إلى منزله .

كان الضابط قد اتصل بأهله قبل أن نحمله لهم ، قال إن معرفتهم بأمر مقتله تخفف من رؤيته محمولاً بتابوت ، وما إن وصلنا بالسيارة العسكرية قريباً من المنزل حتى رأيت أعداداً كبيرة من الناس تتدفق إلى حديقة المنزل .

لقد انتشر خبر مقتله بين الأقرباء والجيران بسرعة ، وأخذت الوجوه تتدفق بهذا الليل إلى المنزل ، كانت وجوهاً شاحبة ذاهلة تمر من البوابة الكبيرة عبر الحديقة وتدخل الصالة . وكنت أنا أول من نزل من السيارة العسكرية ، وكان سلاحي بيدي كي أطلق الرصاص في الهواء تحية لروحه ، ثم نزل الضابط ومسدسه بحزامه ، وثلاثة جنود آخرين يحملون أسلحتهم أيضاً وأنزلنا تابوته من أعلى السيارة ، لنحمله على الأكتاف ، لكن سرعان ما خطفته أيدي النساء من أقربائه من أيدينا .

كان الشحوب والذهول يعلو جميع الوجوه ، وحين وصل التابوت أمام الباب ، تدفقت أعداد كبيرة من الناس واندفعت باتجاه المنزل ، وأصبح صوت البكاء يعلو على صوت الرصاص ، هناك أقبلت أمه نحوي ، وما إن وقع بصرها علي حتى انهارت ، أما أنا فقد كتمت أساي لحظتها ، وتماسكت .

ثم ارتفع التابوت محمولاً بالعلم وأسرع الجميع ينزلون مندفعين حتى سدوا علينا باب البيت . . . فما استطعنا اختراق ذلك السد البشري إلى الحديقة ، كان التابوت قد وصل

على الرؤوس إلى الباب الخشبي الكبير ، وتبعناه إلى الصالة ، أول ما بان منها المكتبة إذ كنت أنظر إلى الكتب مركونة . . . لا معنى لها ، بينما كانت تكتسب معناها من أيدي منير ذاته . . .

كان هناك رجال كثيرون وقوفاً وجلوساً في حالة ذهول . . أما هو فكان صامتاً في تابوته ، حالما بقصيدته وقد مزق صدره الرصاص ، وكانت ليلى وحدها عند كتبه وأوراقه ، لقد عرفت أين تقف ، وقفت في المكان الذي كان يعشق منير الوقوف عنده ، مكتبه ، حيث قصائده وكتبه ، وقد أخذت تصرخ بصوت عال ، بصوت كان يملأ الصالة ، وجميع الباكين سكتوا فجأة ليستمعوا إلى صوت الأخت ، وكنت أسمعهم يتهامسون فيما بينهم :

أنصتوا أنصتوا إنها أخته . . .

حيث توجهت جميع الأنظار إلى ليلى ، كانت الوحيدة التي تغرق بموته ، تصرخ بصوت كأنه صوت منير ، ما أشبهها بوجهه ، كانت تحمل سحنته نفسها ، لون شعره نفسها ، نحافته وطوله ، كانت ترفع يديها إلى أعلى وتنزلها إلى صدرها الفتي بقوة ، كانت تصرخ بحزن لا شبيه له ، إلا حزن الأخت ، الحزن الذي رأيته عند سليمة شقيقة عيسى أيضاً . .

*

هكذا كنت واقفاً عند الحائط ، ومع أني كنت أرى الأب عند النافذة يهتز ببكائه ، ولكن ليلى وحدها التي أصبحت في

قلب المشهد . كان صوتها يشق المنزل والسقوف والجدران ويخترقها مثل كومة من الحطام ، كان يصل إلى السماء ، وما إن يتلاشى في صعوده حتى يتبعه صراخ وبكاء وعويل كل الحاضرين ، كانت تقود البكاء الجماعي مثل كونشرتو ، فالصوت المنفرد لها وهي تصرخ بصوت ثاقب :

منير يا منير أختك تناديك . .

ثم تسكت فيتبعها صوت الباكين بالعشرات ونشيجهم ، كانت ترفع يديها إلى الأعلى وهي جامدة وتصرخ بصوت ثاقب وحزين يتردد صداه في أرجاء المنزل . كانت تناديه بصوت يحرك الصخر غير أنه لا يجيب . . . كانت تتهاوى من اليأس فيردها الناس إلى وعيها ، وفي اللحظة الأخيرة ، حينما أرادوا أن يحملوا الجثمان ويخرجوه من المنزل لدفنه . . . ركضت نحوه واحتضنته بيديها ، وكأنها تريد أن تنام إلى جانبه . لحظتها انهرت تماماً ، لم تكن لدي القدرة أن أتماسك أكثر . . . لقد انفجرت ببكاء عال . . . وبنشيج أشبه بالسخط والاستنكار . . . انفجرت بالبكاء ، لقد أخذ جسدي كله يرتعش ، ودموعي تتدفق بصورة فظيعة ، وكان صدري يصعد ويهبط ولا أسيطر على نشيجي .

٢٠١١

منزل هانريش بول في قرية لانغه برويخ الألمانية

THE PROFESSORS OF ILLUSION

رواية
NOVEL

أساتذة الوهم



• الرواية

رواية عن الشعر والحبّ والموت في العراق، تدور أحداثها في بغداد، في العام ١٩٨٧، وتتحدّث عن مجموعة جنود شعراء يقتلون جميعهم أثناء الحرب العراقيّة الإيرانيّة، إلاّ واحداً يروي الأحداث فيما بعد، وذلك بعد أن يتسلّم رسالة من طالبة تدرس الأدب الروسيّ وتريد أن تعقد مقارنة بين شعراء روس من ضحايا الفترة الستالينيّة والحرب العالميّة الثانية مع شعراء عراقيّين عاشوا الثمانينات في بغداد أو قتلوا في الحرب العراقيّة الإيرانيّة، فيروي قصّة أصدقائه: **منير**، الذي أثّر على مجموعة كبيرة من الشعراء، في ذلك الوقت، بترجمته لديوان من الشعر، واكتشفوا، بعد مقتله، أنّه لم يكن يعرف حرفاً من اللغة التي ترجم منها؛ ***الدكتور إبراهيم***، الطبيب من جنود الميدان الطبيّ، ذو الشخصيّة الخارقة والاستثنائيّة، الذي يطلق عليه أصدقاؤه «*الدكتور فاوستوس*» ويعتقدون أنه أعظم شاعر حيّ، والذي يعدم بسبب هربه من الحرب. جماعة أدبيّة تطلق على نفسها: «**جماعة بهيّة**»، وهم فريق أدبيّ على غرار التجمّعات السياسيّة، يؤسّسها مجموعة من الجنود الهاربين، يكتبون الشعر بشكل جماعيّ، ويمارسون النشل والسرقة لتمويل أعمالهم. أمّا الشخصيّة الرئيسة فهي **عيسى**، الشاعر المجنون والهامشيّ، الذي يعيش حياة بغداد الثمانينات، ويتحوّل إلى أسطورة حين تختفي جثته بعد مقتله.

تكشف هذه الرواية عن صفحة مخفيّة من الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة في بغداد الثمانينات، المقاهي الأدبيّة، التجمّعات الشعريّة، الحياة المدنيّة تحت الحرب. كما إنّها تناقش مفهوم الشعر والحبّ والموت وكتابة التاريخ الأدبيّ على خلفيّة حياة مجموعة من الجنود الشعراء أثناء الحرب.

• علي بدر

روائي عراقيّ نالت رواياته الكثير من الجوائز، وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبيّة.

ISBN 978-614-419-018-X


9 786144 190180

